نسر الدم

رواية

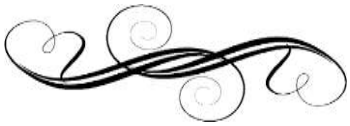

محمد نزيه

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: نسر الدم

اســـم المـؤلف: محمد نزيه

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 13276 / 2022

الترقيـم الدولي: 978 – 977 - 998 - 441 - 4

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصميـم الغلاف: منـى الموجي

التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

نسر الدم

روايةَ

محمد نزيه

ديوان العرب للنشر والتوزيع

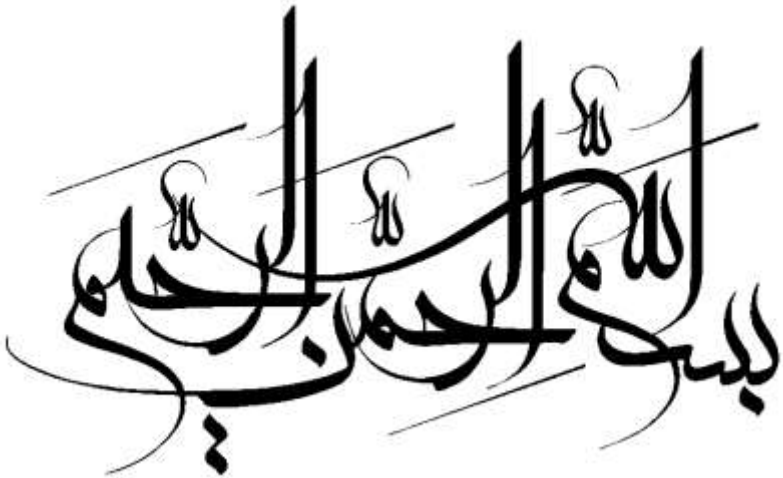
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

قال تعالى: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) صدق الله العظيم

بدون تشجيع أخي وعائلتي؛ لما استطعت أن أكمل تلك الرواية. لقد آمنوا بكلمتي ورسالتي نحو تحقيق الأفضل والسعي للتغيير من نظرة المجتمع المقيدة بسلاسل والمصممة على قتل المرء ألف مرة كل يوم.

إهداء خاص بكامل الود والاحترام المتبادل

الكاتب: محمود زيدان حافظ

الكاتبة المتألقة: أريج دكة الشرفا

الكاتبة الرائعة: منار دياب

محمد نزيه

****

المقدمة

تؤثر بنا الحياة وتقودنا، لهلاك زُؤاف، إن كان الموت هو السبيل التام لخلاص أبديّ فلمَ كان هذا الظلام؟!

ألن يهلك معنا هؤلاء ونسير سوياً إلى نفس المصير دون فوارق.

طفل، شاب، رجل، يتخلل بداخل أعيننا بريقٌ يتلاشى بما نفقد في تلك الحياة، حتى يختفي ويضحى ظلاماً فارغاً، حين لا تعد النفس تقوى على التحمل، أتفقد كل ما يجعلها بشرا، أتفقد حق التميز عن سائر المخلوقات، الروح السامية.

فأين... أين بقايا تلك النفوس المحطمة؟ أتغادر جسدها تبحث عن ملاذٍ آمنٍ من الحياة، أم عن مكانٍ آخر ترقد بسلام حتى يحين الوداع.

جسدٌ معلقٌ بدون أقدام، تنهمر الدماء من بقايا ذلك الجسد كأنهار تسقي ذلك الظلام، صرخات بلا صوت... بل كلمات لا تخرج ودموع منسابة، أكاد أقول: إنها هي ما يمزقني عن تلك الدماء المتدفقة أو الجسد المتناثر.

أرى في نهاية الظلام، عائلتي، أبي، أمي والجميع يبتسم... وهم مثلي، بل أشد إيلامًا، أجساد محطمة والدماء تغطي أجسادهم والابتسامة تعلو وجوههم بلا ألمٍ أو معاناةٍ، ابتسامة شاحبة أصابها الجمود مفتقدة كل ملامحها البشرية، تلك الأعين حيث فقدت كل بريقها، ولا يتخللها سوى الظلمة.

خطوات، لا بل همسات قادمة من ذلك الظلام البعيد اهتزَّ جسدي، يرتعد خوفًا من المجهول القادم لا... لا تقترب أرجوك لا تقترب كلمات أريد قولها (وجم) لساني، حين ترى كل ما تعلق فؤادك به معلقاً أمامك، وتنساب الدماء من أجسادهم، وشخصاً في الظلام ممسكاً بتلك السلاسل.

التي تكاد تبلغ عنان السماء كأن السماء انشقت لتخرج سلاسل مذيلة بخطاطيف، تمزق أرواحهم قبل أجسادهم، وتلك الدماء المتطايرة، لا تسقط إنما تصعد، لتختلط ظلمةُ المساء بلون الدماء.

تزيد الصرخات، عند انتزاع تلك السلاسل حتى أرى عظاماً أظهرها غياب كساها من اللحم، تتحرك من ذلك الطرف الرفيع بيد من هو قابع في الظلام. تبرق عيناه مبتسماً، معلناً انتصاره... بآلامهم! أرجوك توقف اتركهم..

انتفض جسدي من الفراش...كأنّ برقاً أصابه لأسقط أرضاً، محاولاً التقاط أنفاسي والنجاة من الاختناق خلف تلك الكوابيس، لا يسعني سوى فتح فمي لاستنشاق أكبر قدر من الهواء، وأنا مغمض العينين أخشى النظر لأركان غرفتي المظلمة، لحظات من تلك الكوابيس تجعلني قادراً على سماع دقات قلبي، وشدة خفقانه وأنه على وشك الانبثاق.

رغم حلكة الظلام ولا أرى جسدي، أشعر بيدي ترعد خوفاً ولن تهدأ حتى أسكنها فوق قلبي، وأقول: إنّ الأمور على ما يرام وغداً أفضل، تلك الكلمات هي المتبقية من أمي... حين كانت تنتابني الكوابيس في الصغر،

كانت تفعلها وتخبرني أن طمئن قلبك لن يؤذيك أحد، ولن تزورك الكوابيس، أفعلها الآن ليس إيماناً أن الأحلام المروعة سوف تزول، بل اشتياقاً إليها... لحظتها الأخير في الحياة كانت بين أحضاني، أستمع إلى دقات قلبها تهدأ رويداً رويداً حتى تلاشت.

اعتدت على تلك الكوابيس منذ الصغر، تطور الأمر واختلف؛ فأصبح كابوساً واحداً يطاردني كل ليلة وأن أبي وأمي.... دائماً بداخله، أشعر أنهم يتوسلون للمساعدة، وأنا عاجز عن الفهم أو حتى عن إيقاف الكوابيس.

لا أرى من ظلام الغرفة، هممت أن أخرج حتى أشعر ببعض الهواء النقي والتقط علبة السجائر من فوق منضدتي الفوسفورية... كانت الحل الأمثل للانقطاع الكهرباء الدائم، أيام كثيرة تصيبني الجروح من تلك المنضدة الكائنة بجانب السرير، وأفقد كل الأشياء الهامة عند سقوطي فوقها... الآن بمجرد النظر خلفي أراها مشعة تنير ما حولها بمقدار نصف دائرة، لا أخفي أنها في البداية أصابتني بالرعب. أما الآن هي أول تفكير ناجح لي في تلك الحياة.

خرجت إلى الهواء الطلق بالخارج وكان مازال الليل قائماً ويعلو القمر السماء كبدر مكتمل، ولكن القمر لا ينير وكل شيء مظلم (خسوف قمري)، أعيش بمفردي في ذلك المنزل البعيد عن المدينة، على أطراف الغابة، في النظرة الأولى ترى غابة متشحة بالسواد، تشابك أشجار الصنوبر

الضخمة والخيزران جعلها مهيبة في أعين الناس ولا يجرؤ الكثير على القدوم، بفضل تلك الأشجار والأجمات وأشكالها المخيفة في الليل.

لا أرى سوى تلك الشعلة في يدي اليسرى، السيجارة كانت الشعاع الوحيد في الظلام المحيط، لأرى أن ثلاثة أصابع هي المتبقية، مفتقد (الخنصر) و(البنصر)، لم يرد إلى عقلي يوماً أسماء تلك الأصابع، فقط حين فقدتها أردت معرفة الباقي، (الإبهام)، (والوسطى)، (والسبابة).

فقدان تلك الأصابع، أفقدني يد كاملة، حيث صارت خائرة القوى.

ترنح جسدي مستنداً إلى إحدى أشجار الصنوبر أمام منزلي الخشبي، كما اعتدت دائماً بعد تلك الكوابيس جالس حتى الصباح، تكمن الصعاب في تلك الساعات الطوال، حيث الواقع أسوأ من الأحلام، وتذكر ما مضى.

****

الفصل الأول

أشباه البشر

جسد صغير يتطاير بين الأيادي ويقبل الجميع ليراني، احتفال صاخب، مولد ذكر يرث اسم العائلة، يملأ المكان دخان متصاعد معبأ برائحة شواء الغزلان، ووليمة ضخمة في وسط زحام من الموسيقى المختلطة ورقصات لشعوب مختلفة أتقنها شعبي، وكان أشهرها (فلامنكو)، تميزت ألحانها أنها تتسم بطابعٍ حزينٍ ورقصٍ حركي، ليعبر عن حزنٍ دفينٍ في تلك الحركات، وظلم تجرعه كل منا على حدة، فلا يغرنك ملابسنا المزركشة بألوان زاهية، تخفي القلوب الكثير، ونحن (الرومن)، أو كما ساد وصفنا (الغجر)، أتقنا فن الحزن والألم معبرين عنها في تلك الموسيقى.

ارتفع أنيني.... وتأوهت كثيراً معلناً انزعاجي من المباركة.... حيث يحملني كل شخص ويقبلني، متمنياً لي الصحة والسعادة الأبدية.... أدرك تلك اللحظات بأدق تفاصيلها، رغم أن عمري لم يتجاوز الساعات، لم يكن من الطبيعي أن أكون مدركاً للأمور حولي، كنت مختلفاً... ازداد الأمر غرابة بابتسامةٍ خافتةٍ من هؤلاء العجائز، لم أفهم مغزاها، كأن اختلافي هو المتوقع ومرحب به وسط الجميع.

أنقذني أبي.... لم أبالغ في وصف إنقاذي، بضع ساعات من الحياة ولا أرى سوى وجوه مجعدة، مغطاة بالوشوم وشعر أبيض منسدل أطرافه يظهر من حافة الأوشحة فوق رؤوسهم، الأمر الذي دفعني للبكاء.... فحين ابتسمت إحداهن كانت أسنانها متساقطة، ولم يتبقَّ سوى ثلاثة أسنان بلون فضي.

حملني أبي منقذاً إياي من تلك العجائز متجهاً إلى غرفة بها إضاءة خافتة، يكسوها الهدوء عند إغلاق بابها ونوافذها، سمعت صوتها للمرة الأولى وهي تحضنني وتقول: (مرحباً بك يا صغيري، انتظرتك طويلاً، لا تقلق لن تغادر أحضاني مرة أخرى)، أمي.... بمجرد احتضاني سكنت دون حركة أنظر إليها وأبتسم للمرة الأولى.... حينها قال أبي: «واو! ذلك الشقي يبتسم أيضاً... اعتقدت أنه لن يكف عن البكاء، كان عابساً للغاية في وجه كبار السن بالخارج. كلما تذكرت الأمر تمنيت لو أني أستطيع الكلام لتعنيفه بشدة، لم أكمل يوماً واحداً في الحياة ويضعني أمام تلك العجائز المخيفات ويريد أن أبتسم... في الواقع عليه أن يصلي أنني لم أمت رعباً من تلك الوجوه.

عبس وجهي مجدداً وأنا أنظر لأبي... مما دفعه قائلًا: هل ينظر إليّ بعبس! أم أنني أتخيل هذا الأمر!! لتجيبه أمي: ماذا بك؟ هو فقط جائع ويريد الطعام.

قرية في جنوب غرب ألمانيا، منعزلة هاربة من مظاهر الإنسانية الزائفة تحتوي كثيراً من الغجر، كانوا وقوداً للشعب (الآري)، منفذاً للتجارب والاضطهاد العرقي وإبادة كانت أسوأ من الحروب، حتى لم يبقَ سوى تلك

القرية المتوارية عن الأنظار، حيث أنهم لم يكونوا من الجنس المختار، وكانت ملاذنا الأخير (الغابات السوداء).

كنت ابناً تمناه زوجان لقرابة الخمس سنوات في محاولات دَؤُوبة، حتى قال الطبيب: إنّ هذا الحمل أمر مستحيل، وإن تم مؤكد سوف تهلكين، كيف تحبين مجهولاً عنك وتحرقين روحك حتى تضاء الحياة لروح أخرى، وقد كان، وولدت الحياة من الموت... توالت اللحظات والأيام.... ومرت سنة كاملة، للمرة الأولى أرى أمي تبكي وتحتضني بشدة وتنظر إليّ بنظرات يملؤها الشوق والحنين، انبعث بداخلي شعور سيئ دفعني للبكاء... دون أسباب وأنا أراها تذهب مبتعدة حتى توارت بين الأشجار، انقضى يومان حتى رأيتها، ساكنة على الفراش لا تتحرك.... لم أفهم ماذا بها، زحفت حتى وصلت إليها وأجذب أطراف ملابسها... لأخبرها أنني أتيت، لم تحرك ساكناً، زاد الأمر إصراري على إيقاظها، تشبثت بملابسها للوقوف للمرة الأولى، لبثت ثانية واحدة قبل السقوط للأمام على جسدها وأنا أتغنج مبتسماً لها... أفاقت من سكرتها تنظر إليّ بعينين انطفأ بريقهما، وابتسامة يملؤها اليأس، ثم أغلقت عينيها.

لم أذكر الكثير بعد تلك اللحظة، شعرت أني فقدت شيئاً أجهله، وهو ما كان يميزني عن الجميع، كان يحاوطني الاهتمام والحب أينما ذهبت بنظرات يعلوها العطف ويسكنها الحزن الدائم، فقد لبثت أمي سنة واحدة وماتت. بالرغم من فقدان أمي (اليانا)، كنت أنا انتصارها الوحيد، في تلك الحياة.

كان أبي شديد الاهتمام وحريصاً بشكلٍ دائمٍ على سلامتي وتوفير كل سبل الراحة لتعويضي عن فقدان أمي، فلم أفقد شيئاً في طفولتي... كانت تهتم بي نساء القبيلة بشكل خاص... كنت الطفل الوحيد في القرية بلا أم، تفاعلت نساء القرية لتعويضي عن ذلك النقص، فالجميع في القرية عائلة واحدة، رغم فقرنا كان الحب والود هو الغنى، فكان يمتهن رجال القرية عدة وظائف، الصيد، والحراسة، وتجميع الأخشاب للتدفئة، أما النساء كن يعددن الطعام ويهتممن بالصغار، ويعملن على صناعة الملابس بطريقة تناسب عاداتنا وأعرافنا.

طالما احترمت أبي حيث أنه كان محبوباً من الجميع، وددت أن أكون مثله يوماً ما، صياداً ماهراً وقائداً لفرق الصيد، ورجلاً نافذاً في أمره.... لم تكن له عادة غريبة سوى أنه كان دائم الوقوف أمام الحائط في غرفة المعيشة، حيث توجد الصورة الأخيرة لأمي، صورة يعتليها هالات التعب والإرهاق، وكانت الذكرى الوحيدة لأمي المتبقية لنا، أخبرني أبي باختلافي وأنني كنت أنظر وأتصفح كل من حولي بعناية منذ يومي الأول، وظنه أني أفهم ما يقولون... ثم تمتم قائلاً: وانتهى هذا الأمر عند موت والدتك، أصبحت تتصرف كأمثالك من الصغار.

انقضى كثيراً من طفولتي في حلقات متكررة وهادئة بلا جديد، مع ذلك كانت السعادة تغمر أيامي ويعم الهدوء في القرية، حتى أعلن هتلر تلك الحرب الثانية، بهجوم ألمانيا على بولندا في سبتمبر عام **1939**.

بسبب الحرب عثر الجنود على قريتنا، لم يسبق لهم دخول (الغابات السوداء)، خوفاً من أساطيرها الدامية وظلمتها الموحشة، أجبرهم خوفهم على دخول تلك الغابة حتى يتم التصدي (لفرنسا)، أحد دول التحالف وتأمين الحدود الغربية، خوفاً من أي هجوم مباغت، لم أعرف شعور الخوف من قبل حتى رأيت أَوجُه مَن في القرية ويظهر على ملامح الكثير منهم الذعر، وانخفض بريق أعينهم المليء بالحياة، ينتظرون رعباً قادم.

كانوا بشراً... لا نختلف كثيراً سوى في الملابس، ربما كان الاختلاف الأوضح أعينهم الزرقاء، التي يظهر ضياؤها كموج البحار، التي أعلنت عن قدومهم، ويتميزون ببشرة بيضاء ناصعة، رغم الإرهاق الواضح عليهم، وشعر أصفر يشبه كثيراً لون الحلي في رقاب النساء... رغم تلك الاختلافات، كانوا بشراً في عيني... أو ربما أخطأت وليسوا بشراً، بل أشباهاً للبشر.

أعداد هائلة من الجنود، بملابس سوداء موحدة، وإشارات حمراء تعلو أكمام أيديهم اليسرى، كلمات نسمع بعضها.... بل كانت أقرب لهمسات بين ثلاثة رجال، ويأتمر الجميع لكل كلمة تخرج من أفواههم، في تلك الأثناء كان رجال القرية، يقف كلٌّ منهم بجوار أسرته..... ينتظرون أمراً ما.

غمغم أحد قادتهم بكلمات كثيرة أوضحها... اقتلوهم!

كلمة... لم أفهم معناها، لكن كانت كفيلة بتغير ملامح الجميع!

التفَّ جسد والدي يحاوط جسدي الصغير، ودموع بللت تلك الأوجه وكلمات لا أفهم نصفها اختلطت مع صرخات النساء متوسلة، أرجوكم

اتركوا أطفالنا، ثلاثون عائلة اعوجت أجسادهم حتى تكون دروعاً، تحاوط أطفالهم وارتفعت أصوات عويل النساء مختلطة بدموعهم.

اصطف أعداد هائلة من الجنود فور أمر أحد قادتهم... يوجهون بنادقهم نحونا مستعدين لإبادة قرية بأكملها تطبيق لأمر قائدهم دون وجه حق، وكان ذنبنا الوحيد هو الاختلاف، لم يبق سوى ثوانٍ معدودة، وتشهد تلك القرية حادثة إبادة عرقية لا تقل بشاعة عن غيرها.

تمتم جندي بكلمات... تحضر، استعد، أطل...

أوقف الجندي صوت بوق مزعج من بيوت حديدية تسير لم أرَها من قبل (العربات)... وأتى جندي آخر مسرعاً يخبرهم بالانتظار وأن زعيم الفصائل قادم.

كانوا يطلقون عليها (عربة)، أتت واحدة صغيرة مقارنة بما أتى بها الجنود، لكن بدا عليها الرقي الواضح... وأسرع أحد الجنود بفتح الباب الخلفي للعربة، لينزل قائد الفصائل... في تلك اللحظة أرغمونا أن ننظر إلى الأرض، مع تحذير شديد اللهجة، إن حاول أحدنا رفع أهدابه... سيطلقون النار بين عينيه.

لم نرَ قائدهم... رغم أصوات أقدامه المسموعة، وارتباك الجنود الواضح من أصواتهم في تقديم التحية... ويخبره أحدهم عن السعادة والسرور لتشريفة لهم بحضوره... كانت كلماته قليلة أخبرهم بوقف الإبادة وأخذ الرجال للحرب وإن اعترض أحد يقتلوه هو وعائلته.

أراد الرجال للحرب حيث قيمة كل جندي مهما كان عرقه... لم يقتلونا بل سلبوا كل شيء منا لحرب لا تنم لنا بصلة، حرب أقامها رجل محب للدماء وأعانه عليها رجالٌ بلا عقل يدمرون حياتهم بأيديهم بتلك الحرب، لم يكن العالم قد التأمت جروحه من الحرب الأولى ودمار كثير من البلدان وموت المزيد والمزيد من الناس، وأعلن حرب أخرى لتأخذ المزيد والمزيد.

سلبونا كل أحلامنا وأيامنا السعيدة، وأنا ابن عشرة أعوام، أرى أبي للمرة الأخيرة، وتنهال أعيننا من الدموع وأنا أخبرهم أرجوكم لا تأخذوا أبي، أرجوك سيدي ليس لدي غيره أبي... أرجوك لا... يا أبي لا تتركني، انطلقت حتى أمسكت بذلك الطرف من الأمل الأخير في قدم ذلك الجندي، وأنظر لعينه، أو ما بقي منها من بريق وتنهال دموعي وأكاد لا أنطق أرجو... أرجوك اترك أبي، ذلك الجندي ذو النظرة الشاحبة، كان يرى هذا الموقف مراراً ويعلم أن اللقاء لن يأتي مجدداً فكان رؤوفاً لمرة واحدة وجثا حتى رفعني من ملابسي المتسخة وذهب إلى أبي في تلك العربة الضخمة، حتى يكون اللقاء الأخير.

قرار تلك العائلات بين أيديكم، فعل واحد طائش ونعود لنجعل كل شيء رماداً، كلمات تحمل في طياتها الكثير من ذلك القائد.

بكاء وأعين تفحمت من ذلك المشهد فكانت القرية بهمساتها البعيدة، داخل مسمعي أصبح ذلك الطفل يتيماً، فقد أمه قبل بدء حياته، والآن فقد

أباه، لم آكل لأيام متوالية، ولم يكن إضراباً عن الطعام، ولكن فقدان أبي أفقدني الرغبة في الحياة، وثقلت يدي حتى لم أقدر على حمل الخبز إلى فمي.
ظلال سوداء تحت عيني ودائماً يظهر عليها أثر البكاء، وأنا أجلس على أطراف القرية أنتظر عودة أبي، ومرت الأيام الطوال من البكاء والحزن. كأن الزمان أعلن عن أسى وحزن أبدي وظلمة بدأت منذ تلك اللحظة، وعيني مرتقبة بتلهف دائم منتظرة قدوم الغائبين، ما أسوأ الانتظار لا يشبه سوى الموت البطيء!

2 سبتمبر عام **1945**حيث بلغ مسمع الجميع أننا خسرنا الحرب، ومات كثيرٌ من الجنود. ٦ سنوات من الانتظار على أمل انتهاء الحرب ورجوع الجميع بخير... انتهت باستسلام ألمانيا لدول الحلفاء، وعلمت أن بالخسارة أمل رجوع أحدهم أصبح مستحيلاً.

عاد رجل واحد متعب الهيئة وكان طويل القامة ذا شعر أصفر وأزرق العينين، لم أعهد برؤية هذا الرجل من قبل؛ فقد كان من (الآري)، هرولت مسرعاً إليه لأعرف مصير أبي ورجال القرية، لم يقل سوى كلمة واحدة قبل ابتعاده: لا أعرف!! فور تكملة ورغم انقضاء كل تلك السنوات علمت أنه قائد الفصائل.... لكن لمَ عاد لمَ هو فقط.... لمَ..... لماذا لم يعد أبي بدلاً عنه، ماذا فعل حتى ينجو؟

وقفت أمام ذلك القائد ولم أحرك ساكناً، غير مصدق زوال الأمل المتبقي، ويلقي قلبي كل أوجاعه في تلك الدموع حتى ابتلت الأرض.... وأنا أصرخ بأنفاس متقطعة أين..... أين أبي أيها الحقير؟

تتطاير جسدي في الهواء، صوت ارتطام قدم ذلك القائد بصدري كانت كافية لتخبر من حولي عن قوة تلك الضربة لتدفعني أمتاراً إلى الخلف، ليسقط جسدي مليئاً بتلك الخدوش والكدمات، بالكاد شعرت بتلك الجروح، ما بداخلي من حزن أفقدني الشعور بكل شيء حتى الدماء المنبثقة من فمي لم أبالِ بها... وأنا أراه للمرة الأخيرة مبتعداً حتى توارى في تلك الأشجار عن أنظاري.

عودة رجل وحيد للقرية حطمت كل الأحلام برجوع أبي مرة أخرى، لكن تذكرت قدومي بعد سنوات انتظار أبي وأمي، لذا أحببت مجهولاً كأمي، وأملت أن أراه مرة أخرى.

رغم اعتناء الجميع بي وكل ليلة كنت أجالس عائلة أرى في أعينهم الحزن لنقصان فردٍ منهم.... أخ أو أب أو صديق فكان الجميع يفتقد شخصاً في الحياة منتظراً قدوم ذلك الشخص حتى تكتمل وتصبح حياة، لم يتبقَّ من القرية، سوى النساء وأطفال لا يتعدى أغلبهم خمسة سنوات، وأنا..... (كين) اسم تمت مباركته من أبي الغجر... وأول غجري، أصبح عمري الآن 16 عاماً.... رغم صغر سني أصبحت زعيمَ قرية الغجر القابعة بداخل (الغابات السوداء)، طوال السنوات الماضية نأكل بحذر من المخزون المدخر

في القرية من قمح وشعير وبعض النباتات التي لا تفسد مع مرور الوقت، حيث لا ينبت في الغابات السوداء ثمار... ولجلب بعض ثمار الفاكهة أو الخضراوات لابد من قطع **10000** ميل لأقرب قرية.

كانت أول المصائب بعد حادثة الجنود هي أن مخزون الطعام على وشك الانتهاء، وأن الصغار لن يصمدوا ليومين كاملين بدون الطعام... ولم يبق سوى بعض أكياس القمح لن تكفي سوى الصغار في الأيام المقبلة، وليس لدينا سوى ما يكفي لـ **10** أيام فقط....

ويمكن أن ينتظروا **3** أيام بحد أقصى بدون طعام، لكن في النهاية سوف يهلكون، وبهذا أصبح على عاتقي توفير الغذاء.... قبل تلك المدة أو سوف نفقد الصغار أولاً، ثم نهلك جميعاً.

ذهبت إلى الغابة محملاً كثيراً من الأحبال وفأس أبي وقوساً قديماً أعطاه لي طفل صغير... كان ملكاً لأبيه، أعطاه لي عسى أن يحالفني الحظ الجيد في الصيد... كانت المرة الأولى لي في التعمق داخل الغابات السوداء، وأشجارها الضخمة والأجمات المتشابكة التي تمنع إيصال الشمس لهذا يكسوها دائماً السواد... والأرض قاحلة لغياب الشمس بصفة دائمة... لهذا ذهبت إلى الوديان، حيث يمكنني إيجاد الغزلان الحرة بجانب تلك الينابيع وأيضاً بالقرب من تلك النهار والمراعي الخضراء، حيث يمكن للحيوانات الحياة، في تلك الجنة الخضراء، غذاء متوفر ومناظر خلابة وكل سبل الراحة، إذاً لماذا بقي الجميع داخل الغابات السوداء... رغم تلك التساؤلات، كان لابد

من التركيز على الصيد، ولكن كيف وهذه المرة الأولى... ذهبت لأطراف الغابة ووضعت الأحبال على الأرض في شكل عقد وفخاخ عسى أن تصيب أحد الغزلان الشاردة، ثم وضعت الخطة أني أجعل قطيع الغزلان يتجه نحو الفخاخ، لكن فشلت في اليوم الأول، والثاني... ولم يبق سوى يوم واحد وينفد الطعام.

لهذا حاولت بكل وسعي وبالفعل نجحت، ما زلت أتذكر صياح الأطفال فرحين بتلك الغزالة الصغيرة، بالرغم من أن الجروح كانت تغمر جسدي وأنفاسي تخرج وتكاد أنها لن تعود من حمل الغزالة كل تلك المسافة حتى جثوت على الأرض مرهقاً، وجلس الجميع يتناول اللحم بشراهة، حتى سقطت إحدى قطع اللحم أرضاً، فالتقطها أحد الصغار وغمرها بالماء، ثم تناولها..... 6سنوات لم يتناول أحد منهم اللحم، كان لكل قطعة ثمن.

أتت إحدى نساء القرية بأوراق الشجر المختلفة ومضغتهم في فمها، ثم وضعت القليل منهم على جروح جسدي، فن المعالجة بالأعشاب من أحد أسرار شعبي.

شهور من التدريب ومحاولات الصيد المتكررة، جعلت جسدي قوياً وصلباً، أصبحت أستطيع حمل غزال بالغ على كتفي دون مشقة لمسافة طويلة.... حيث قارب طولي 178 سم، وجسدي تحول من البني الفاتح إلى لون غامق أقرب، للحاء الأشجار الكبيرة، كنت أترك شعري ينمو حتى أصبح طويلاً وأربطه برباط خلفي أثناء الصيد، لم تتغير عيناي كانتا

تماثلان لون العسل المتساقط من تلك الكرات الضخمة في عنق تلك الأشجار. بالعمل الدؤوب والتمرين المتواصل أتقنت استخدام فأس أبي لقطع الأشجار الصغيرة وقوداً للنار، وأصبحت رامياً جيداً بالقوس وماهراً في صنع الفخاخ حتى تنعم الصغار بطعام لذيذ كل يوم، وحتى لا تخيب آمالهم ثانيةً، ويشعرون بفقدان آبائهم وما كانوا يأتون به من خيرات كل يوم.

تشرق الشمس لتعلن عن يوم جديد، وأقوم برحلة في تلك الغابة للحصول على الطعام، وأذهب للقرية محملاً بصيدٍ جديدٍ كل يوم، غزالة، أو أسماك مختلفة الأشكال من تلك الأنهار... كانت تبدأ الرحلة مع الشروق، في كل مرة إلى غروب الشمس لتعلن عن المساء، حيث تذهب لا أعرف أين وتعود كل صباح لبدء رحلة جديدة.

كانت توقد النار في منتصف القرية، وتقوم النساء بطهي الطعام، كانت هذه المرة غزالة شهية.... ويأكل كل فرد حتى يشبع وتجتاح ملامح الجميع بعلامات الرضا، ونكمل الجلسة نستمع جميعاً قصصاً عن أجدادنا الأوائل من (نافارو) تبلغ من العمر ما يقارب المئة أو يزيد، وكان الجميع يشاورها في أمور القبيلة العصيبة، كانت جسدها هزيل أرهقه الزمن، تلبس غطاءً يحجب رؤية ملامح وجهها، وأوشام تغطي كلتا يديها، كانت على علمٍ كبيرٍ بالسحر واتباع النجوم، ولديها الكثير من الأسرار، كنت أجلس دائماً بجوارها لتعلم ما يمكن تعلمه من تلك الأسرار والقدرات.

كنا نمضي كل ليلة في منوال متكرر بلا تغيير... حتى أتى يوم أنهينا فيه العشاء، وأشارت (نافارو) للجميع بالذهاب للنوم وتحدثت إليّ قائلة:

ـ نافارو: كين ابقَ!

جلست أمامها متأدباً في انتباه لكل كلمة... لتكمل كلامها قائلة:

ـ نافارو: متى يكون الرجل قائداً؟!

انفلت لساني بالكلام دون تفكير لأقول:

ـ عندما يعتني بعشيرته ويوفر الغذاء للجميع!

ـ نافارو: هذا رجلٌ وليس قائداً..... أنا أعرف كيف أتيت بالغزالة الصغيرة وكيف أصابتك تلك الجروح.

لم أنطق.... أسكتتني الصدمة كيف علمت!! ثم أكملت لتخبرني:

ـ نافارو: «كنت أتبعك في كل يوم خوفاً أن يصيبك مكروه، وكنت أرى إصرارك ومحاولاتك الفاشلة... حتى غلبك اليأس وجلست تنظر إلى قطيع الغزلان... في بداية الأمر ظننت أنك استسلمت حتى أتى الليل ورأيتك تذهب بهدوء حيث تنام القطعان وانقضاضك على أحد الصغار وذبحه، أيضاً رأيت الغزال الضخم وهو يتبعك يريد قتلك، وهو من أحدث بك كل تلك الجروح، ثم رأيتك وأنت تبكي عند رؤيتك للغزلان وهي بجانب الصغير المقتول تحاول تحريكه، لقد تركت تتجاوز الأمر بمفردك، لأن لا يمكن للشخص أن ينضج إلا إن اتخذ قرارات مصيرية تتعلق بحياة أو موت أحد....

تماماً مثل عودة قائد الجنود متعباً، وبدون سلاح ليحميه، كان بإمكاننا قتله. أن تقتل أحداً أمر يسير، لكن أن تهب الحياة لشخص لابد من أن تكون شجاعاً ولديك إرادة قوية... تحملك لتلك الصعاب وتوفير الغذاء للجميع جعلك مؤهلاً للتعلم، لماذا لم نرحل من الغابات السوداء وأننا لا نقترب من القرى البعيدة، وأيضاً لتعرف كيف تكون قائداً حقيقياً للقبيلة».

ـ كين: «لم أتطرق من قبل مع نافارو في حديث هكذا.... وفي الحقيقة كلامها ألجم لساني، وأيضاً زاد فضولي لمعرفة سبب بقائنا في الغابات بدلاً من الوديان الخضراء.... لهذا أردت معرفة السبب عن الخوض في حديث سابق، تجاوزته بالفعل... لهذا سألتها مستفهماً: كيف أصبح قائداً حقيقياً للقبيلة، وعن أسباب بقائنا في الغابات السوداء... لتجيب قائلة:

ـ نافارو: «يكون المرء قائداً حقيقياً حين يكون مثل جدك... أظن أن الوقت قد حان لتعرف تاريخ عائلتك وما أخفاه أبوك عن حقيقة والدتك».

****

الفصل الثاني أسطورة

الغابات السوداء

يرسم التاريخ كل خطوات المستقبل.

(كين) أَبٌ لكل الغجر، تدور الأساطير حول كونه هائماً في الأرض دون مستقرٍ، قيل إنه من نسل قابيل حين قتل أخاه هابيل، فأصبح هائماً في الأرض دون مأوى، وقال آخرون: إنه سمح لحداد قبيلته بصناعة تلك المسامير المستخدمة لصلب المسيح (عليه السلام)، وآخرون قالوا: كان سكيراً ولم يدافع عن المسيح (عليه السلام)، وأقوال أخرى عن فعل أبناء قريته بسحب أحد المسامير المعلقة في جسد المسيح (عليه السلام).

أبغضنا الناس وحملونا أسباب المرض والفقر وأننا لعنة على الأرض، لكن كان السبب الحقيقي هو الاختلاف... قد تكون جنة بالخارج لكن لا يسكنها سوى الشياطين، حيث يكفي أنك لست من العِرق الأبيض السامي لقتلك أو تعذيبك... كثيراً من الظلم شهدته مختلف الأعراق، مما جعل الكثير ينحرف عن الصواب ويتجه للفوضى والسرقة، وتشكيل العصابات والاحتيال وفعل كل ما يخالف القانون، مبررين معاناة قومنا من

تلك الشعوب، وأنهم يواجهون ظلماً بظلم... وكان زعيم تلك الحركة هو (بارو) والدك.

عند رؤية والدك للمرة الأولى كان مكبلاً بالأصفاد، ويسير بين خمسة رجال من الشرطة يحاوطونه... وبالرغم من أسرهِ كان يلفت الأنظار لامتلاكه جسداً ضخماً وقوياً، ويزيد طوله عن 180سم، كل هذا جعله مَحط الأنظار للمارة من البيض، لكونه أيضاً متجرداً من ثياب الغجر، ويرتدي ملابس عموم الشعب، وهذا أمر غير مألوف، لم يتمسك والدك سوى بعادة واحدة للغجر وهي (شال) أسود يزين رقبته كما عهد رجال الغجر في الماضي.

اقتربت مع الحشود لرؤية ملامحه بوضوح أكثر للمرة الأولى... كانت مفاجئة أنه شاب لا يتعدى ٢٧ عاماً، بعيون سوداء قاحلة... وشعر بني طويل متموج يشير لجميع الاتجاهات. وأنا أتأمل وجه والدك كنت أسمع، همسات بين الحشود أن هذا هو بارو... زعيم المتمردين من الغجر، وسوف يُعدم في صباح يوم الغد.

لكن يأتي الليل يا صغيري، ويصبح النور ظلاماً، فكيف لا تتغير الأقدار، كنا نسكن على أطراف المدينة، لكن كان يسهل رؤية تلك النيران المشتعلة واستغاثة من في المدينة وصرخاتهم المدوّية، فكان يركض الجميع

مبتعداً عن المدينة، دفعني الفضول أي حرب أحدثت تلك الفوضى ركضت لمنبع تلك النيران، وجدت رجالاً ملثمين بلباس تشبه الغجر، لكن كان يكسوها السواد، ثم رأيت رجالاً من الشرطة معلقين من رقابهم في أحد الصواري أمام منزل حاكم المدينة، ووالدك بارو يقف بجانب تلك الجثث المعلقة، يحركها يميناً ويساراً، ويضحك بسخرية ويقول: "أردتم مسوخاً ونحن حققنا لكم أمانيكم"، انتشرت كلمات والدك في سكون الليل لتصل أطراف المدينة، ليعلموا أن ما يحدث هو ناتج أيديهم من طغيان وظلم وعنصرية.

أيام وأسابيع انتشرت الشرطة باحثين عن بارو ورجالة دون جدوى وأُلقي اللوم على جميع الغجر، كنا محملين بأوزار لم نفعلها، وبعد أفعال والدك أصبحنا نلام على كل ما يفعله أي فرد من عرقنا، لم يتحمل قومي أفعال والدك ولا نهجه في الحياة، لهذا اجتمع زعماء القبيلة لوضع حد له، ولابد أن يعلن رضوخه لتقاليد الغجر.

بعد البحث الطويل توصل الزعماء لبارو، وفرضوا عليه القدوم لمحاكمة عرفية لمناقشة الأضرار الناتجة عن أفعاله الطائشة وكم المعاناة التي تسبب بها للغجر إثر تلك التصرفات، وبالفعل حَضَرَ والدك وجلس معهم بشكل ودي ليسمع ما لديهم... قام أحد زعماء المجلس وسرد كل أفعال بارو

والنتائج المترتبة عليها، وأن في البداية كان الغجر يعانون من الظلم العرقي والديني من الشعب الآري.... وأن الأمر تغير مع أفعال جماعة بارو وإن استمر الأمر هكذا لن يتوانى قادة الشعب الآري بإصدار أمر إبادة جماعية لنا كما فعلوا مع الكثير من الأعراق والديانات، وأن أفعال والدك من قتل وسرقة ونهب واحتيال، حملتنا أوزاراً فوق أوزارنا.

كنت أجلس بالداخل ومع ذلك كنت أسمع صوت والدك وهو يصيح قائلاً:

«أوزاراً... أنا من أحملكم أوزاراً!!

هل أنا أيضاً من نسب إلينا المرض والفوضى... وأنا من تسبب في قتل آلاف منا في السجون بالتعذيب، هل أنا أيضاً من تسبب في اضطهاد عرقنا وأننا بالنسبة لهم بمثابة مرض لابد من استئصاله، في الواقع أنتم السبب وجبنكم هو من يهلكنا.... أين كنتم جميعاً عندما قتلوا عائلتي، أين كنتم عندما أحرقوا منزلي عندما كنت صغيراً... ما زلت أتذكر أبي في منتصف النيران وهو ينظر لأخي ولي... وعليه أن يختار بيننا... لينقذ أحدنا ويترك الآخر للموت، مات أبي وجسده يغطي جسدي، يحترق حتى أحيا... لقد سلبوا مني كل شيء وسوف أفعل بهم المثل، أنتم بدون فائدة وأنا لن أخضع

لأحد منكم، أنا لم أقتل أبناء جلدتي، لكن سوف أفعل إن تدخل أحدكم في شؤوني مرة أخرى».

فور انتهاء والدك من الحديث.... سمعنا صوت ارتطام شديد، هرعت للخارج، لرؤية ماذا حدث... لقد ضرب والدك المنضدة بكف يده وهذا كان كافياً ليحطمها لنصفين، معلناً بهذا انتهاء الحديث، ثم خرج من الباب لنتقابل مرة أخرى والتفتَ إليّ حتى تلاقت أعيننا ويقول بابتسامة خافتة: «آسف على الإزعاج.... عمتِ مساءً سيدتي» ثم ذهب.

رأى الجميع ما يستطيع والدك فعله، ولم يكن أمامنا الكثير من الحلول سوى (اليانا) لهذا تحرك الزعماء لتلك الشابة اليافعة، يخبروها بما كان اجتماعهم مع بارو وإعلان عدم خضوعه لحكم القبيلة، وأيضاً ما التصرف.... في النهاية هم في حضرة (زعيمة سحرة الرومن).

فاقت والدتك كل سحرة الرومن، وأصبحت ملكة السحرة بعمر **14** عاماً كانت لديها سحر فريد مختلف عن سحر الغجر، وأيضاً كانت بإمكانها استخدام سحر (كاهلو)، وهو سحر غير معروف مصدره، ويعد من أخطر أنواع السحر... كان ملكاً لشخص يدعى (كاهلو)، فلم يتجاوز أي ساحر كاهلو، حيث كان أقوى ساحر في عصره، برع في علوم الطب، والتداوي

بالأعشاب وساعد كثيراً من الناس على الشفاء، لكن اتهمه البيض بالشعوذة والسحر... كونه أحد الغجر كان مكروهاً منهم.

حُكم عليه بممارسة السحر والشعوذة، وكانت عقوبته الإعدام حرقاً حتى يكون عبرة لكل الغجر، سنة **1346** هرب كاهلو تاركاً أطفاله الثلاثة وزوجته، كان يعتقد أنهم في مأمن لكنه أخطأ، لم تأخذهم الرأفة بزوجته أو حتى أطفاله الصغار وأحرقوهم، ثم علّقوا أجسادهم أمام منزل كاهلو، حين علم فقد صوابه، قيل: إنه ظل أسابيع بدون طعام يبكي، ويُحدث نفسه: أيُّ جرمٍ ارتكبه صغاره ليُقتلوا، وهل كانت جريمته مداواة الناس ومساعدتهم أم جريمته أنه من الغجر... وليس من عرقهم لهذا قتلوا أطفاله، حينها تَملكه اليأس وأطلق العنان لأقوى لعنة عُرفت في تاريخ السحرة ، لعنة كتبها بدمائه المتدفقة من جرح أحدثه لنفسه، ثم قال جملته الشهيرة: «سوف أجعلهم يشعرون بمعاناتي، سوف يموتون بموت أسود يجتاح أجسادهم، وينزفون الدماء حتى الموت».

قِيلَ إنه بعد انتهائه من تلك الطلاسم والكلمات غير المفهومة، أصبح جسده أسود قاتماً، وعيناه كانتا تنزفان الدماء، وخرج من جسده ملايين الفئران السوداء تجتاح المناطق القريبة حتى اختفى جسده بالكامل.

وبعد مرور عام واحد اجتاح العالم (الطاعون) أو الموت الأسود كما قيل عنه عام ١٣٤٧م؛ متسبباً بموت ما لا يقل عن ثلث سكان قارة أوروبا. ربط الكثير موت كاهلو وتحول جسده لفئران... وانتشار الطاعون، وقال أيضاً آخرون: إنها مجرد مصادفة لا أكثر.

قال الكثير: إنّ (اليانا)، هي كاهلو هذا العصر... وإنّ لا أحد يفوق قوتها في السحر، لهذا ذهبوا تاركين أمر بارو بين أيديها... جافاني النوم في تلك الليلة، جلست بالخارج للتمتع ببعض الهواء، حينها رأيت والدتك ذاهبة في اتجاه الغابة، انطلقت خلفها بحذرٍ يدفعني فضولي إلى أين هي ذاهبة في هذا الوقت، كانت ثابتة الخطى متجهة نحو ضفاف البحيرة القريبة من الغابة، ورغم حلكة الظلام كانت تبحث وترى في أعماق البحيرة أبعد مما أرى، ثم أخرجت سمكة سوداء لن أرى مثلها ما حييت... بدا لي الأمر وكأن تلك السمكة تنتظر قدومها، ثم قامت والدتك بحفر كلمات بيدها على ظهر السمكة، في تلك اللحظة كنت أراقب ما يحدث من خلف إحدى الأشجار، كانت السمكة تصرخ مثل طفلٍ صغيرٍ يعلن توسلاته على خطأ ارتكبه والدماء تسيل بلا توقف من جسد السمكة... دماء بشرية، ألقتها والدتك في البحيرة... لتحترق السمكة بمجرد تلامس جسدها للماء، صارت تقفز على الماء دون أن تغرق... الأمر كان أشبه أن الماء تحول لأرض صلبة لا تعبأ باحتراق السمكة حتى تفحمت تماماً، ثم غرقت في منتصف البحيرة، لم تمر

سوى ثوانٍ... حتى سمعت انفلاق حجر أسفل البحيرة... وانخفض منسوب المياه، يبتلعها شق صغير لا يتجاوز عقلة الأصبع، ابتلع كل مياه البحيرة حتى جفت تماماً، ظننت أنها طلاسم وانتهت... لكن كانت البداية لا أكثر... ظهرت يد طفل صغير مشوهة بثمانية أصابع، سحبت السمكة للشق، غادرت والدتك بكل هدوء للمنزل.

لكن أنا تجمدت أطرافي ذهولاً مما رأيت، رغم فناء عمري في معرفة أسرار سحر الغجر، وأيضاً معرفتي بسحر كاهلو، لم أرَ مثل صنيع والدتك، كانت مستوى آخر لم أعهد مثله، لهذا اقتربت أكثر من البحيرة، كانت هناك همسات تنادي باسمي للاقتراب... ويقول: «نافارو... اقتربي أكثر دعيني أخبرك بما أعانيه... أنا هنا وحيد»، أنهى تلك الجملة، ثم صرخ بقوة لدرجة أن صراخه أخاف الحيوانات في الغابات البعيدة، كنت أسمع أصواتها تهرب متباعدة هاربة من خطر مقبل، لحظات وامتلأت البحيرة بالدماء وفي منتصفها السمكة تنظر إليّ وهي تبتسم.

عقلي لم يستوعب كل ما يحدث، كنت واقفة بلا حركة أنظر للسمكة، لكن السمكة لم تعد تنظر لي... بل غيّرت اتجاه نظرها خلفي كانت تنظر لشيء ما، وهناك أحد ينادي باسمي من الخلف، أتذكر في ذلك الوقت أن قلبي كان على وشك التوقف... وأنا أنظر خلفي... فوجدت أنها والدتك وتقول

«نافارو هيا بنا لمَ ما زلتِ واقفة؟»، أخرجتني كلماتها من جمود أطرافي، ذهبت معها عائدة للقرية... وأنا أتساءل بما تقصد ما زلتِ واقفة!!

لهذا سألتها: ماذا تقصد بكلمة «ما زلتِ»؟ وأيضاً هل تلك لعنة للموت أو تعويذة وهل تلك الحروف طلاسم لعمل عزيمة قوية أم شيء آخر؟ وكالمعتاد تجيب والدتك بكل هدوء: «أنا أعرف أنك هنا منذ البداية»، لم تكن والدتك كثيرة الكلام، لكن كنت أريد معرفة المزيد لها، كررت السؤال بشكل أوضح: هل تلك التعويذة أو العزيمة أو أياً كانت هل كانت لبارو؟

«من يكون بارو»!!!

كان السؤال بمَثابة الصاعقة... إذا ماذا كانت تفعل!!
أخبرتها أن بارو زعيم الغجر المتمردين، لقد أتى إليك الزعماء بخصوص التصرف معه!!

«أجل تذكرت، لكن لا... فقط أصابني الملل خرجت للمرح قليلاً... غداً سوف أتكفل بأمر بارو لا تقلقي»، أنهت والدتك الجملة وهي تبتسم كالعادة بمرح وتدخل البيت.

لم أنم تلك الليلة أفكر متسائلة... مرح!! إذا كان ما فعلته للمرح فكيف تكون قوتها الحقيقية، وأيضاً نوع السحر كان مختلفاً عن أي سحر رأيته من قبل.... رغم الحيرة والشك في الأمر، كان هناك جزء من الاطمئنان أن تلك الفتاة هي ملكة سحرة الرومن، وبالفعل استحقت لقبها بجدارة.

أشرق الصباح، ذهبت مسرعة لبيت اليانا، عربة زاهية الألوان تختلف عن كل بيوتنا برسم فريد خلاب، يعرف كل من يراها من الغجر أن هذا البيت تقبع بداخله ملكة السحرة (اليانا)، كنت في اشتياق لأعرف كيف سوف يكون عقاب بارو.

دخلت إلى منزلها حيث كانت تجلس في منتصف عائلتها لتناول الطعام، بشرتها بنية لكن كانت تميل أكثر إلى لون العسل في شكله الذهبي وملامح البراءة إضافة إليها لمسة لتشبه طفلة صغيرة ودودة، أعين واسعة سوداء كعيون الغزلان الضارية، مع شعر بني ممزوج مائل للسواد ومنسدل خصلة منه على جانبي وجهها، وكانت تتميز بارتداء قرطين بأشكال البدر الكامل تزين وجهها وأوشام غريبة لم أعهد مثلها من قبل، أوشام ليست من أعمال الغجر، لكن أضافت لها لمسة من الجمال كأنها ليست من البشر.

أفقت من ذهولي على صوتها الرقيق، كانت المرة الأولى أراها بدون وشاح الرأس... وتقول: "نافارو لما تقفين هكذا، هيا اجلسي تناولي الطعام معنا"، كانت مثل طفلة في وسط العائلة يداعبها الجميع ضاحكين.
أجواء غريبة!! كأنّ هناك أخرى غيرها، وهذه فقط تشبها لا أكثر.

انتهيت من الطعام ووقفت بالخارج حائرة مما رأيته بالأمس وما أراه الآن، قطع حيرتي وتفكيري جدك (أحد الزعماء الثلاثة للقبيلة)، ويقول لي: «عندما تناولنا الطعام سوياً، كنت أراكِ تنظرين إلى اليانا نظرات حيرة واستغراب، أعلم جيداً أنك لا تريدين لها السوء، سوف أخبرك بأمر لم أذكره لأحد مطلقاً... عندما كانت طفلة صغيرة كانت مختلفة، وتمتلك سحراً مختلفاً عن ساحرات الغجر، وتفوقت على الجميع... لكن كانت دائماً حزينة لكونها مختلفة كانت تريد اللعب مع أطفال من أمثال عمرها... وهو أمر كان مستحيلاً، كان يخشاها الجميع لقوتها في السحر، لهذا لم تحظَ أبداً بطفولة سعيدة.
لذا في المنزل هي صغيرتي وابنتي فقط وليست ملكة السحرة، وسأظل أحبها مهما كانت ومهما فعلت، لهذا أريدك أيضاً أن تكوني بجوارها هكذا كصديقة لكونها اليانا وليست ملكة السحرة».

حديث جدك أثر فيَّ كثيراً لكوني أيضاً حظيت بطفولة بائسة وصعبة، أحببت حقاً أن أكون صديقاً لها... وترددت أن أخبره بما حدث في الأمس لكن في النهاية أخبرته عسى أن يفهم ويخبرني ما أجهله عن قوتها وسحرها الغريب، كان رد جدك هو الأغرب؛ فلم أجد استنكاراً يعلو وجهه لما فعلته في تلك البحيرة، بل قال لي: "لا أعرف ما تفعل أو لمَ فعلته؟ لكن ثقي أنّ كل أمر تقومين به لأسباب لا تبوحين بها لكن نفهم مغزاها في المستقبل، ثقي بها وسوف تفهمين يوماً ما".

قطعَ حديثنا صوت خطواط أقدام اليانا.... قائلة: "هل قطعت حديثكما آسفة، هل أعود في وقت لاحق؟!"

«لا... انتهينا من الحديث أنا ونافارو حديثنا، أنا ونافارو أتمنى لكما التوفيق مع بارو» وذهب مبتعداً حتى توارى عن أنظاري.

حقيقياً لم أطمئن، بل ازداد خوفي وحيرتي من كل تلك الخفايا، وثقة جدك وترك الأمر لفتاة تبلغ من العمر ٢٥ عاماً أمر يقلق، لم أعرفها جيداً، حتى قبل أمر بارو... كنت أسمع عنها الكثير من الأمور المذهلة، وأشكِكُ في حكمتها قبل أن أقابلها، لأن حياة الكثيرين تتعلق بتصرفها.

انتبهت إليها بجواري وهي تفعل حركات بأصابعها وتذكر كلمات بصوت كاد يكون همساً... ثم قالت: انتهينا الآن من أمر بارو. لأكون صادقة معك انتابتني نوبة من الغضب، أريد معرفة ما يحدث، لهذا تكلمت معها بنبرة حادة... اسمعي يا فتاة، والدي أيضاً مثل والدك أحد الزعماء الثلاثة، وقبل أن نأتي إلى هنا كنت أقوى ساحرات قريتي، لا أنكر أنك قوية للغاية... لكن لا يصح أن تتجاهلي إخباري وأنا أيضاً ساحرة وأكبر منك عمراً بكثير.

ـ "كم عمرك؟!"

هذا هو السؤال الوحيد الذي أثار اهتمام والدتك، كانت تثير جنوني!!

ـ كين: «إذاً كم عمرك؟»

ـ نافارو: حقاً!! كل ما رويته لك لم يثِر اهتمامك سوى عمري!! حسناً قاطع كلامي مرة أخرى وسوف أحولك لقطةٍ لعينةٍ!

ـ كين: حسناً!! آسف.

ـ نافارو: أحمق... نسيت ما أقوله... تباً... أين كنت... آها تذكرت كنت أريد معرفة ماذا حدث لوالدك؟

لذا كررت عليها سؤالي مرة أخرى ماذا فعلتِ لبارو؟

أجابتني: "ليس بالكثير، فعلت ما يلزم لكي يعود لصوابه ويعلم أن نجاته من الحريق وموت أسرته ليس على عاتقهِ... بل أسرته وجدت سبباً يستحق الموت... وهو نجاته.

غادرت إلى بيتي، بعد سماع كلمات والدتك... بعد إدراكي أني كنت حمقاء في الحكم عليها لم تكن فقط ساحرة، بل زعيمة قوية وحكيمة لهذا أقسمت أنني سوف أبقى إلى جانبها بكل قوتي وأن أكون إلى قربها دائماً.

خمسة أيام منتظرة حدوث أمرين أقربهم اكتشاف بحيرة الدماء وانشقاق الأرض، كنت أسأل أفراد قومي عند معرفتي أنهم اقتربوا من البحيرة، هل رأيتم شيئاً غريباً؟!

ولا يجيبون سوى بالضحكات والسخرية، قائلين: «نافارو لابد أنك أصبت رأسك!! هل هناك شيء ما تريدين إخبارنا به؟».

كنت أتصنع البلاهة... وأضحك قائلة، اللعنة! عدم نومي لفترة طويلة يسبب لي بعض التهيؤات... لم تكن لدي الجرأة لأخبرهم عمّا رأيت.

انقضت ستة أيام بدون أي أحداث مثيرة، في اليوم السابع حدث الأمر الثاني، مرض بارو مرضاً أرقده الفراش لا يقوى على تحريك إصبع واحد، استدعوا كل سحرة الغجر لم يقوَ أحد على شفائه.

وصلت تلك الأخبار للشرطة وكان الأمر يسير للقبض بارو أو حتى قتلة وجعله عبرة لكل الغجر، لم ينجِه سوى إخلاص رجاله، إنهم كانوا دائمي التنقل بجسد بارو حتى لا تستطيع الشرطة إمساكه.

لم تكن الشرطة وحدها من تقرر أمر بارو، بل زعماء الغجر أيضاً اجتمعوا مع اليانا لوضع قرار منحة الموت أم الحياة، وبعد الحديث عن أمور عدة مما فعلها بارو اتفق الزعماء الثلاثة على موت بارو، كان قرار لا يجرؤ أحد على مخالفته، واجب التنفيذ.

بعد انتهائهم من الحديث تكلمت والدتك... لتثبت لي خطئي مرة أخرى وأنها جديرة بلقبها قائلة: «لن يختلف معكم في قرار وسوف يكون ركناً شديداً لنا، إن قُتل بارو؛ سوف يتفرق رجاله، منهم متبع لنا ومنهم متبع نهجه السابق، ونحن هنا ندافع عن أرواح قبيلتنا وحماية عرقنا من الإبادة بسبب عرق آخر، ما الفرق بيننا وبينهم أن قتلنا شخص لاختلافه معنا في وجهة النظر، كما أنه ليس سيئاً، هو فقط انحرف عن الطريق بسبب ما عاناه من فقدان عائلتك أمامه... كل شخص يستحق فرصة أخرى للحياة لتصحيح أخطائه، نحن أيضاً بشر نخطئ ونصيب، فكيف نحكم على شخص لم نرَ من الحياة مثل ما رأى، من المفترض أيضاً أن يصل الآن... لقد تأخر»

لم يعرف الزعماء قدوم والدك، تخشبت وجوههم دون نطق حتى غمغم جدك» ما- ماذا فعلت هل قمتِ بشفائه؟ ولمَ هو قادم إلى هنا؟!»
كعادتها الدائمة أخذت نفساً عميقاً... وتبسمت دون أن تنطق، وهي تنظر إلى الباب منتظرةً أمراً ما.

بالفعل طرق أحدهم الباب بقوة غير معهودة، الأمر الذي أثار حفيظة الجميع وجعلهم يشيحون بنظرهم إليه، حيث دخل بارو ينظر في أرجاء الغرفة كأنه يبحث عن أحد، إلى أن نظر إلى اليانا الجالسة في ركن تلك الغرفة بلباس أسود غير معتاد، ووشاح يغطي وجهها فلا يظهر غير ظلاله، غمغم قائلاً: «لمَ فعلتِ هذا؟ لماذا قدمتِ لي المساعدة بينما يرفضها زعماء الغجر، وكيف جعلتني أتخلص منها؟».

أجابته والدتك بوضح غير مسبق، كما هو المعتاد عنها دائماً الغموض: «لأنك مثلنا ظلمتك الحياة والبشر... لكن الفرق أننا لم تغيرنا الحياة لنصبح مثلهم نقتل كما يقتلون، ما زلنا بشراً... أما أنت تغيرت لتصبح مثلهم.... لا أقول أنك مخطئٌ، بل أنت مصيب من وجهة نظرك لأنك ترى، أن من حقنا الدفاع عن أنفسنا ضد الاضطهاد العنصري من العرق الأبيض (الآري).... أما عن تخليصك من معاناتك، لم يكن الأمر اختيارك، بل اختيارهم، لقد أحبوك وكان سبباً مقنعاً للموت، ماتوا من أجلك فجعلهم فخورين بك، وتعاون لإنقاذ عرقنا وليس لتدميره»، ثم تبسمت حتى بانت أنيابها اللطيفة، معتذرة أنها ذاهبة لترتاح قليلاً، خرجت معهما وأنا أتذكر كلمات جدك أنها تفعل أشياء مبهمة لنا، ثم نكتشف روعة فكرها وقرارتها الصائبة... منذ ذلك اليوم أصبحت أكثر الناس قرابة من والدتك وأصدقاء حقيقين.

لم يقدم بارو ولاءَه للقبيلة فقط، بل ساعد الكثير من القبائل حولنا وساعد القبيلة في الكثير، لكن عندما علمت الشرطة برجوع بارو للغجر... وعلى الرغم من توقف السلب والقتل والاحتيال وساد الهدوء من ناحية الغجر تماماً، لم تصمت الشرطة، وأصدرت بياناً أن أي غجري على معرفة أو اتصال بوالدك أو أي فرد من رجالة سوف يُعدم وأيضاً وضعوا مكافأة مالية ضخمه لمن يرشد على مكانه... حيث كانت مكافأة الغجري ثلاثة أضعاف، مكافأة الشخص العادي إن وشى عن مكان تواجدهم.

المال هو دائماً الوسيلة الأسهل لإغواء البشر لفعل أي شيء دنيء وغير أخلاقي كالوشاية... والتسبب في قتل ٧٠ رجل. لم يساعدهم أحد، لهذا رجعوا لأساليبهم القديمة من الاعتقالات والظلم، شهر كامل كانوا يعتقلون الرجال لمدة أسبوع، ثم يطلقون سراحهم ضعفاء خائري القوى، لم يقدموا لهم الطعام في تلك المدة بالإضافة للضرب والتعذيب، فعلوا هذا الأمر لكل الرجال تقريباً ما عدا العجائز. فلم يتعاون معهم أحد، فاعتقلوا نساء ٤٠ عائلة ممن يسكنون بجوار مركز الشرطة، يمكن للغجري أن يحرم من الطعام لأيام أو يعذب أو حتى يسلب منه حقه في الحياة لكن لا تقترب من أطفاله ونسائه... بضع ساعات من اعتقال النساء، اقتحم بارو هو ورجال القرى القريبة عند علمهم بالأمر وأخرجوهم... كان مركز الشرطة

فارغاً، بداخله النساء مقيدون وهرب كل رجال الشرطة حتى حاكم المدينة وأفراد المدينة من العرق الآري هربوا أيضاً... أو هذا ما جعلونا نعتقده.

أتى المساء واحتفل الجميع بخروجهم من المدينة، وأننا للمرة الأولى نشعر بالحرية، لهذا وضعنا مائدة ضخمة من الطعام أمام منزل جدك تحتوي على جميع أنواع الفاكهة، ولحوم الغزلان والطيور وأيضاً البقر... لم ترَها أنت من قبل، تحتوي على لحم لذيذ للغاية، كان احتفالاً عظيماً وصاخباً بالموسيقى لحضور زعماء القبائل المتجاورة واستجابتهم لإنقاذ النساء... استمر الاحتفال لمنتصف الليل، رأيت طاولة الطعام تهتز وحبات البرتقال تتساقط من الطاولة واحدة تلوى الأخرى على الأرض، لتتشتت أنظار الكثير مثلي إليها... وعلى نحو مفاجئ انفجرت الطاولة، لتقذف كل شخص قريباً منها بمسافة نصف دائرة لأميال، يسقط مثقلاً بالجروح والكدمات... ظهرت من العدم عربة مسرعة تضيء أنوارها الأمامية لتزيغ أبصارنا، وجندي يقف فوقها، خلف سلاح مثبت عليها ويحتوي على الكثير من الفتحات، وبمجرد استقرار العربة أُطلق وابل من النيران أطاحت بالكثير، لم تفرق، قتلت كل ما تراه أعينهم من لباس مزركشة أو بشرة قاحلة، عيون سوداء، شعر أسود، أطفال، نساء، رجال، كل ما خلق مختلف عن عرقهم (الآري)، كان أحدهم يضحك ويقول لا تخافوا أطلقوا النار بكل قوتكم لا يوجد هنا غيرهم لقد وقعوا في الفخ، لم يسلم منهم كبير أو صغير، حتى

المرض في البيوت، أشعلوا بهم النيران، كانت الإبادة محققة بلا شك، لم ينقذنا من الفناء سوى بارو ورجاله، قاتلوا حتى يسمحوا للنساء والأطفال بالهروب، كنت أراهم وأجسادهم مبعثرة بالثقوب يعاودون النهوض متألمين دفاعاً عن أطفالهم، كان والدك في وسط تلك المعركة هو وذراعه الأيمن لا أذكر اسمه لكنه كان قوياً للغاية، كان والدك ينقض على الجنود وهو يحمل أحدهم كدرعٍ له، حتى يقترب منهم هو وشريكه ويتناوبون على قتلهم بحركات سريعة بالفأس والسكين، قتلوا منهم الكثير، لكن المدفعية البعيدة كانت هي العقبة الأكبر وخلفها كتائب من الجنود، لذا كان لابد من الانسحاب نحو (الغابات السوداء).

أصيب صديق والدك في قدمه أثناء الانسحاب وأقسم على أبيك أن يتركه وينقذ ما يمكن إنقاذه.. وافقه أبوك على قوله، بأنه سوف يصبح عبئاً ثقيلاً علينا، لهذا استدار والدك ظننت أننا سوف نتركه، لكنه قام بحركة سريعة حيث التفت والدك وضربه بقبضته في فكه الأيمن، وقع للخلف فاقداً للوعي في الحال... وحمله والدك على كتفة وهو يردد: «يظن الوغد أن سوف أعيش ٢٠ عاماً آخرين حتى أحصل على صديق مثله».

كان من الصعب الخروج من المدينة مع أعداد الجنود المهولة، لولا بقاء بقية رجال القرى الأخرى مع بعض رجال بارو... كانوا يعلمون أنّ لا مفر من

الموت أنقذونا وكانت كلمة واحدة يقولونها جميعاً: «لا تتركوا عائلتنا للموت، نحن نثق بكم»، تركناهم ذاهبين إلى الغابة ونحن نعلم أنها آخر مرة للقاء.
وصلنا إلى الغابة ونجا القليل مائتان وخمسون عائلة، لم ينجُ منهم سوى ثلاثين عائلة فقط، كان جدك مستلقياً على ظهره أرضاً واضعاً رأسه على فخذ والدتك تحتضنه، كان مصاباً في ساقه ولديه بعض الكدمات الأخرى لكن سوف ينجو، الخطر الأكبر هو اقتراب انعكاس الأنوار من أسلحة الجنود... لم يكن الفرق بيننا سوى أميال معدودة ونهلك جميعاً... ساد الصمت وتملك الرعب من الجميع منتظرين الموت... كسر هذا الصمت جدك، ينظر إلى والدتك قائلاً:
«عندما أنجبت كنت حزيناً... حزنت أنكِ أتيت إلى عالم موحش يقتل فيه الناس لاختلاف ألوانهم... أو يُستعبدون عند بشر مثلهم، كنت أخاف أن يأتي يوم هكذا لا أستطيع حمايتك... لكن كنت سعيداً أنك تستطيعين فعل ما أعجز عنه يااا زهرتي، لا تجادلي إن لم تفعليها سوف أقتل نفسي وأجبرك على فعلها... أرجوكِ افعليها».

نظرات الحيرة ارتسمت على وجوهنا مما يحدث... هل أصاب جدك الجنون ويريد منها أن تقتله خوفاً من الجنود... لم نفهم ما يقول، كانت اليانا تبكي وهي تضع يدها اليسرى على جسده وتمتم بكلمات، حتى وصل الجنود، أصبحوا أمامنا يضحكون ويخبرونا أنها النهاية.

نعيق تجمعات الغربان قادمة في سِرب ضخم... من بعيد، تجمعت فوقنا بظلال سوداء حجبت نور القمر، غمغم أحد الجنود: «دعنا نقتلهم ونرحل من هذه الأرض الملعونة»، أسقط سلاحه أرضاً فور انتهائه من الكلام، لم يثِر انتباهنا إسقاط سلاحه... بل سقوط أحد الغربان كالسهم الموجة ليخترق رأسه... ويخرج منقاره من ذقنه وما زال ينعق، هرب الجنود مذعورين... يصيحون لمن في المؤخرة ويشيرون لهم بالهروب، كانت السهام أسرع من القول قُتلوا جميعاً... ولم يبقَ سوى جنود المدفعية والكتائب الخلفية، كنت أقف بجوار من تبقى من القرية على حافة الغابة... ننظر بذهول لما يحدث وسبب توقف النعيق فجأة، صرخة أحد الصغار أفاقتنا من الذهول... يبكي وينظر إلى الخلف مشيراً إلى اليانا... سقط وشاحها ليظهر ووشوم غريبة تجسده على وجهها تشبه إلى حد كبير السلاسل أو الأفاعي... ومقلة عينها اليمنى تصبغه بالسواد... كانت تشير إلى السماء بإصبعها السبابة، جعلت الغربان تدور في حلقات كالهاوية... ما إن أشارت بإصبعها للأسفل، سقطت الغربان ككتلة واحدة، لتمحو القرية بكل من فيها، ظلت واقفة لثوانٍ معدودة... حتى خارت قوتها وسقطت أرضاً تلتقط أنفاسها.

لم أكن أنا فقط من انتبه إلى تحول جسد جدك إلى رماد أو اختفاء تلك الوشوم الغريبة ورجوعها إلى عهدها السابق، لم يكن بين يديها اليسرى

سوى الرماد، بقيت على الأرض قليلاً... حتى استجمعت قوتها ودخلت إلى الغابة.

لم يجرؤ أحد على ذكر تلك الليلة أو ماذا حدث لجدك، لكن أنا كان لدي الكثير لطرحه، إن كانت تملك كل هذه القوى لما تركت قومها للموت من البداية! ولما تحول جسد جدك إلى رماد!!

حتى وصلت للإجابة ...

****

الفصل الثالث

العهد

كنت أجلس أمام نافارو مُقطباً حاجبي... لعدم فهمي أغلب الأمور، وإصرارها الشديد لعدم مقاطعتها أثناء الكلام، وتعجبي أنها تتحدث عن قتل وإبادة الكثير من البشر... بملامح جامدة لم تتغير، حتى مع أسوأ المشاهد دموية. تعطفت قليلاً لتسألني عن سبب استيائي، أخبرتها بكل ما كان جال بخاطري، كيف استسلم أبي بهذه السهولة واتبع القبيلة!! ولمَ تحول جدي إلى رماد؟! أردت إجابات فورية قبل أن تكمل ما تبقى.

صمتت لعدة ثوانٍ... ثم غمغمت قائلة: «لقد بحث كثيراً، فلم تكن والدتك تجيد التواصل ولغة الحوار اللطيف، لهذا أدركت الأمر بمفردي، وأنها لم تنقذنا في تلك الليلة.... في الواقع كادت أن تُقتل مثلنا.

أصابتني الحيرة من التناقض.... أمي هي ملكة السحرة، وبالفعل هي من قتلتهم، لهذا سألتها كيف وهي من جلبت سرب الغربان وكانوا يأتمرون لما تقول ودمروا القرية بأكملها.

تبسمت نافارو للمرة الأولى قائلة: «أنا لم أنكر ما تقول، أنظر خلفك أترى هذه الشجرة الضخمة، كان والدك دائماً يخبرك أنها مرتبطة بنا، وأن أجدادنا هم من غرسوها رمزاً للنجاة، لكن هذا غير صحيح، كانت تلك الشجرة هنا قبل مجيئنا.

عندما انتهى الأمر واستعادت والدتك أغلب قوتها على الوقوف دخلت إلى الغابة، لم يكن بيدها سوى بعض الرماد، وهو كل ما تبقى من جدك، سقطت على الأرض تبكي وتنثر رماده على تلك الشجرة، قائلة: «آسفة أني لا أستطيع فعل الكثير، لم ننجُ سوى بفضلك يا أبي، وأقسم لك أن الأمر لن يتكرر... لن يموت أحد بعد اليوم».

هنا فقط أدركت اللغز، المتعلق بسحر والدتك (ملكة السحرة)
والأسرار الخاصة بحادثة البحيرة، وتحول الزعيم الثالث لرماد، والسبب الحقيقي لخضوع والدك... ولكي تدرك الأمر، لابد من معرفة السحر أولاً.

هناك أنواع كثيرة من السحر: الهوائي، المائي، الترابي، الناري، وأيضاً سحر التعاويذ مستخدمي الحيوانات، جميعها لعمل أشياء محددة وأقواهم هو سحر العزيمة، وكل هذا مندرج تحت السحر الأبيض والسحر الأسود، كصراع الخير والشر، ولكنْ هناك سحر لا يعلم بوجود سوى القليل (السحر

الأحمر) يكمن بداخله الخير والشر معاً، إذا كان خيراً شفي وساعد كثيراً من الناس وإن كان شراً أصبح (أحمر قاتماً) مسبباً ليس شراً فقط، بل هلاكاً ووباء لفناء جميع البشر.

سحر والدتك هو السحر الأحمر... لم أعرف من أين أتى أو كيف حصلت عليه، لكن كان سحراً خبيثاً وتكمن قوة هذا السحر في الخيال... أي كل ما تفكر به يحدث، لكن لابد من دفع ثمن معين.... وهو التضحية بروح، كلما زادت التضحية زادت القوة لمستخدمها، أقرب الأمثال على هذا والدك كان يعاني ويحاسب نفسه دائماً أنه المخطئ على موت عائلته، لهذا خففت عنه والدتك آلامه عن طريق سمكة البحيرة... يمكنك القول إنها تحملت كل الألم والمعاناة والمشقة لدى والدك كل تلك السنوات.

فيما يتعلق بإنقاذنا من الجنود... لم تستطع والدتك فعل شيء دون تضحية جدك بحياته، وهذا يعود بنا إلى سؤال متى يكون الرجل قائداً يا كين؟

تدفق الحديث على لساني لأقول، حين لا يرى أي شيء آخر سوى بقاء القبيلة وحماية الجميع مضحياً بنفسه أسرى هذا، كان بإمكان جدي الموت ساكناً دون ألم، لكن ضحى بنفسه من أجل الجميع هذا هو (القائد).

تعجبت نافارو قائلة: أحسنت، هذا هو القائد الذي أطمح أن تصير إليه يوماً.

اعتدلت نافارو في جلستها... كأنّ القادم أمر صعب وتلعثمت في بعض كلامها قائلة: «لا... لا أعرف كيف أصيغ كلماتي وكيف أخبرك بهذا لكن لم تمُت اليانا بسبب ولادتك، قال طبيب القرية: إن الحمل صعب وكاد أن يكون مستحيلاً، لكن بعد ولادتك أكد أنها أصبحت بخير وليس هناك أضرار.

توقفت عن الكلام لبرهة تنتظر سؤالي... لهذا سألتها: إذاً كيف ماتت والدتي؟

غمغمت قائلة: «أنصت جيداً، أرسلت ألمانيا أفواجاً مختلفة من الجنود حاولوا أن يدخلوا (الغابات السوداء) بعد تدمير القرية، لكن لم يعُد سوى بقايا تلك الجنود، وإن نجا أحد يعلم أنه أصبحت للغابات السوداء ملكة أقسمت على حمايتها، بقي هذا الأمر لسنوات طويلة؛ فأصبحت الغابات السوداء رعباً للجميع، وأرادوا إنهاء الأمر فأرسلوا ما يقارب مائة ألف مقاتل محملين بشتى أنواع الأسلحة، انقسموا ثلاث مجموعات.
اصطفت مجموعة من الجنود بمدافع كبيرة بعيداً عن الغابة بأميال وآخرون في المنتصف، مرتكزين خلف عربات ضخمة، أما الكتيبة الأولى كانت

ثلاثين ألف جندي يدخلون الغابة، على ظهورهم مضخات ضخمة وتنفث النيران من أفواه أسلحتهم... قبل انطلاق الجنود، أطلقت المدافع العديد من القذائف لتدمير وإحراق الأجمات المتشابكة والأشجار الضخمة في بداية الغابة، وكل ما يقرب من المكان لأميال، مما يسمح لمجندي النيران بالتقدم وإحراق القرية وكل من فيها.

لم تكن والدتك قوية بما يكفي لصد كل هذا الهجوم، لم يكن أمامها حلٌ سوى (العهد)، حيث تقوم باختيار أشخاص حتى يكونوا جنوداً لديها، وبرغم أنه قصير المدة، لكن كان كفيلاً بتغيير مجرى الأمور، كان الأمر مختلفاً عن عهد القبيلة، جلبت اليانا وعاءً ضخماً، (لتقطر دماء من يديها ودماء غراب اقترب وجثا في منتصف الوعاء، ولحاء شجرة مختلطة برماد جدك وقطرة دماء من كل نساء القبيلة، وأحضرت غزالاً حياً للتضحية به حتى تتمكن من استخدام قوتها)، ثم أشعلت النار لتعلو حتى انطفأت من تلقاء نفسها، ثم قدمت الوعاء للرجال المختارين ليتجرعوا منه... كانوا يتساقطون واحداً تلو الآخر... كأنه سم يفتك بأجسادهم، ويصرخون بشدة حتى أن البعض منهم مزق ملابسة من الألم، تحولت أجسادهم للون الأزرق، ثم تدرجت حتى أصبحت سوداء قاتمة... ونمت أظافرهم، لتشبه المخالب الحادة... وزاد تنفسهم شيئاً فشيئاً حتى أصبح يشبه الهدير. وأصبحت أعينهم سوداء متجردة من أي مشاعر إنسانية، مفتقدة للرحمة،

جميعهم أصبحوا وحوشاً، ما عدا بارو لم يتغيّر سوى عينيه أصبحت أشد ظلمة.

لم تتعجب اليانا قائلة: «العهد يحول من لا ولاء له إلى وحشٍ كامل الولاء والطاعة، وأنت كنت صادقاً منذ البداية، لهذا أنصت جيداً... سوف يقاتل الرجال بلا تفكر كالوحوش الضارية لنصف ساعة حتى يزول مفعول الترياق، أجلب إلى جنود أحياء أو حتى مصابين حتى أتمكن من المساعدة أو سوف نهلك جميعاً... الأمر الآن بين يديك بارو».

تحرك والدك ويصاحبه ثلاثون رجلاً هم أقرب للوحوش، كانت أصوات صرخات الجنود واستغاثتهم تملأ أرجاء الغابة، فلم تنفعهم النيران، وأصوات المخالب كان تُحدث ضجيجاً عالياً عند احتكاكها بالأشجار معلناً أن ما يقبع في تلك الغابة ليس بشراً.

أقبل والدك بثلاثة جنود أحياء... كانوا يرتجفون خوفاً، مما شاهدوه، نظرة إليهم والدتك قائلة: «لم تكتفوا من إراقة الدماء... أتيتم لقتل ما تبقى من الأطفال والنساء... بأي حق استبحتم دماء الأعراق الأخرى، وأي جرم ارتكبه الصغار لينالوا هذا المصير، أجيبوا؟».

استجمع أحدهم شجاعته قائلاً: «سيدتي لا أعرف ماذا تقصدين... لم يرِد أحدٌ منا القدوم إلى هنا... أنا ورفاقي من جنوب أفريقيا».

ضحكنا جميعاً مستهزئين بما كان يقول، في اعتقادنا أنه مجرد جبان يخاف من الموت لهذا يختلق الأكاذيب، لكن مع إصراره في تكرار كلامه، غضب والدك وانتزع الأقنعة عن وجوههم... كانت الصدمة أنه صادق لكن ماذا يفعل هنا وأين الرجال البيض.
أخبرته والدتك أن أمامه ثلاث دقائق ليوضح ما يحدث أو سوف نقتلهم،

غمغم قائلاً: «سوف أخبرك بكل شيء نحن من جنوب أفريقيا، لقد أخذوا أطفالنا في الأسر ليجبرونا على القتال، أمرونا بالدخول للغابة وقتل من يعيش بداخلها، أخبرونا أنهم لن يفقدوا مزيداً من الجنود في هذه الحرب، وأن مقتلنا لن يشكل فارقاً فنحن جميعاً أقل منهم شأناً، نحن نفعل هذا من أجل أبنائنا، أقسم لكم أني لا أضمر لكم أي سوء».

صمتت اليانا تفكر لثوانٍ، فلم تملك رفاهية اتخاذ القرار في هذا الوقت، ثم تكلمت قائلة: «سحقاً لهم يعتقدون أن بشرتهم البيضاء تجعلهم أسياداً على البشر... لهذا يفعلون ما يحلو لهم ويضحون بثلاثين ألف جندي من عرق آخر».

فجر أحدهم مفاجأة أخرى... أنهم ليسوا ثلاثين ألفاً، بل مائة ألف جندي، وينتظرون القرار بشأن مصيرهم.

أجابه والدك على الفور بغضب قائلاً: «كيف لكم الاستماع لهم... يمكنكم هزيمتهم بكل تلك الأسلحة، لماذا لم تقاتلوا؟».

قال الجندي: «إنهم وضعوا (نصالاً) على أعناق الأطفال، مهددين بنحرهم إن حاول أحدٌ منهم الفرار أو فعل أي شيء آخر غير الأوامر».

لم يتح لنا الوقت، التفكيرُ كثيرٌ. أطلقت المدفعية عدة دانات في الجهة الغربية وأحدثت أضراراً بالغاً... ولم يتبقَّ لدينا حلول، أرادت والدتك أن تسمع مشورتنا، هل نطبق الخطة الأصلية ونستخدم هؤلاء.... أم لا؟

قال والدك: «افعليها من أجل القرية، هم أتوا إلى هنا لقتلنا جميعاً يستحقون هذا المصير، في النهاية هذا اختيارهم». لم يكن هذا رأي والدك بمفرده، أنا أيضاً صادقت على كلامه... نحن أو هم ليس لدينا حل آخر.

وفي النهاية كان القرار بيد والدتك... قالت: «أعلم أنهم أتوا عازمين على قتلنا لكن في النهاية هم مثلنا، بشر، يستحق الجميع العيش مهما كان

الاختلاف في لون أجسادهم أو ملابسهم، أو معتقداتهم، إن قتلناهم الآن فأي فرق بيننا وبين العرق (الآري).

لهذا أطلقت سراحهم وأعطتهم 10 دقائق للتراجع، وأخبرتهم أن هذه ليست حَربهم وأن موتهم هنا لن ينفع أطفالهم بشيء. وبمجرد انطلاقهم أخبرت اليانا والدك أن يذهب ويجلب من الغابة أي جندي يتنفس مهما كانت حالته، ومن الأفضل أن يسرع لأن مفعول الترياق سوف يزول بعد 5 دقائق.

وبالفعل أتى والدك ومعه رجال القرية في هيئتهم الطبيعية وخمسة من الجنود يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وآثار المخالب قطعت أجسادهم، هناك من تهشمت قدمه والدماء تتدفق منها بغزارة، ونرى عظام قدمه اليمنى في اتجاه مختلف، حيث انتزعت من داخل اللحم، وآخر تخرج مقلتا عينيه من ضربة شجت رأسه لنصفين يحاول التكلم ولا يخرج من فمه سوى الدماء، أما الثالث كان مستلقياً على الأرض وهناك آثار لخمسة مخالب متباعدة عن بعضها في بطنه، وتخرج أحشاء متفرقة من تلك الضربات، وكان يضع يده المرتعشة لمحاولات يائسة لمنع خروج أحشائه، ولم يبقَ من الاثنين المتبقيين أشياء لوصفها، فقد فقدوا أطرافهم الأربعة، وتنتابهم حالات الإغماء لفقدانهم كميات كبيرة من الدماء.

لم يتراجع الجنود، بل استمر القصف، لكن كان الأمر مختلفاً لم تكن المدافع بل كانت شيئاً يحلق في السماء، ويسقط متفجرات دمرت النصف الشمالي للغابة... كانت طائرة، لم نكن نعلم الكثير بشأنها، ولكنها كانت تذهب مبتعدة، وتعجل بالعودة لبدء قصف جديد، في وسط تهليل من الجنود.

نظرت والدتك لتلك الطائرة المقبلة بالعودة، لتقول بأعلى صوتها، أنتم من أجبرتموني على هذا... وضعت يدها على أجساد هؤلاء الجنود ليجتاح الظلام المكان، كان الأمر مختلفاً حقاً، فوهة من الظلام ظهرت أمامها للمرة الأولى ليخرج منها أفواج من الغربان، لكن غربان حمراء قاتمة بأعين بيضاء تخرج متشابكة في اتجاه عمودي وتلتف كأفعى ضخمة تنظر لتلك الطائرة، حين رأتها الطائرة أطلقت وابلاً من النيران نحو رأس تلك الأفعى ليسقط ملايين من الغربان أرضاً، استمرت الطائرة ثلاث مرات مناورة ذهاباً وإياباً مطلقة النيران، وجندي من الطائرة كان يصيح، ويتفاخر أنه سوف يقضي علينا جميعاً، ويتبعه ضحكات الجنود في الأسفل مشجعين، أجل اقضِ عليهم، لكن أطلقت أفعى الغربان صرخات عالية كزئير الأسد الجريح... صمت الجنود وساد الهدوء ولم يبقَ سوى صوت الطائرة التي كانت مقبلة للمرة الخامسة، لقصف أخير. لكنها تفاجأت بخروج أفعى أخرى من وسط الأشجار بلغت تلك الطائرة، كان الجميع ينظر في ذهول

حيث أن الطائرة بين فكيّ أفعى أخرى، حطمتها حتى انفجرت بين فكيها، وتساقطت رأس الأفعى أرضاً، ثم عاودت تلك الغربان المحترقة، إثر الانفجار للنهوض لتشكل الرأس مرة أخرى، واندمج الاثنان لتشكيل واحدة ضخمة تصدر صوتاً قوياً، زئيراً مختلطاً بنعيق تلك الغربان.

هرع الجنود هاربين يلقون أسلحتهم فارين من هول ما رأوه، في تلك اللحظة خرجت يد بشرية من تلك الفوهة، كان يخرج منها سلاسل سوداء منبتها تلك اليد انطلقت نحو الأفعى تخرج ملايين السلاسل كالسهام لتسحب كل غراب بمفرده إلى تلك الهاوية إلى أن سحبتهم جميعاً، ثم اختفت الهاوية.

قبل أن نعود إلى القرية نظرت والدتك إلى خمس جثث متفحمة قائلة: شكراً لكم... لقد أنقذتم قومكم، ولم تمر سوى دقائق حتى عادت الأشجار للنمو مرة أخرى، وخمدت النيران وعاد كل شيء كما كان بسحر والدتك.

انتهى كل شيء، عدنا إلى القرية، لم أكن الوحيدة التي تسأل ما جرى هناك لوهلة، ظننا أن اليانا هُزمت وأنها النهاية، اجتمعت القرية في المساء لتناول العشاء كالمعتاد... سألتها: هل ضعف سحرك في القتال؟ ولماذا لم تقتليهم من البداية؟!

لتجيب بهدوء كالمعتاد: «كنت أعلم أنهم لن يتراجعوا، في النهاية هم يقاتلون من أجل أطفالهم، أردت منحهم الأمل بسقوط ملايين الغربان أرضاً، حتى أشكل بهم أفعى أخرى، وأيضاً حتى لا تهرب الطائرة، أردت تحطيم آمالهم في الفوز حتى لا أضطر إلى قتلهم جميعاً.... ونجح الأمر»

كان الجميع يتناولون الطعام ويحتفلون بالانتصار، وأننا لم نفقد أي شخص من القرية. وقف والدك وسط الجميع يقول: «لم أعهد ولاءً صادقاً لك، سوى أنني أحببتك من البداية، وأردت حمايتك والبقاء بجانبك».

أجابته والدتك بكلمة واحدة: «حسناً... سوف تتزوج».
انصدم الجميع وظلوا ينظرون لبعضهم... غير مصدقين ما يقال، حتى أن والدك قال: «ما.. ماذا!!».

قالت والدتك: «القبيلة تحتاج لزعيم قوي مثلك... فأنا سحري مقيد، وكدت بالفعل أن أموت في الهجوم الأول على القرية، لهذا الزواج سوف يكون الحل الأمثل لبقائك في القبيلة كزعيمٍ شرعيّ لها.
أنا أعرف فيما تفكر أنّ والدتك تتصرف بعقلها دائماً، مفتقرة للمشاعر ولكن هذا غير صحيح... لقد كانت جميلة في كل شيء، وتفضل الصالح العام للقبيلة لا أكثر.

بالفعل تم الزواج في اليوم التالي، أنعمنا بالسلام لفترة طويلة واستقرت الأمور، حتى أخبرتنا والدتك أنها تريد إنجاب طفل، أكد الطبيب في إحدى القرى أن الأمر قد يشكل خطورة، لكنها لم تعرف معنى الاستسلام، حتى أنجبتك، قلقنا جميعاً خوفاً من موتها، حتى أمضت ١١ شهراً بعد الولادة بخير، وأخبرنا الطبيب أن الخطر زال وسوف تكون بخير.

بالرغم من السلام الذي ساد لبعض الوقت كان والدك حريص ودائم الخروج متلصصاً، ليعرف الأخبار حتى نعرف ما يدبرون لنا هؤلاء الأوغاد. ما زلت أذكر اليوم المشؤوم الذي قدم فيه والدك مسرعاً، ليخبرنا أن ألمانيا تشن حرباً على بولندا، والغابات السوداء قرب حدود فرنسا، هذا يجعلنا في منتصف الأمر، بسبب المشاكل المتصاعدة بين ألمانيا وفرنسا. لكن لم تكن هذه المشكلة الوحيدة، شعرت اليانا بشيء غريب يقترب لم يكونوا جنوداً، كانوا سحرة (ملوك سحرة الفودو)، أو ما يطلق عليه سحر دُمَى الموت، لجأت إليهم ألمانيا لقتل ملكة الغابات السوداء، كانوا خمسة، ثلاث نساء مثقوبات الأنف يتخللهن عظام حيوانات، وأجساد سوداء كظلام الليل وعيون حمراء تصدر بريقاً في الظلام، وشعرهن في شكل خيوط متموجة يصل لنصف ظهورهم، أما الرجال كانت تظهر جميع أجسادهم ولا يرتدون سوى جلود تغطي بين الفخذين، عظيمي البنيان تظهر على أجسادهم بوضوح رسوم بيضاء لحيوانات مختلفة.

أخبرتنا اليانا بالذهاب خلف الغابات إلى أبعد نقطة يمكن الوصول إليها، أدركت أن الأمر خطير، لكن تذكرت كلمات جدك، بأن أثق في كلام اليانا دائماً، لهذا وفقت على قرارها... أما والدك أراد أن يبقى للمساعدة، لكن رفضت اليانا وعهدت إلينا حماية الجميع، وأخبرت والدك قائلة: «أنت لست زوجاً وأباً فقط... أنت قائد للقبيلة قبل أي شيء آخر، أرواح الجميع متعلقة بقرار واحد منك، لهذا تصرف على هذا النحو.... ولا تتسبب في قتل الجميع»

لا أعلم الكثير بشأن تلك المعركة، سوى الصرخات وأصوات القتال، استمر القتال ليوم كامل حتى عادت اليانا مغطاة بالدماء لتسقط أمامنا، بقيت شهراً كاملاً طريحة الفراش حتى ماتت، لم نعلم ماذا حدث ولكن كان بإمكاننا رؤية جثث هؤلاء السحرة في النهاية، هكذا ماتت والدتك، معلمتي، وصديقتي، وكل شيء جيد حدث لنا، بموت والدتك فقدنا قوة الغابات السوداء، وفي النهاية فضّل أبوك الموت على أن يعرضك للخطر أنت والقرية... هذان هما أبوك وأمك.

انتهت نافارو من حديثها منهالة في الدموع، لتقول: «اليانا أرجوك سامحيني ليس لدي خيار». تعجبت من قولها... فسألتها: ماذا تقصدين؟!

لا أذكر الكثير بعد سؤالي سوى أن نافارو تغيرت أوشام جسدها لتصبح هالة من السواد تحوطها... وقبضت على وجهي بكلتا يديها ليصبح إبهامها فوق عيني، فأصبحت لا أرى جيداً، لكن ما زلت أسمع بوضوح، خرجت نساء القبيلة من الغرف يرددن كلمات غير مفهومة، أظن أن لباسهن كان أسود، كُنَّ أشبه بغربان سوداء يتحركن سريعاً في دوائر.... آخر ما سمعته من نافارو قبل أن أفقد... أنك تستحق ولم أسمع بقية الكلمات.

وجدت نفسي في مكانٍ مظلمٍ وموحشٍ وأجساد كثيرة معلقة بسبعة سلاسل وتقطر أجسادهم الدماء، حتى أني وجدت صعوبة في التحرك بسبب لزوجة الدماء على الأرض... ونهاية كل تلك السلاسل بيد شخص يجلس في ركن بعيد، يهمس بصوت خافت ويخبرني أن أتقدم، ثم صمت لم يتحدث لدقائق، قبل ضحكة بشكل هستيري وهو يقول: «كين مرحباً بك»، ثم يعاود الصمت ويكرر الأمر مرة أخرى.

كنت أردد بصوتٍ عالٍ: إن هذا ليس حقيقياً... أنا فاقد للوعي في القرية وهذا كابوس لا أكثر... وأنا لست خائفاً منك.
ضحك ضحكة باهتة وقال: «أنا لا أريد إيذاءك... دعني أعرفك بنفسي أنا... كاهلو».

الفصل الرابع

كلنا مميزون

اللعنة! استهلكت الكثير من السجائر في تلك الساعات كالمعتاد منتظراً شروق الشمس، لاحتساء كوبٍ من القهوة الذي يدفعني للاستمرار لبقية اليوم، رغم أن تحضيرها يستغرق الكثير من الوقت... بسبب افتقار بيتي الخشبي لمظاهر الرغد، التي يعيش به سكان المدينة.

أصبحت الآن في 29 من عمري، أقطن في وارسو عاصمة بولندا، أعمل بكل أسف طبيب أطفال، أنا لا أكرههم لكن هم مثل الفتيات يجدنني لطيفاً في البداية لكن يخفن من النظر إلى يدي، حيث تلك الأصابع المقطوعة، في الواقع كلما رأيت يدي أتذكر... الحادث حيث فقدت أمي ونجوت أنا لكن بلا إصبعين، كم تمنيت أن أفقد يداً كاملة وتبقى هي، حين أخرجنا رجال الإسعاف من السيارة، كانت تحطمت أضلعها وهي تحتضنني، ماتت في أحضاني... أظن أن ذنبها سوف يلاحقني أبد الدهر.

في تلك الفترة كنت أعاني من مشاكل نفسية عصيبة، كنا ننتقل لبيت مختلف كل ٥ أشهر، وعقد الأمور أكثر أطفال المدرسة والتنمر المستمر كوني

مختلفاً، لقبوني بالمسخ، وألقاب أخرى عديدة، كنت أبكي كل ليلة أتوسل لأبي، لعدم الذهاب للمدرسة.

لكنه أخبرني أن الهروب لن يفيد ولابد من المواجهة لهذا أعطاني أصابع صناعية، أرتديها حتى أوقف تنمر الأطفال، قال لي حينها: إننا مميزون لا يختلف أحدنا عن الآخر، أبيض، أسود، بني، وضحك قائلاً: حتى وإن كان أحدنا أحمر كلنا بداخلنا ما يميزنا، نختلف فقط أن أحدنا يسبق الآخر في معرفة ما يميزه عن غيره، لكن كلنا مميزون وخلقنا هكذا.

لم يلبث والدي الكثير حتى مات وانتقلت للعيش مع أجدادي... لفترة المراهقة والجامعة، حتى أتت فرصة عمل مميزة هنا وانتقلت أنا للعمل في ولاية وارسو الساحرة، جذبتني سحر الغابات الجميلة لهذا قررت أن أسكن بالقرب منها، حيث أشعر بالسكينة دائماً والألفة بوجود الحيوانات.

إحدى مساوئ العيش وحيداً... هي تحضير الطعام وتناوله بمفردي كل يوم قبل الذهاب للعمل الممل، فلا يحثني للذهاب إليه سوى غابرييل، لمجرد النظر إليها يمكنك رؤية بريقٍ يتخلل عينيها البنيتين... يخطف القلوب، وبشرة سوداء ناعمة... وشعر طويل مجعد، قطعة من الجمال.. سحقاً لو (دافينشي)، لجعل منها موناليزا أخرى. انتقلت إلى المشفى منذ سنة واحدة،

ومنذ الانتقال وأصبح جميع الرجال في المشفى يأتون ملتزمين بالحضور مبكراً.

تباً! تأخرت على العمل مجدداً... ولابد من الإسراع، لأنّ هناك باصاً وحيداً يمر من قبر بيتي المعزول.

«صباح الخير... أنت تنتظرني»

السائق: «أنت دائماً متأخر... يا آدم».

آدم: «يسهل عليك قول هذا... فأنت لا تعيش في منزل يبعد عن الطريق الرئيس ١٠٠ ميل، وتحتاج لقطعها مهرولاً كل صباح، وأيضاً هذا ما يميزني فأنت دائماً تعلم عدم تواجدي».

السائق: «أنت الراكب الوحيد هنا أيها الأحمق... لهذا لابد أن أعرف أنك لم تأتِ».

آدم: «هاهاها... أشعر بالإهانة، لكن لا بأس... هل يمكنك الإسراع قليلاً أم أنك حذق اللسان فقط!».

السائق: «هل تعلم يا فتى...؟»

آدم: «انظر أمامك احذر السيارة (صوت صرير عجلات الباص للاحتكاك الشديد) تباً! انظر هناك دخان كثيف يحاوط العجلات.»

السائق: «إنها لا شيء، الأمور بخير، اجلس مكانك حتى ننطلق»
آدم: «ذلك الغبي الأحمق، أوشك على التصادم بنا... وفرَّ هارباً، لم يتوقف حتى للاطمئنان على سلامتنا»

السائق: اهدأ... الأمر بسيط، لماذا أنت مذعور وغاضب هكذا؟

آدم: ما... ماذا، هذا الغبي كاد أن يودي بحياته، وأيضاً حياتنا جميعاً بسبب السرعة المفرطة... وأيضاً فرَّ هارباً، وتسألني لماذا أنا غاضب!

السائق: «إذاً أنت سوف تتوقف للاطمئنان.... إن كنت مكانه أليس كذلك؟»
آدم: «بالطبع.... سأفعل»

السائق: «هذا الشخص لا يختلف عنك كثيراً.... شخص متأخر، ويريد الإسراع للحاق بعملة، منذ ثوانٍ كنت تريد مني الإسراع لأجل عملك... مع العلم أنك أنت من تأخر وعليه أن يعاني عواقب أفعاله وليس الجميع، لهذا قبل أن تذم فعله المشين أرجو منك أن تعيد حساباتك في أفعالك،

لأنه يوماً ما كان يجلس مكانك ويقول أيضاً إنه سوف يتوقف مع العلم أنه لسنوات طويلة لم يفعل أمراً واحداً صحيحاً وهو احترام العمل».

آدم: «امممم... ذكرني إن طلب منك الوقوف لأجلي مرة أخرى لا تفعل!»

السائق: «هاهاها... وغد أحمق.»

آدم: «ها... أعلم، أراك لاحقاً»

كان محقاً فيما قال.... لكن لم أحبِبْ أن أطيل الحديث، المراوغة وعدم الإجابة عن بعض الأمور أفضل بكثير من الخوض في حديث أنا مقتنع تماماً بصحة أقوال الطرف الآخر، وأيضاً حتى لا يحملني أمر أنه نظر للخلف بسببي، فكانت المراوغة هي الحل الأمثل.

وصلت أخيراً لبوابة المشفى السوداء الضخمة. عند الدخول والسير على ممر مليء بالحصى الصغير وعلى جانبية بعض الزهور بألوان مختلفة... أول ما يمكن رؤيته كل يوم بشكل متكرر في آخر الرواق هي غابرييل تقف بجسدها الفاتن... كأنها هاربة من إحدى مجلات عارضات الأزياء، تمارس هوايتها المفضل الاجتماع الصباحي، نسيت أن أقول إن غابرييل هي مديرة المشفى الجديدة، هي رائعة في كل شيء فيما عدا تلك الاجتماعات الروتينية

المملة دائماً، والجلسات الأسبوعية لتقييم الحالة النفسية للعاملين، حيث إنها الطبيبة النفسية الوحيدة في المشفى.

«صباح الخير د/غابرييل، آسف على التأخير كانت هناك... أم... مشكلة»

غابرييل: «لا أريد أن أعرف... أنت متأخر كالعادة وهذا هو المهم، لهذا سوف تعمل لساعتين إضافيتين، وهذا تحذير للجميع.... يمكن لأي منكم القدوم في الميعاد المناسب له.... لكن سوف يذهب لبيته في الميعاد المناسب لي أنا.»

سحقاً! ها... قد بدأنا محاضرة يومية عن الانضباط... لو انتبهت قليلاً سوف تعلم أنني غير واعٍ.... تركيزي مشتت الآن تماماً وأنا أتأملها وهي ترتدي بلوزة سوداء قصيرة... وقميصاً أبيض، مفتوح اثنان من أزراره العلوية، ويظهر جسدها بوضح بسبب ضيق الملابس..
أعلم ما قد يفكر به البعض... لكن لا، أنا لست منحرفاً، أفقد تركيزي غضباً...

غابرييل: «انتهى الاجتماع ليذهب الجميع إلى عمله وأنت آدم اتبعني إلى مكتبي رجاءً»

آدم: يبدو أن وصلة التوبيخ لم تنتهِ... ويجب عليّ الذهاب لمكتبها الغريب، فطلاء الغرفة بالكامل باللون الأبيض، ولا يوجد في الغرفة سوى مكتب وأريكة و"شيزلونج" طبي في أحد جوانب الغرفة وجميعهم باللون الأسود، حتى اللوحات الفنية على الحائط شاحبة وكئيبة، لا أعرف إن كان نوعاً من العلاج.... أم أن طبيبتنا النفسية، تحتاج طبيباً نفسياً أيضاً.

غابرييل: «لماذا تقف بجوار الباب.... أغلقه وتعالَ إلى هنا».

آدم: «حسناً د/ غابرييل»

غابرييل: «دكتورة... هل أنت بخير نحن بمفردنا!»

آدم: «أجل أنا بخير، هل هناك أمر مهم، أم أذهب للمرضى؟»

غابرييل: «امممم... فهمت أنت غاضب، اقترب هنا سوف أعطيك قبلك الصباح.... وسوف أصالحك... حبيبي»

آدم: «لا أنا بخير هنا... شكراً»

غابرييل: «حسناً أقترب أنا إليك.... حبيبي ماذا بك انظر إليّ، هل أنت غاضب بسبب ما فعلته خلال الاجتماع؟!»

آدم: «إن لم توبخيني بسبب تأخيري عن العمل... كنت سوف أغضب، أنا أخطئ لتأخيري الدائم، وكوني خطيبك لا يعني أني معفيّ من العقاب كالجميع، وأيضاً حتى لا ينتاب البعض أي شكوك أو أن يقول أحدهم إنك تميزيني عنهم.... لذا أخفيت خطبتنا.

غابرييل: «أنت رائع.... لهذا أحبك بشدة، إذا ماذا بك... أخبرني هل اقتربت منك فتاة هكذا، وأخبرتك أن لديك جسداً رياضياً، أم تقربت أخرى وقالت إن عيونك الزرقاء، يمكن أن تغرق أي فتاة في حبها... ماذا... لا تنظر لي هكذا»

آدم: «لن تنجح خدعتك..... وأنا سوف أظل غاضباً بسبب ملابسك، أنا أخبرتك بشأنها مرات عديدة... وأنتِ لا تستمعين.»

غابرييل: «حبيبي نحن في **2020** الآن لا أحد يدقق بشأن الملابس.. إنها حرية للجميع، لكل شخص حرية اختيار ملابسه، هذا حق مكفول للجميع، عزيزي أنا أحبك في يوم ما سوف نتزوج لا أريدك أن تكون ضيق الأفق، الجميع يتحضر ونتطور لا نتخلف، تلك الأفكار رجعية للغاية.»

آدم: «حقاً!!»

غابرييل: «أجل لقد انتهى نهج تقييد المرأة بالملابس والأفكار القديمة، هذا عصر الانفتاح»

آدم: «حسناً أنتِ محقة بالتأكيد، ينبغي أن أفكر بشكل متحضر أكثر...»

غابرييل: واااو.... أجل هذا هو حبيبي... ما..... ماذا تفعل توقف الآن هل جننت أرتدي ذلك القميص... لا.. توقف أنا لا أمزح.... إياك أن تخلع البنطال... آدم حقاً ماذا تفعل؟!

آدم: «ماذا بك... حبيبتي من حق الجميع اختيار ملابسه، لقد قررت أن أرتدي الملابس الداخلية فقط... لا تقلقي سوف أقوم بارتداء البالطو»

غابرييل: هل تمازحني، تلك وقاحة لا تستطيع أن تتجول داخل المشفى هكذا!

آدم: «لماذا؟ هذه حرية مكفولة للجميع، ونحن مجتمع متحضر.»

غابرييل: «أجل هذه حرية للجميع... لكن هناك قواعد ينبغي احترامها والالتزام بها..... وحتى لو لم تكن هناك قواعد، لن أسمح أن تتجول عارياً أنا أغار»

آدم: «بالضبط غابرييل، هناك حرية... لكن إذا تخطت الحرية الحد المسموح للفطرة أو الدين أو القواعد تصبح تبجحاً ووقاحة، وحتى لو لم تكن هناك أحد يمنعها، أنا أيضاً أحبك.... وأغار، يؤلمني أن ينظر إليك أحد أو أن يصيبك مكروه، لهذا لن نتحدث بشأن الملابس مرة أخرى، بقدر ما يظهر منك سوف أخلع قطعاً من ملابسي!»

غابرييل: «لماذا تبتسم بخبث عندما ذكرت خلع ملابسك؟!»

آدم: لا شيء أنا فقط أخبرك.

غابرييل: «لا.... أنت تريد أن تتجول عارياً، بداخل المشفى لتتغزل الفتيات بجسدك القوي، ويخبرنك كم أنت رائع أيها الخائن»

آدم: «سحقاً..... ما... ماذا، أنت من تتجولين بملابس مثيرة، وأصبحت أنا الخائن... لماذا تبكين الآن؟»

غابرييل: «لأنك خائن... سوف أنفصل عنك»

دموع المرأة سلاحها القاسي لإنهاء أكثر الصراعات جدلاً ولتشعرك أنك تسيء إليها دائماً، منذ لحظات كنت أنا الغاضب والآن، أنا خائن على أمر

افتراضي، في خيالها، وتريد أن تعاقبني لخيانتي، سحقاً!! لم يتبقَّ لي سوى حل واحد.

آدم: «حسناً.... أنا نادم، ولن أفكر في خيانتك مجدداً، أنا آسف!»

غابرييل: «أنا أحبك، لن أرتدي هذا الملابس مجدداً... ها، ارتدِ ملابسك رؤيتك هكذا مضحكة للغاية..»

لم أتعامل مع الكثير من النساء، لكنّ قدرتهنَّ العجيبة على تغيير مشاعرهنَّ، بمجرد سماع كلمة مدح أو اعتذار وتحول الدموع لضحك وفرح يدعو للتساؤل هل كل النساء هكذا. وهل باقي الرجال أيضاً يستغلون هذا الأمر في المراوغة للنجاة من تلك المناقشات.... غير المنطقية.

آدم: «أريد أن أبوح لك بشيء لم تتوقف الأحلام، بل تزداد سوءاً، أستيقظ كل ليلة مهرولاً للخارج وأتذكر كل شيء قرأته في تلك المذكرات، اعتقدت أني إن تركت قراءتها، سوف أكون بخير لكن زاد الأمر سوءاً»

غابرييل: «لماذا لم تصارحني من قبل أخبرتني أن الكوابيس توقفت وأنك بخير..»

آدم: «تلك هي ميزتي على ما أعتقد... نشر البهجة، محتفظ بالألم لذاتي...»

غابرييل: «هذا ليس وقتاً للمزاح!»

آدم: «آسف أردت فك الأجواء لا أكثر»

غابرييل: «أكره أن أخبرك بهذا لكن كل هذا الأمر بدأ منذ قراءتك تلك المذكرات... يجب أن تكملها حتى تعلم كيف تتخلص من تلك الأحلام»

آدم: «هل تعتقدين هذا حقاً؟»

غابرييل: «حبيبي أنا لا أثق في السحر وكل هذه الأمور، والمشاكل والأحلام هي أمور نفسية فقط، من مشاكل في الصغر أو تفكك أسري أو حتى أمور لم تستطع تحقيقها، وأيضاً يجب أن تضع في الاعتبار طفولتك القاسية بدون والدتك وموتها وهي في أحضانك كل هذا في عقلك الباطن، يريد أن يجمعك بوالدتك في تلك الكوابيس، أو تنمر الأطفال وأنت صغير هو ما يسبب لك هذه الكوابيس أمور متراكمة لهذا عقلك يجعلك تعتقد أنك لابد من إكمالها حتى تتحسن، أعلم أني من أخبرتك بالتوقف عن قراءتها، لكن ازداد الأمر سوءاً، أنا أريدك نشيطاً وسعيداً كما كنت دائماً، أكملها ودعنا ننتهي من هذا الأمر حتى نلتفت لحياتنا.»

آدم: «هنا المشكلة ليس لدي باقي المذكرات، لم أعرف أنّ لها جزءاً آخر ذهبت لمكتبة المشفى وبحثت جيداً، لكن لم أستطع إيجاد باقي المذكرات، لا أعرف ماذا أفعل»

غابرييل: «هل بحثت في القبو، أعتقد أنهم أرسلوا بعض الكتب القديمة هناك، لقد سمعت أحدهم يقول إن المشفى كانت مكتبة قديمة... لهذا هناك الكثير من الكتب في الأسفل»

آدم: «سحقاً لي لم أتذكر هذا، لكن أين نجد مفاتيح القبو؟»

غابرييل: «بجوزة مديرة المشفى... مثلاً!»

آدم: «..... آه...أجل بجوزة مديرة المشفى.. لقد نسيت»

غابرييل: «هل تعلم ما يثير دهشتي حقاً؟»

آدم: ماذا؟!

غابرييل: كيف حصلت على الدكتوراه هل غششت؟!

آدم: «حقاً... ليست دعابة مضحكة كنت مشوشاً... اجلبي المفاتيح هيا»

غابرييل: «ها ها... تفضل، أتمنى أن تجدها»

آدم: «أتمنى، أنا ذاهب إلى الأسفل الآن»

رغم بقائي لسنوات طويلة داخل المشفى لم يسبق لي الذهاب للقبو، بسبب شكله المزري، وبابه الحديدي الذي أكل الصدأ أطرافه ويصدر أزيزاً شديداً، ويلاكم عند فتحهِ.... لا أعرف في الحقيقة كيف تمكنت مجموعة من

النساء كبار السن، نقل الكتب إليه، أنا أعتقد أن الباب مغلق هكذا لعقود ولم يتفحصه أحد، فبمجرد دخولي، كومة من الغابر انطلق للخارج مختلطة بالهواء... سببت لي السعال الشديد، وأدمعت عينيّ من كم الغبار، ورجعت مسرعاً للخلف، أنتظر قليلاً حتى يمكنني الدخول، وجدت كماً هائلاً من الكتب، تغطيها شباك العناكب الثقيل... بالتأكيد لم يحركها أحد لسنوات طويلة... بالرغم أن كل هذه الكتب تساوي ثروة في مختلف الثقافات، لكن لم يهتمِمْ أحدٌ بها، بعد الانتشار الواسع للتكنولوجيا... والآن ينبغي أن أتفحص كل هذا... اللعنة!

غابرييل: «أين كنت كل هذا، ٩ ساعات في الأسفل، يا إلهي هل أنت بخير... الغبار يغطي وجهك وملابسك... اجلس التقط أنفاسك»

آدم: «لقد حالفني الحظ، كانت في مكان واضح لكن لم أنتبه لها من البداية، وجدت أيضاً مجموعة من الكتب الرائعة بالأسفل... تواجدها هناك إهدار لها وأمر مؤسف»

غابرييل: «أنت محق سوف أناقش هذا الأمر مع أحد المسؤولين، قلقت بشأنك... أردت أن أجمع العمال ونأتي للتأكد من أنك بخير.»

آدم: «امم.. هل كنتِ قلقة؟!»

غابرييل: «أجل بالطبع.... ألا تعلم، المفتاح عهدة!»

آدم: «هاهاها، المفتاح.... أنت كاذبة سيئة كالعادة، في الحقيقة أريد أمراً آخر وسوف يكون الطلب الأخير!»

غابرييل: ماذا تريد الآن؟

آدم: «أريد إجازة 5 أيام فقط، قبل أن تجيبي هذا الأمر مهم، أعدك عند العودة سوف أنتهي من الأمر تماماً، وأكون كما عهدتني دائماً»

غابرييل: «حسناً، لكن آدم أنت تكمل هذه المذكرات للعلاج، أعلم حبك وشغفك للقراءة.... لكن مهما حدث لن يعود أصحابها للحياة لذا، سواء كان جميلاً أم قبيحاً أريدك عند الانتهاء، أن تنسى كل هذا ونعود لحياتنا هل تفهمني... أحبك»

آدم: أفهمك... وأنا أيضاً أحبك وداعاً حبيبتي.

****

الفصل الخامس

30 يوماً

ظلامٌ أبدي بلا نهاية أو بداية... كان يغمر المكان، وبالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، كنت أعتقد أنني ما زلت أحلم وجسدي أمام نافارو في القرية فاقد الوعي، لا أعلم ما الحقيقي وما الخيال هل قابلت كاهلو... حقاً! أم أنني ما زلت في هذياني وأحلامي، أفقت من سكرتي على صوت هدير محرك العربة، واهتزازها القوي بسبب الطريق المتعرج والمنحدرات المليئة بالحصى، كانت هناك عصبة على عينيّ تمنعني الرؤية بوضوح... برغم الظلام كنت أشعر بثقل أنفاس من حولي وقلوبهم التي يملؤها اليأس.

بعد مسافة صغيرة توقفت العربة، وقال رجل ذو صوت أجش: «هل أفاقوا... هيا اجلب الماء لكي تجعلهم يستيقظون، ليس لدينا وقت» كان حديثه يشبه إلقاء الأوامر... بمجرد الانتهاء، سمعت قعقعة أقدام قادمة نحونا مهرولة، رشقونا بالمياه، لم أكن أعلم أعداد من حولي... سوى عند انتفاض أجسادهم عندما غمرتهم المياه، أعتقد أن أعدادهم تتجاوز ال ٣٠ رجلاً... كنا مكبلين سوياً بسلاسل متشابكة بأيدينا وأخرى في الأقدام منفردة، لم

أشعر بالقيود، سوى عند انتزاعها من أحد الأشخاص بجواري... عندما انتاب جسده القشعريرة من المياه.

«انزلوا أيها الأوغاد... مرحباً بكم في الجحيم»، قالها رجل آخر غير الأول يقال له (إدغار)»

لقد كذب.. كان من المفترض أن يقول مرحباً بكم في أسوأ من الجحيم، لم أذهب إلى الجحيم من قبل، لكن أعتقد أنه أفضل من هؤلاء البشر... بل مسوخ تشبه البشر، في الجحيم تعاقب على جُرم ارتكبته أما هنا لماذا نعاقب في جحيمكم البشري وما هي جرائمنا.

أمرنا بالوقوف في صفوف عمودية، وكانت ما تزال العصبة فوق أعيننا، لكن حرروا الأغلال ليصبح كلٌ منا مقيداً بمفرده، كان إدغار يأتي ويقود كل واحد منا إلى غرفة في الأمام... ثم نسمع صرخات وبكاء كل شخص، ثم يسود الصمت لدقائق، في البداية اعتقدت أن الغرفة هي نقطة النهاية... لم أعرف أنها البداية، لأن الصراخ والألم يعود بقوة أعلى من سابقها... كل هذا وأنا أنتظر المجهول القادم من تلك الغرفة، فأصبحت الثواني تمر كدهر كامل، وبالفعل أتى إدغار ليقول إن دوري قد حان.

حتى وإن كانت الرؤية معدومة، كان بإمكاني الشعور بفرحة إدغار الغامرة حين يتكلم ويخبر كل شخص أن دوره قد أتى، بقي سؤال عالق في ذهني... هل هناك أشخاص تكمن ساعدتهم في أذية غيرهم مثل هذا الرجل وما اللذة الكامنة في هذا الفعل؟

قادني (إدغار) إلى تلك الغرفة، كنت أشعر أن بجانبي رجل متوسط الحجم لكنه قوي جداً، وأيضاً له صوت صلب ومميز... كانت خطواتي بطيئة، يعيقني تكبيل أقدامي... أو ربما هذا ما كنت أخبر به نفسي، والسبب الحقيقي خوفي من المجهول، فأبت أقدامي التحرك، بمجرد الدخول إلى الغرفة شعرت ببرودة لم أعهدها، وبسبب جذب إدغار ودفع رأسي لدخول الغرفة تحركت العصبة قليلاً... أصبحت أرى بشكل طفيف، كانت هناك منضدة في وسط الغرفة، وهناك رجلان بجوارها... كنت أحاول اختلاس النظر لمخرج للهروب، لكن كانت تبدو كالقبور بدون مخرج أو منافذ للهواء، حتى انتبهت لشعاع من النور يتوسط الحائط المقابل لباب الدخول، رغم صغرة، ظهر بشكل مبالغ بسبب ظلام الغرفة.

منذ دخول الغرفة... وأنا أشعر بالماء يبلل أقدامي، لكن كان آخر همي البرودة الناتجة عنه، عندما أزال إدغار العصبة عن عيني، ارتعد جسدي وتجمد دون حركة لم يكن ماء... بل كانت الغرفة بأكملها مليئة بالدماء،

كانت المنضدة من (الخرسانة الإسمنتية)، تم بناؤها بشكل مخصوص لفعل محدد، كان أحد الرجلين يقف بجوارها وبيده بلطة والآخر ينظف المنضدة من الدماء بخرقة، ويلتقط الأصابع من فوقها ويلقيهم في أحد أركان الغرفة... المكدسة بهم في أكوام ضخمة وينزع منهم الدماء التي أغرقت الغرفة.

فقدت صوابي مما رأيته... لم أصرخ... صوتي أبى الخروج، تقهقرت بضع خطوات للخلف، لخوفي مما أراه، أهوي بجسدي أرضاً، ارتكزت على قدمي وكلتا يدي... وأصبحت الرؤيا ضبابية، بسبب إدغار لقد ضربني في مؤخرة رأسي بمقبض مسدسه، شعرت بماء دافئ ينساب إلى ملابسي... كانت.. رأسي تنزف، أغرقت جسدي ووجهي، أصبحت لا أستطيع الوقوف، تقدم أحد الرجلين مع إدغار يجروني إلى تلك الطاولة، كانت أقدامي تصدر ضجيجاً لاحتكاكها بالأرض تأبى التقدم.

سحب إدغار ذراعي الأيسر، حاولت المقاومة بما بقي لي من جهد، لكن الشخص الآخر كان يثبت كتفي بجسده، كان ضخم الهيئة، حليق الرأس، كثيف اللحية، أظن أن وزنة يتجاوز **200** رطل شعرت أن أنفاسي تنقطع بمجرد أن وضع ذراعيه على كتفي لتثبيتي، كان رأسي ملتصقاً بالمنضدة وذراعي الأيسر ممدةً، يقبض عليها إدغار ليبقيها هكذا، أما الشخص الثالث

كان يقف أمامي... طويل القامة وشاحب الوجه، رغم أن شعرة الطويل يحجب نصف وجه، كانت تظهر ابتسامته المرعبة، وعيناه كانتا تتوهجان بالشهوة والمتعة فيما يفعله... لم أستطِع الحركة، كان رأسي يؤلمني، وفقدت الكثير من الدماء، من تسارع الأحداث عجز لساني عن الاستغاثة... حتى وإن صرخت من سوف يغيثني، وضع إدغار إحدى يديه على عيني، صاح الرجل الرفيع، ثم سمعتُ صوت ارتطام البلطة بالمنضدة بقوة، كانت سريعة لدرجة أن جسدي عجز أن يخبرني أنه فقدَ جزءاً منه... عندما أبعد يديه عن عيني كانت يدي تسيل منها الدماء... وفقدتُ إصبعين من يدي، اتسعت حدقتا عينيّ في ذهول، شعرت أن روحي تزول وسوف أفقد وعيي، لكن ذلك الحقير الرفيع وضع أصابعي المقطوعة في قضيب معدني من النار لوقف النزيف مما جعلني أصرخ بأنفاس متقطعة... أظن أن صرخاتي بثت الرعب في قلوب القادمين للغرفة، ينتظرهم نفس المصير.

كان فقدان أصابعي (الخنصر)، (البنصر) هما رموز الدخول إلى هذا المكان... معتقل (أوشفيتز).

فقدت وعيي من شدة الألم، وعندما استيقظت كنت في غرفة أخرى، وكان الوغد إدغار يقول **30** يوماً في تلك الزنزانة من يستطيع النجاة سوف ينضم للأسرى، في تلك الأثناء كنت ما زلت أعاني من آثار الإغماء ولم أفق

بالكامل، ظننت أني أتوهم وأنه لم يقُل كلمة (أسر)، هل يقصد أن الجيش الألماني من أسرنا... وما الصعوبة في قضاء 30 يوماً في زنزانة صغيرة، صحيح أني أكاد لا أرى موضع قدمي من الظلام، لكن أشعة النور الطفيفة القادمة من فتحة صغير في الباب الحديدي، هونت الأمر كثيراً، كان جسدي يرتعش... استندت إلى حائط الزنزانة بقرب الباب... لأريح جسدي المنهك، حتى قطع هذا الهدوء صوت لطيف قائلاً: «يريدون أن نقتل بعضنا، هؤلاء من الجيش الفرنسي»

استدرت إلى صاحب الصوت... كان في أحد جوانب الغرفة المظلمة لم أنتبه لوجوده... حتى تكلم، صوت شاب في مثل عمري أو أكبر بفارق بسيط، قبل أن أبادله أطراف الحديث، أخبرته بنبرة حادة أن يظهر نفسه أو سوف تكون العواقب وخيمة، وبالفعل اقترب إلى منطقة الضوء، دون أن يتكلم، كانت بشرته شاحبة... وشعره أصفر مشعث، أما عيناه كانتا سوداوين تماماً، لم أرَ شخصاً من قبل يملك صفات للشعب (الأري) وعرقاً آخر، لهذا بادرت بالكلام، من تكون ومن أي عرق أنت؟!

صمت لثوانٍ، ثم غمغم قائلاً: «يمكنك أن تدعوني جيار... أما عرقي، فأنا بشري مثلك»

كين: «ماذا تقصد هل أنت من العرق الآري... لماذا تبدو مختلفاً عنهم ولماذا أنت هنا»؟!

جيار: «أبي من أدنى العرق الأبيض، وأمي من دول الشرق الأوسط... لهذا شكلي مختلف، لا... لست هنا لهذا السبب، من تعابيرك وجهك تظن أنني هنا بسبب كوني مختلفاً وليس من العرق (الآري)، لكن الأمر الآن أخطر بكثير، لسنوات طويلة عانيت مثلك من العرق (الآري)، أما الآن سوف يعاني الجميع... من أحضرك إلى هنا، الجيش الفرنسي بعد الهزيمة، احتلت دول التحالف ألمانيا، وتم تقسيم الدولة بينهم... ونحن الآن في أحد معتقلات الفرنسيين معتقل (أوشفيتز)، مع ذلك لم يختلف الأمر كثيراً».

كين: «بعد كل ما تقول... كيف لم يختلف الأمر... ماذا تقصد!»
جيار: «لسنوات طويلة، وأي عرق آخر مختلف عن مواصفات الحزب النازي، هو عرق أدنى منهم حتى ولو كان أبيض مثلهم، لم تعانِ وحدك من العنصرية والظلم... عانيت مثلك منذ يوم ولادتي... لهذا ظننت أن بانتهاء، الحكم النازي سوف تكون الأمور بخير، اتضح لي أني مخطئ، لم تختلف الدول الأخرى، الفرنسيون أيضاً دولة ظالمة تبغض من هم مثلك، وإبادة منهم الكثير، لهذا الخطر هنا بالنسبة لك تفاقم، أنت هنا معي لسبب واحد، أن ينجو أحدنا بموت الآخر.»

كين: «الآن... أعلم سبب وجودي هنا، لكن ما زلت لم تخبرني عن سبب تواجدك أنت؟»

جيار: «لم تفهم بعد، لست أنا فقط.... بل الآلاف من العرق الآري والغجر وبعض الأشخاص من جنوب أفريقيا، جميعهم يتشابهون في أنهم من ألمانيا، مهما اختلفت ألوان أجسادهم، هنا الجميع يعاقب على جرائم الحرب، التي لم نرتكبها... مثير للسخرية، أننا نعاقب على جرائم ارتكبها عرق يظن أنه أسمى وأنبل البشر، كان يقتل بشراً بيضاً أيضاً، وعندما أتى العقاب، وضعونا في المقدمة لنهلك.»

جيار: «يقدم الطعام هنا ليكفي شخصاً واحداً... ثم تقل الكمية بالتدرج حتى يصبح لا يكفي، وفي النهاية تصبح المواجهة حتمية للنجاة وليبقى شخص واحد.»

كين: «منذ متى وأنت هنا... وكيف تعرف كل تلك المعلومات؟!»

جيار: «أنا هنا منذ 3 أشهر وأراهم دائماً يسحبون جثثاً من كل زنزانة ويذكرون أرقاماً تخطت الآلاف إلى الآن من مختلف الأعراق.»

كين: «لكن البقاء هنا ٣٠ يوماً... كيف بقيت هنا وعلى قيد الحياة كل هذا الفترة؟»

جيار: «هنا كل أمر يحدث بقواعد صارمة وضعها قائد المعتقل وتنفذ بدقة، لابد أن يضم كل غرفة شخصين من عرقين مختلفين، الآري بشكل أساسي والفرد الآخر إما غجري أو أفريقي... ولابد أن يكون الشخصان متقاربين في العمر، حتى تكون الفرص متساوية، لكن حُسم الأمر الآن بتواجدك.»

حين ذكر جيار آخر كلماته بدا على وجهه الحيرة والخوف من المستقبل القريب... وتنبأ أنه سوف يخرج من السجن لكنْ ميتاً، لم يكن لديه أي فرصة من الناحية الجسدية أمامي كان جسده نحيلاً مقارنة بجسدي ووجهة برغم أنه أبيض كان يميل للشحوب وأنه يعاني من النقص الغذاء لهذا، استنتجتُ أن الأمر محسوم، لذا تبسمت وغمغمت قائلاً له: هل تريد قتلي من أجل حياتك؟

جيار: «لا... لكل شخص قيمته في الحياة، كوننا مختلفين... أمر يميزنا لا يحقر من شأننا ذلك نهج أبي وأنا أتبع خطاه»

كين: «ممم... فهمت، أبوك بالتأكيد رجل عظيم... كان هذا أيضاً، نهج أمي وأبي... لهذا دعني أخبرك أن رؤيتك أسرت عيني، لون عينيك وبشرتك... وأن ما زال هناك بشر يؤمنون بالمساواة، والحرية، والاختلاف، لا أستطيع

قتلك... فأنت الدليل الوحيد على أننا يمكننا النجاح، وبإمكان البشر العيش في تواؤم وسلام»

بالرغم من مظهر جيار، ولا يبدو أنه يشكل أي تهديد، كان عليّ تولي زمام الأمور.... وتوعدت له بأني سوف أقتله على الفور... لمجرد تفكيره في الخيانة ولن يشكل مظهره أي فارق بعد خيانته، لكنه ابتسم ابتسامة خافتة قائلاً:

جيار: «ولماذا أخبرك بكل ما أعرف إن نويت أن أخدعك، أعلم أن الثقة تكتسب وسوف أعمل على هذا.»

كين: كنت أفكر في أمور كثيرة، لم يسبق لي التعامل مع أحد خارج قريتي لكن هذا الفتى يبدو مختلفاً لم أعرف هل أثق به أم لا... كنت أريد معرفة المزيد حتى أستطيع أن أتخذ قراري بشكل صائب، وكان الأهم من كل هذا... معرفة ماذا حدث لنساء القرية، دون أن أجعله يشعر بأهميتهم، أو يتعرضون للخطر، ويصبحون أوراقاً يمكن لهؤلاء الجنود استخدامها ضدي.

كين: «إذا كنت تريد أن أثق بك أخبرني بكل ما تعرف، ألمانيا سببت خسائر فادحة... لدول كثيرة، لماذا يبقون علينا هنا... هل يقتلون كل العائلات ويجلبون الرجال هنا للموت؟»

جيار: «حسناً... نتيجة للحروب السابقة، تدمرت بيوت وبنية تحتية للكثير من الدول بل انهارت تماماً... لهذا نحن هنا بشكل مؤقت ويتم ترحيل الرجال للعمل بشكل قسري حتى الموت»

كين: «إذا كان الأمر كما تقول... لِمَ يجبرونا على القتل هنا؟ الكثير من الأيدي العاملة سوف تفيد في أمر البناء، إذا كان ما أمرتني به صحيحاً»

جيار: «هههه... لقد قطعوا أصابعنا، لأن ابن زعيم المعتقل فقدَ إصبعين في تلك الحرب، ومن السخرية أن العرق الآري أيضاً مثلنا بلا قيمة، ويفعلون بهم كل ما نمر به، قد أبدو للجنود أنني من الآري... لكن أنا أبغضهم بشدة، قد لا ينجو سوى النساء هنا، بعضهم في المشفى العسكري هنا والباقي محتجزون في سجن هنا بجانبنا هذا كل ما أعرف».

جلست أفكر فيما العمل، كان الليل طويلاً بغير المعتاد، وللمرة الأولى في حياتي لم أتمنَّ شروق الشمس، بسبب عجزي وقلة حيلتي تجاه أفراد القبيلة ولم أعلم لماذا نافارو فعلت بي كل هذا، كان بإمكاني حمايتهم، لو كنت مستيقظاً. كثير من الأمور كانت مبهمة... حتى أتى الصباح، ولم تصل أنواره إلى تلك الغرف المظلمة، بل علمنا عندما أتى إدغار إلى الغرفة، انعكاس ضوء مصباح بيده، وهو يتفحص وجوهنا... هل قتل أحدنا الآخر أم

لا؟ ودون أن يتكلم ألقى قطعة خبز واحدة، بقوة في اتجاه جيار حتى وصلت أمام أقدامه، ثم ذهب، شعرت أنه يرمي فتيل البداية لكن الغريب أن جيار لم تمس يده الخبز، بل تراجع إلى الخلف قائلاً: نحن تعلمنا لا نأكل قبل ضيوفنا، قالها بفطنة وذكاء لم أعرف أنه يملك من الحكمة ولو قليلاً مظهره كان يوحي لي والحماقة والجبن. صمت قليلاً لأقول له: ونحن تعلمنا لا نأكل قبل أصحاب البيت.

جيار: «إذاً نتقاسمها»
كين: «أنا لست جائعاً يمكنك أكلها بمفردك»
جيار: «سوف أترك لك النصف... سوف تحتاج إليه صدقني»

أعتقد أني أسأت في الحكم عليه، وليس جميع البشر سيئين... مضى الأسبوع الأول... كان حديثنا قليلاً، كلٌ منا يجول بأفكاره فيما تركه خلفه، وفي بداية الأسبوع الثاني بدأت أشعر بالتعب ولا أرى جيداً، لا أعرف ما أصابني. كان الأمر يزداد سوءاً كل يوم، في اليوم الثالث من الأسبوع الثاني، أتى إدغار كالمعتاد، ليلقي قطعة خبز أصغر من السابقة، حاولت القيام... وأخذها أمامه، ليعلم الوغد مدى التعاون بيننا... لكن أصابني الدوار وسقطت على الأرض، أنفاسي أصبحت متسارعة والرؤيا بدأت في التلاشي، قام بفتح الباب للمرة الأولى، ثم أخرج من جيبه شيء وألقاه نحو جيار... لم

أتحقق مما ألقاه، لكنه كان بالتأكيد شيئاً معدنياً فور سقوطه على الأرض أصدر صوتاً صاخباً... ثم أغلق الباب.

كنت أحاول جاهداً ألّا أفقد الوعي... كل ما أتذكره، أن جيار كان يقف بجانب رأسي وبيده سكين، بكل قوتي رفعت يدي اليمنى... وأتشبث بقدم جيار.... لكنه وضع يدي تحت قدمه، ثم جثا على صدري وهو يرفع السكينة»

لم أتذكر أي شيء آخر سوى فقداني للوعي، وعندما استيقظت كنت أشعر بألم شديد بيدي اليسرى، وكانت تكسوها الكثير من لفات القماش، كنت أشعر بإرهاق شديد... ثم انتبهت أن الغرفة مختلفة، وأنّ هناك شخصاً يجلس في نهاية الغرفة، ويقف بجواره الكثير من الجنود... لم أكن أراه بوضوح لكن هيئته بدت مألوفة لي حتى تكلم.

«ثلاثة أشهر فاقد للوعي... ظننت أنك صلبٌ يا فتى الغابة، دعني أخبرك بشيء... قد تبدو ضخماً وقوياً، لكنك من البداية مجرد وجبة خفيفة للفتى جيار، هو كالأفعى.... حاد الذكاء، يقترب من ضحيته، ويتوغل لأفكارها حتى يقتلها بهدوء، كما قتل ٢٣ شخصاً من قبل.... لقد أبقيت على حياتك لسؤال واحد.... ماذا حدث بينكما أنت وجيار ولماذا أنقذ حياتك؟!

كين: «أنت إدغار الحارس»

«أحسنت بالرغم من الظلام لديك تركيز جيد يا فتى الغجر أنا إدغار لكن ليس الحارث أنا قائد معتقل (أوشفيتز)»

ظهر للنور وكانت المرة الثانية لي للتحقق من وجه إدغار... كان لديه شاربان كبيران ونحيفان من الجانبين، وعينان خضراوان تماماً، وشعره أصفر وكان يميل أكثر للحمرة، في المرة الأولى عند قطع أصابعي لم تكن الفرصة تسمح للتحقق ومعرفته جيداً. لكن كيف هو القائد لذا سألته
كين: «أنت القائد كيف؟!»

إدغار: أنت لست هنا للسؤال، أجب على السؤال اللعين ماذا فعلت له؟
كين: استمعت إليه... بالإضافة أني كنت لطيفاً معه من البداية.... وكلٌ منا ظُلم من أشخاص مثلك لهذا كان من المفروض أن نكون... غير مهم لقد غدر بي في النهاية»
إدغار: «هاهاها..... أنت تكذب لقد ألقيت إليه السكينة ليقتلك، لكنه لم يفعلها، بل قام بقطع كف يدك، وجلس يداويك أسبوعين كاملين متظاهراً أنك بخير وتتحدثان وعندما اكتشفنا الأمر أنك فاقدٌ للوعي، أردنا أن نأخذك للحرق مع الموتى، هاجم الحراس وكاد أن يقتل أحدهم، ويصرخ: هو

بخير اتركوه... هل كل هذا فقط بالاستماع إليه، أخبرني بما حدث أو سوف أرسلك إلى من يستمع إليك»

تجمد الوقت للحظات... لقد ذكر قطعَ شيءٍ ما... نظرت ليدي اليسرى، وأزلت قطع القماش، اللعنة!! كان كف يدي اليسرى تم قطعة... صرخت بكل قوة: لماذا.... لماذا فعل هذا.... أنا لم أقم بأذيته!!

إدغار: «لقد قررت موتك منذ رؤيتك للمرة الأولى... أمثالك طفيليات لابد من اقتلاعها من المجتمع.... لكن الوغد جيار أنقذك بقطع يدك، لقد أوقف انتشار العدوى بجسدك، سوف أعرف السر خلفكما أنتما الاثنان وحتى أعرف سوف أرسلك للثكنات السوداء... أنا واثق أنهم هناك سوف يستمتعون..... بما أنك تستمع للجميع.»

****

الفصل السادس

ساحرات الحياة

لطالما تساءلت أي ذنب اقترفت، ما ذنبها في تلك الحروب، هل ندفع نحن بؤسها وموت كل غالٍ لدينا، ولا يجني ثمارها سوى من يقررها، ولماذا يوافق الجنود على ما يجعلنا نفقد أوطاننا كيف لا يفكرون بمن نغزوهم أليسوا هم بشراً مثلنا، بماذا وعدوهم حتى يقتلون ويسلبون ويدمرون أوطان غيرهم، أم.... كل هذا يوافق أهواءهم منذ البداية.

تساؤلات كثيرة حول الحياة ومغزاها الحقيقي، لم أستوعب كم الكراهية المنتشرة في كل بقاع الأرض، فأصبحت لا تصيب أصحاب البشرة السوداء أو البنية فقط، بل تصل لكل فرد من الآري أنفسهم، كنت أستنكر بقاء قومي خلف الغابات متوارين.... حتى علمت حقيقة البشر المؤسفة.

انتابتني الحيرة وأنا أنظر ليدي اليسرى بكيت... لم أستطع كتمان شعور القهر والعجز في الدفاع عن أفراد قبيلتي ظننت أن هدفي هو حمايتهم لكن الآن لا أستطيع حماية نفسي، وفقدت يدي، لثلاثة أسابيع متواصلة لم أخرج من الغرفة الجديدة، بداخل الثكنات السوداء، كان أحد الجنود يأتي

كل يوم يلقي إليّ الطعام من فتحة أحدثوها في سقف الغرفة، يخافون من الموت ولا يتجرأ أحدهم على الدخول بدون إجراءات وقائية، كانت الثكنات مكونة من طابقين، بكل طابق عدد من الغرفة المجاورة، كانت بلا أبواب... وعلى الرغم من هذا لم تحملني قدماي طوال تلك المدة للخارج، كانت هناك رائحة كريهة تشبه الجيف العفن، كنت أختنق منها في البداية وعيناي تدمعان من قوة الرائحة، حتى ألفتها عيناي بصعوبة بالغة.

اليأس وفقدان الأمل والرغبة في الموت... كل تلك المشاعر كانت تتملكني بقوة، مصير عائلات القرية المجهول، هو ما دفعني للوقوف مرة أخرى، مع كل خطوة للأمام... كانت تزداد رائحة المرض والموت واليأس، ثم بدأت أسمع أنيناً للكثير من الأشخاص يصارعون الموت من داخل الغرف المقابلة والمجاورة، لكن الظلام كان يغطي كل الغرف بالكامل، والحل الوحيد هو الدخول لواحدة لمعرفة ما يحدث هنا.

هممتُ لدخول الغرفة المقابلة لي، أوقفني صوت عجوز قائلاً: «هذه أسوأ فكرة... إن دخلت تلك الغرفة لن تخرج مرة أخرى» التفت حولي إلى مصدر الصوت، كان الصمت يسود المكان.. صرخت مخاطباً صاحب الصوت: «من أنت! هل هناك أحد؟ تكلم» انتظرت دقائق بلا إجابة، تصلبت أطرافي

أمام الغرفة... أصابني الهلع وأصبحت أحدث نفسي إنني أفقد عقلي... وأتوهم بأشياء لم تحدث.

«إن كنت تنتظر قدومي إليك فأنت مخطئ... أنا لا أستطيع الحركة تعالَ إليّ هنا دعني أراك لا تخف» لقد قالها صاحب الصوت، من الغرفة الأخيرة، للغرف المقابلة لغرفتي.

لم أكن جباناً أو خائفاً من التقدم لغرفة العجوز.... كنت محطماً، شعرت أني أجوف من الداخل وهناك عبء على صدري، وللمرة الأولى من سنين طويلة منذ نضوجي، أفقد أبي وأمي، تحركت خطوتين للأمام، زاد تنفسي وأصبح يدخل ويأبى الخروج، جثوت على الأرض، ثم صرخت بقوة... وأنا أضرب الأرض بيدي وأبكي على كل ما مررت به...

العجوز: «ابكِ يا فتى... حين لا تستطيع المتابعة أفرغ ما بداخلك، لا يجب عليك الشعور بالخزي... عندما تشعر بالألم أو الوحدة أو الظلم، في الواقع المعاناة هي ما تجعلنا بشراً، لن يسلبونا حق التعبير... نحن لسنا فئراناً للتجارب، واختلافنا لا يحقر منزلتنا، لا يظل المرء قوياً للنهاية لابد من الهزيمة مرة تلو الآخر حتى تشعر بروعة الانتصار، لكن إياك أن تيأس لا تكن مثل..... (كاهلو)»

كلمات العجوز أسكنت قلبي كثيراً... لكن أصبت بالذهول، من معرفته بأمر كاهلو.... تحركت سريعاً في الممر محاطاً بالغرف المظلمة، حيث اعتادت عيناي على الظلام فأصبح بإمكاني الرؤية، كانت أجسادهم لا يمكن وصفها، منهم الطريح أرضاً وعلى جسده بقع خضراء ومبتورة كلتا قدميه... وبعض البقع على جسده في هيئة فقاعات مليئة بالدماء على وشك الانفجار، وهناك غرف أخرى، لم يبق بداخلها سوى العظام، ومنهم من هو أسوأ، مبتورة جميع أجزاء جسده، ومعلق بخطافين من كتفية، ويبدو أنه تم أخذ جميع أعضائه وهو حي، أشحت أنظاري بعيداً حتى وصلت لغرفة العجوز، تقدمت بحذر شديد حيث كان متكئاً في نهاية غرفته المظلمة..

العجوز: «لا تتقدم ابقَ بالخارج لن تخرج حياً إن دخلت، في الواقع كل الغرف هكذا، كلٌّ منا مريض بمرض مختلف لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه يتفشى بالتلامس هذا التشابه الوحيد، نصف الغرف من بداخلها حي لكن تمكن منهم المرض فأصبحوا يتألمون في صمت»

كين: «ماذا يحدث هنا؟ ولماذا أجساد الجميع مبتورة، وهناك أسوأ!»
العجوز: «هذا المكان هو ما تبقى من تجارب الجيش النازي على السجناء، وأصحاب الأعراق المختلفة، أعرف أنك لا تريد أن تستمع إلى معاناة رجل عجوز... لأنك أنت أيضاً تعاني وبداخلك الكثير رغم سنك الصغير، لهذا

أريد عقد صفقة معك، أنا أخبرك ما معنى الوشوم التي تغطي جسدك، وأنت تخبرني المزيد عن علاقتك بـ جيار»

تحدث العجوز بثقة تامة حول جهلي بالوشوم الغريبة على جسدي التي انتقلت إليّ من نافارو.... ومعرفته بأمر كاهلو.... وسؤاله عن جيار بالتحديد! لذا جلست أمام غرفته وقلت له: «أنا لا أعرفك... لكن أنت تعلم أموراً كثيرة أجهلها... من أنت؟»

العجوز: «أنا مثلك غجري لكن أنا من غجر (الكاولية).... كنا نعيش بالشرق الأوسط»
كين: «امممم... إذاً من المفترض لي أن أصدقك؟»
العجوز: «لا... لكن يمكنك أن تصدق عينك»

تحرك العجوز رغم ما يعانيه من ألم واضح وصعوبة في الحركة، أظهر جسده في جزء مضيء من الغرفة، لم أرَ سوى بقايا لإنسان.... كان جسده شديد النحول، ولم أرَ وجهه بوضوح لكن قد يفوق عمره ١٠٠ عام أو يزيد وكانت وشوم الغجر تغطي بدنه.

العجوز: «لم أظهر نفسي إليك حتى تعرف من أنا في الواقع أردت الاقتراب والنظر إلى الوشوم التي تغطي جسدك، وشوم كاهلو»

كين: «لماذا أنت مهتم بالوشوم لهذه الدرجة... ماذا تعرف عن كاهلو؟!»
العجوز: «أخبرني أولاً... هل قابلت كاهلو؟»
كين: «لقد مات منذ زمن بعيد.... كيف أقابله!»
العجوز: «أنت تكذب، وتفهم ماذا أقصد... اسمع أنا لم أتكلم منذ فترة بعيدة، فجميع جيراني مصابون كما ترى، لهذا أريد تذكر الماضي من اجتماع القرية لتناول الطعام والالتفاف حول النيران... والتحدث معك سوف تجعل تلك الذكريات السعيدة، لذا كلٌ منا يقص على الآخر قصته وسوف أساعدك في كل ما تجهله.... إن كان العرض يناسبك.... فأنت مدين لي بإجابة!»
كين: «حسناً... رأيته ولكن بشكل سريع وخاطف ولا أتذكر أي شيء آخر أقسم لك»

وافقت ولم لا؟ هذا العجوز أنقذني من الموت عند دخول الغرفة القابلة لي، ومرة أخرى عند دخول غرفته، كان بإمكانه تركي للموت... لم أتردد في الموافقة، ثم جلست في أدب واعتذرت على أسلوبي الوقح وشكرته على إنقاذي، ثم غمغمت قائلاً: «أرجوك سيدي كنت أتساءل هل بإمكانك البدء يغمرني الفضول لمعرفة حقيقة الوشوم التي على جسدي إن لم يزعجك هذا..»

العجوز: «حسناً... هناك الكثير من الأساطير القديمة حوله، بعضها حقيقي والآخر مجرد قصص خرافية، كاهلو كان الابن الأكبر لزعيم غجر (الكاولية)، رويت قصته في كتب كثيرة... حتى تكون تراثاً ليتعلم منه جميع سحرة الغجر، كونه الابن الأكبر جعله محط الاهتمام، لتعليمه السحر وعلاج المرضى على يد أبرع السحرة، لكنه كان يطمع للمزيد؛ لهذا سافر إلى بلاد مختلفة، ليطلب علم السحر ويتعلم جميع أنواعه، لكنه اختفى وانقطعت رسائله وأخباره لخمسة سنوات متواصلة... ثم عاد بشكل مختلف، تبدلت الوشوم على بدنه بوشوم تشبه السلاسل، وأصبح أقوى من قبل بأضعاف، استطاع هزيمة جميع معلميه بسهولة، كان ملحوظاً للجميع تغير سحره، والقوى الخفية التي تمدها الوشوم إليه... في كل مرة يستخدم سحره أقوى من السابق، تتبدل الوشوم وتصير أكثر انتشاراً.

نتيجة قوته المهولة، أصبح أفضل من يعالج بالسحر وطب الأعشاب، ذاع صيته في البلاد، وكان يأتي إليه الكثير من مختلف البلدان، طلباً للشفاء، حتى أتى يوم وقدم رسول من القصر الملكي، ليطلب من كاهلو بأمر رسمي، أن يذهب لبيت أحد أقارب الملك، ويعالج ابنته المريضة.

إلى هنا كانت الأمور بخير... تغير كل شيء، عندما رأى كاهلو الأخت الصغرى للفتاة المراد علاجها، أحبها من النظرة الأولى حباً قاد الملايين نحو الهلاك، ظل كاهلو طوال مدة علاج الابنة يحاول التودد للأخرى، ويبدو أنها أيضاً أُغرمت به، وبقوته وحديث الجميع عن عظمة ساحر الغجر. وعندما تحركت الأخت الكبرى للمرة الأولى منذ سنين طويلة كانت بها طريحة الفراش، تم الإعداد لحفلة ضخمة على شرف كاهلو، وأخبره أن يتمنى عليه ما يريد، فتحدث بكل ما في قلبه وعشقه للأخت الصغرى.

أظن أن لا حاجة لإخبارك بردة فعلهم... والإهانات التي ألحقوها به، وعندما وقفت الفتاة أمام الجميع وأخبرتهم أنها تحبه، وتريد الزواج منه، استنكر والداها الأمر وقالا إن ساحر الغجر سحر ابنتهما لتحبه، ولم يكتفيا بإهانته، بل أرسلا للملك، أخبراه بما حدث، وبدوره أصدر قراراً لتفرقة غجر الكاولية وإخراجهم من البلاد.

كانت المرة الأولى التي يتصرف بها أحد الغجر ولا يفكر سوى بنفسه، ويترك أمر القبيلة والجميع لمصير مجهول، حين هرب كاهلو مع الفتاة وتزوجها، بحث عنه الجميع في كل مكان، لكن كانت الأفضلية لسحره... استطاع استخدام السحر وأخفى نفسه عن الجميع.

لم نرَه لسنوات طويلة، حتى ظهر هو وزوجته وأطفاله الثلاثة (ابن وفتاتان) عندما علم بمرض والده الشديد، قدم ليعالجه بعد عجز الجميع عن مداواته، ولم تمر سوى أيام قليلة وتعافى بالكامل، عائلة زوجته علمت بظهور كاهلو... أبلغهم طبيب كان يكرهه ويراه أنه أقل منزلة منه، هرب كاهلو وحيداً، حتى لا يرى أطفاله أباهم يعدم أمامهم... لم يفكر للحظة واحدة أن يصيبهم مكروه، لكن قالت عائلتها أنها مدنسة بزواجها من أحد الغجر ولتطهيرها لابد من إحراقها هي وأطفالها. دافعنا عنهم بكل قوتنا ومات الكثير... لكن لم تستطع سوى إنقاذ الفتاة الصغيرة، نجت من الحريق بأعجوبة.

كين: «مهلاً لحظة هل هناك طفلة نجت من أطفال كاهلو!»

العجوز: «أجل... لكن لم يعلم كاهلو أن الصغيرة تمكنت من النجاة، كانت مصابة بشدة ونجاة الطفلة كان أمراً صعباً، لم يخبروه... حتى تشفى الطفلة ويتأكدوا من نجاتها، لم يرِد والده أن يعبث ويعلقه بأمل زائف.

لكن كان كاهلو أصابه اليأس وتمكنت منه الكراهية، وصارت تنمو بداخله حتى أصبحت ظلاماً أفقده صوابه وأطلق وباء قتل الكثير، وأيضاً لم يمت كاهلو بل قُتل... أصاب المرض الكثير من البشر ومات الكثير من

القبيلة، لم يكن أمام والد كاهلو فعل شيء، سوى ما وجب فعله حتى يُنجّي الجميع ويوقف تفشي هذا المرض، لذا قتل ابنه حتى ينهي الأمر، مات كاهلو بين يدي والده لكن لم يتوقف الوباء وحصد أرواح الكثيرين، عند موت كاهلو ترك مذكرات كثيرة، لم يفهمها أحد، كانت رموزاً غريبة لاحظ جدك أن الطفلة الصغيرة ابنة كاهلو نطقت أحد الرموز الغريبة، في الواقع كانت تفهمها على عكس كل وأقوى السحرة، هذا الأمر بث الخوف في قلب جدها، من سحرة الغجر أن يستغلون الطفلة أو أن يصيبها مكروه، وخوف آخر من عائلة والدتها وما يضمرونه من كراهية تجاه الطفلة، لذا عهد أمر الطفلة إلى (نيفا) شقيق كاهلو الأصغر، سافر بها إلى الغرب وتوارى عن الأنظار وتعايش مع غجر الغرب (الرومن).

قبائل الغجر مختلفة في السحر والقوة، لكن سحرة الرومن كان لديهم أمر فريد... امرأة يطلقون عليها روح القبيلة ولابد أن تكون ابنة زعيم القبيلة، وجودها يعني بقاء القبيلة، كانت ليست مركز قوتها لكن هي مركز بقائها، تتميز بسحر فريد يتمركز حول البقاء والقوة؛ بمعنى أنها لا تستخدم قوى السحر لنفسها، بل تمد زعماء القبيلة بالقوة حتى يتمكنوا من القتال لأيام متواصلة دون مشقة... وتستطيع التواصل مع كل سحرة القبيلة، بل والاستحواذ على سحرهم وقوتهم وادخارها حتى تتمكن من زيادة سحر القادة في الحروب، فتكون الجندي الخفي للقبيلة، وعند موت

زعيم القبيلة، تضحي بحياتها ليُنصّب شخص جديد، حيث تحتفظ بكل قوة الزعيم القديم داخل جسدها، لكن لا يمكن للجسم أن يتحمل الكم الهائل من السحر المتغير... لهذا أغلبهم يفقدون حياتهم عند تنصيب زعيم جديد بنفس قوى السابق، يطلقون عليهم (ساحرات الحياة). كان هذا أعظم ما علمته عن تاريخ سحرة الرومن... تضحية فرد من أجل الجميع.»

كين: «ماذا يعني هذا أنا لا أفهم؟!»
العجوز: «إنّ دورك قد حان لتقول قصتك! أليس كذلك؟»
كين: «أجل... كما تحب»

رويت للعجوز كل شيء من بداية البداية، موت أمي ورحيل أبي، وأيضاً كل ما قالته نافارو... وكل ما حدث لي في الأسر... كنت أتكلم والعجوز يستمع باهتمام وحرص، ثم اعتدل في جلسته، ثم غمغم قائلاً: «كنت أتمنى أن ألتقي معها... لقد ماتت، امرأة عظيمة».

كين: «أجل لقد كانت أمي عظيمة»
العجوز: «ما ذكرته عن والدتك إن كان صحيحاً... فهي بالتأكيد أعظم ساحرة، لكن أنا لم أعنِ والدتك، لقد قصدت تلك المرأة نافارو».

كين «ما... ماذا تقصد، نافارو لم تمت... هي بالتأكد هنا في مكان ما مع نساء القبيلة».

العجوز: «اهدأ... اجلس مكانك واستمع لي جيداً، هناك أمر أخفيه عنك من البداية، حتى لا يصيبك الذعر، قبل رحيل طفلة كاهلو ترجمت نصوصاً كثيرة من كتبه، كانت تذكر سحرين يناقض كل منهما الآخر، وعهداً ترجمته بعقد (7 سلاسل) يربط السحرين، كانت الفتاة تبلغ 11 عاماً، لم يفهموا الكثير منها كان الأمر أشبه بالأحجية، أحد السحرين كان يخص كاهلو... أما السحر الآخر كان مبهماً وغير معلوم، فك بعض الرموز من الكتاب، أتاح لأحد السحرة أن تتجسد لديه قوة كاهلو، وبدأ الأمر بوشوم غريبة، لكن عندما تغيرت تلك الوشوم لسلاسل تغطي كامل بدنه، مات في غضون خمسة أيام، وبهذا علم الجميع أنه لا يستطيع أحد استخدام سحر كاهلو سوى شخصٍ من عائلته.

والدتك استخدمت هذا السحر وأنت أيضاً جسدك يتحمله، لا شك أنك من نسل كاهلو، الخبر الجيد أن تلك الوشوم لن تقتلك... أما السيّئ أن عمليات الانتقال لم تكتمل فقد تم نصفها، وهذا سبب اعتقادي أنك لا تستطيع استخدام سحر كاهلو، بناء على ما أخبرتني به نقلت إليك الوشوم نافارو... لا يستطيع أحد حفظ السحر أو نقله سوى ساحرات الحياة،

بالتأكيد كانت إحداهن، أخذت سحر والدتك بعد موتها، وهي على يقين أن ما تفعله سوف يكون ثمنه الموت، آسف أنني من أخبرك بهذا، لقد ضحت تلك المرأة نافارو بحياتها... حتى تكون أنت أقوى وتحمي الجميع.

عجزت شفتاي عن الكلام... تركت العجوز وذهبت إلى غرفتي في هدوء، لم أبكي، أو أصرخ كما أفعل عادة، بل جلست بدون حركة وأنا أتذكر نافارو... وما فعلته من أجلي ومن أجل الجميع دون النظر للمقابل، فكانت أمي دائماً هي مصدر فخر القبيلة مع أن نافارو متوارية عن الأنظار، لكن لم تقل عظمة عنها، أقسمت أنني لن أجعل تضحيتها هباء، وسوف أكون كما شاءت. بعد مرور يومين ذهبت إلى العجوز وأخبرته أني مدين له بقصة، وهي ماذا حدث بيني وبين جيار.

العجوز: «لقد علمت بالفعل... من حديثك لماذا لم يقتلك جيار، برغم كل ما مررت به لم تتغير مثله، ما زلت محتفظاً ببشريتك، كنت أستمع للحراس عن قدوم فتى لطيف لا تفارق الابتسامة شفتيه، يدعى جيار، تم وضعه مع أحد الغجر؛ لضعف جسده وقوته، كان يعذبه كل يوم ويهينه بأبشع الطرق لمدة ٢٠ يوماً، ثم أتى إدغار وأمر الجنود بتكبيل الغجري أمام جيار (كان جسده ووجه مليئاً بالكدمات) وضع سكينة بيده... فأصبح الغجري يتوسل ألا يقتله وأنه لديه أولاد مثله، ٨٠ طعنة سددها جيار

لجسده وأخرج قلبه أمام الجميع والتهم أجزاء منه، وصار بعد هذا الأمر وحش إدغار المطيع، وأصبح يقتل مرة تلو الأخرى، حتى أتيتَ أنت. أعلم أنه اليوم هو أسعد أيام حياتي... لأنني أتحدث مع أحد أفراد عائلتي الناجين.

كين: «ماذا... تقصد بأحد أفراد عائلتك؟!»

العجوز: «كتب كاهلو كانت تحتوي على الكثير من التعاويذ القوية، وأنا أفنيت عمري في دراستها، حتى غيرت تعويذة واحدة مجرى حياتي بالكامل، لم أكن أعرف أنه مقدر لي أن أقابلك يا صغيري... أريدك ألّا تيأس... فلا يأتي النور إلا بعد ظلام، ولا تثق في كاهلو مهما قال لك في أحلامك... هل تفهم؟»

كين: «أنت تهذي... ماذا تقول... من أنت أيها العجوز؟»

العجوز: يمكنك أن تدعوني (نيفا)

****

الفصل السابع

هدايا الموت

سلسلة من الصدمات أولها معرفة عظمة نافارو الحقيقية والتضحيات التي بذلتها لبقاء القبيلة ومساندتها لأمي دائماً، حزنت على موتها لم أبكِ على فراق أمي كنت صغيراً، لكن موت نافارو جعلني أشعر أنني يتيم بالفعل، فلا نعرف قيمة ما نملكه سوى بفقدانه، ونتمنى أن يعود ويكون الأوان قد فات، تمنيت أن أقضي المزيد من الوقت مع نافارو وأشكرها على كل شيء.

رغم حزني كان لابد من الالتفات لأمر عظيم، ظهور (نيفا) أحد أسلافي القدامى، كان هناك الكثير من الأسئلة تجول بخاطري، كيف بقي على قيد الحياة... هل هو خالِد؟ وهل هذا هو سبب نجاته من المرض بخلاف كل من هنا، وماذا فعل كل تلك السنوات والأهم كيف قدم إلى هنا؟

ذهبت وجلست أمام غرفة نيفا وغمرته بالكثير من الأسئلة مُتلهفاً للإجابة.

نيفا: « تريث يا فتى سوف أخبرك بما تريد، انتقلت أنا وابنة كاهلو الصغيرة الناجية للعيش مع غجر الغرب، اندمجنا معهم وتزوجت منهم، كان لي 5 أبناء صبيان و3 فتيات، في تلك الأثناء قادني الشغف لدراسة النسخة المتبقية معي، حيث كانتا نسختين هما أقوى الكتب الخاصة بأخي واحدة بقيت معي والأخرى مع أبي، ترجمت لي ابنة أخي الكثير من الأمور، لم أفهم سوى تعويذة واحدة، وكانت تضمن في كلامها عن الصحة، القوة، والحظ الجيد، لم أعرف أن مضمونها أعمق من مجرد الكلمات المذكورة، توالت الأيام وكبرت ابنة أخي وتزوجت وانتقلت للعيش في قبيلة أخرى، كانت الصدمة الأولى فراق زوجتي كان الأمر صعباً بالنسبة لي في البداية، لكن لابد من مواجهة الحياة وتابعت العيش... حتى بلغت من العمر 180 عام وقد كبر أبنائي، أصغرهم كان 65 عاماً، أصاب أبنائي الموت واحداً تلو الآخر... تمزق قلبي على فقدانهم، أن تألف وجود من تحبهم بجوارك، ثم تفقدهم في ثوانٍ معدودة... فيصبح لا وجود لهم، أشبه بقتلك ألف مرة بطرق مختلفة... أصابني الحزن ولازمت المنزل، لا أخرج منه إلا للشدائد، علمت جميع القبائل الأخرى بحالي، كانوا يأتون أفواجاً متسائلين عن سر شبابي الدائم وعمري الطويل، لم أستطع البقاء ورؤية أحفادي موتى أيضاً تركت القبيلة وذهبت حتى أطوف العالم، ذهبت إلى مصر، كان بلداً جميلاً يسود على أهله الطيبة والصلاح ورأيت عجائب بنيان ضخم كانت أعظم ما رأيت يطلقون عليها (الأهرامات)، وكانت المعجزة أنهم قاموا ببناء تلك

العجائب دون استخدام السحر أو عمالقة أو حتى جيش من الجن، وتساءلت لماذا هؤلاء لا يقومون بغزو العالم يملكون من الإرادة الكثير، لفعل أي شيء لكن بالتأكيد كانوا بشراً لا يعرفون كيف يقومون بأذية بشرٍ مثلهم... قضيت بها 40 عاماً، وددت لو بقيت طويلاً لكن كان لابد من الرحيل. حتى لا يعلموا سري لهذا رحلت لبلد آخر.

ذهبت لبلاد كان يقصدها كثيرٌ من المصريين (فلسطين) يقولون هذا البلد يحتوي على ثاني بيت يعتز به المسلمون (المسجد الأقصى) في القدس العاصمة المحببة للجميع هناك، أغرمت بفتاة وبرؤيتها البراقة، كانت سر حبي في الحياة مرة أخرى ورويت لها ما أخفي عن الجميع، قالت إن الله يختار لعباده ما يشاء ولم يخلق الله الناس عبثاً، لابد أن يكون لكل شخص هدف في حياته، وأني ما زلت لم أعرف بعد... تزوجتها فكانت حسنة الخلق وجميلة الطباع لم أتذكر يوماً أنها أغضبتني، عشت حياة جميلة بوجود كل هؤلاء الناس الرائعين، حتى بلغت بتلك البلاد ٥٠ عاماً، لم أرزق منها بأطفال لكن كانت هي أمي، وحبيبتي وصديقتي، أقسم أنها كانت لي كل شيء، بموتها غادرت القدس للأبد، رغم روعة أهلها والسلام بين أفراد شعبها، كان فقدانها أمراً صعبٌ تجاوزه، كنت كالطفل الصغير حين فقد أمه وصار يتخبط في البلاد بحثاً عنها، تمنيت الموت، أعتقد أنه أفضل من فراق الجميع، كنت حياً، لكن بلا روح بعد فقدانها، حتى وصلت إلى قوم كانت

البحار ديارهم، ويقطنون على تلك السفن... يطوفون في البلد بلا مستقر لهم.

تعلمت منهم الصيد وأصبحت بحاراً أجول البلاد ظننت أن هذا هدفي، لكن (ربي) رسم لي طريقاً آخر، في أحد الرحلات تحطمت السفينة ومات الجميع ونجوت أنا على أحد الشواطئ ظننت أنها النهاية، لكن وجدني قوم للوهلة الأولى تُخيل لي أن أجسادهم باللون الأحمر، ويضعون على رؤوسهم بعض الريش، الذي يختلف من شخص لآخر، حسب ترتيب كل شخص في القبيلة، عالجوا جراحي ومكثت معهم لوقت طويل، تعلمت منهم الكثير كانوا يقدرون المرأة كثيراً.

وكان أغلبهم محاربين أقوياء وأيضاً فرسان رائعين، في المرة الأولى لي عند ركوب الخيل كان شعوراً لم أعهد مثله... الحرية مطلقة والهواء يلفح وجهك ويدخل إلى صدرك ليشعرك بقيمة الحياة، تزوجت منهم، ليس بدافع الحب ولكن في إحدى مهام الصيد تعرضت لحادثٍ كدت أموت من فوق جرف... في آخر المنحدر لم آخذ حذري جيداً، ولكن أنقذني أحدهم ولكن كلفه الأمر حياته، ونجوت أنا، لم أكن أعرف أنه أبٌ ولديه أسرة وابن صغير، تزوجتها حتى أعول عائلته وأكون لهم عوناً، مع مرور السنوات كانت المودة بيننا والمحبة تزداد ورزقت منها بطفلة جميلة، وكانت حياة هادئة رغم بساطتها كانت رائعة، حتى قدمت مجموعة من السفن محملة

برجال بيض لم أثق بهم ومظهرهم الخادع، أعين زرقاء يتخللها الغدر، لكن وثق بهم الجميع، لقد كانوا مسالمين ولا يريدون سوى الخير.

ما زلت أذكر تاريخ (1835-1842) كانت مأساة سوف يظل يلاحق عارها تلك الوحوش، لقد شاهدت إبادة الهنود الحمر من بلادهم، مستعمر أجنبي أتى يسلبك أرضك، أراد الجميع أن يحافظوا على وطنهم، لهذا تحضرنا للقتال، خيولٌ تتساقط ورجال تسيل دماؤهم على تلك الخضرة... كانت جنة والآن أصبحت حمراء ليس بلون أصحابها بل بدمائهم، لم تكن أسلحتنا مثلهم فلم تكن حرباً بل إبادة شاملة، بلغ الأمر بهم أنهم وضعوا مبالغ مالية على قتل كل فرد منا فأصبح هناك ثمن للموت، روحك وحياتك تقارن ببعض المال وليس هذا فقط، كان يُقام أسواق يسلخون فيها جلودنا أحياء، وكانوا يجتمعون ليتفاخر كلٌ منهم من قتل أعداد أكثر، لم يكن لنا أحد ينصرنا بل تغاضى العالم عن هذا كما يفعل الآن ويفعل دائماً.

لم يكونوا سوى قومٍ مسالمين، وعندما دافعوا عن أوطانهم ونسائهم قالوا لهم أنتم وحوش ونحن أتينا لكي نبني حضارة وتاريخ، قتلة... وأوغاد... كاذبون... لقد أبادوا الجميع بدمٍ باردٍ، فقدنا الكثير. لهذا اجتمع زعماء الهنود لعقد هدنة يريدون السلام من المستعمر القاتل، لا يريدون سوى العيش بسلام، ويطمحون أن تتحقق الهدنة.

في الأيام التالية قدم إلينا زعماؤهم محملين بالهدايا وأرسلوا إلينا (بطاطين) باسم الإنسانية، ولكن أين الانسانية في قتل وإبادة الأطفال والنساء والرجال العزل بدون سلاح! لقد كانت محملة بأمراض (الجدري والدفتيريا)، أباد الأمر 80٪ من تعدادنا، كانوا يتساقطون موتى... نساء تشاهد أطفالها تتساقط أمام أعينها. ولا تعلم أو تعرف كيف تدفع عنهم المرض، في ذلك الوقت كنت لا أزال قوياً ولم يؤثر بي المرض، كانت لي ابنة تسمى (آليا) كانت طفلة لا تتجاوز 8 سنوات ماتت بين أحضان زوجتي مصابتين بالمرض ولم أستطع إنقاذهما، لقد توسلت إليّ زوجتي حتى أنهي حياتهما، قتلتهما بيدي حتى ينتهي الألم... أنا قتلت طفلتي الصغيرة، التي تمنيت كل يوم أن أشاهدها تكبر وتنعم بالسعادة، وأن أحميها، لن أنسى ما حييت نظرتها لي وهي تتساءل... وتقول: لماذا يا أبي دمائي تسيل بين يديك؟ قالت لي: أبي هل أنا أخطأت في شيء؟ لقد قالت هذا لي، لم يكن لدي جواب سوى البكاء بكيت كثيراً ولعنت الحياة وأنني كنت ما زلت بها، ظللت بجانب جثمانيهما أياماً أبكي كنت لا أريد دفنهما، في النهاية دفنتهما ودفنت ما تبقى من إنسانيتي معهما.

أقسمت على الانتقام... ذهبت إلى بلادهم وقتلت الكثير من جنودهم وزعمائهم، حتى اكتشفت مكان أحد القادة العسكريين الذين اقترحوا فكرة إرسال الأمراض إلينا، تواريت عن الأنظار وانتظرت حتى أتى الظلام،

ودخلت إلى منزله، كان غير متواجدٍ، ولا يوجد بالداخل سوى الأطفال... قمت بتكبيل أيديهم وجلست بجانبهم حتى أتى من الخارج، ويراني وأنا أحمل سكيناً فوق رقابهم، القائد القوي، المجيد، المُهاب من الجميع، صاحب القلب الدموي... انهار وجثا على الأرض يعلن توسلاته، حتى لا أنحر رقابهم، لكني أردت فعلها رغبة في الانتقام، حتى أشاهده يعاني، كما عانيت أنا وغيري، بكاء الأطفال... وانتفاض جسد ابنته الصغيرة من الخوف، وهي تنظر إلي.. لم أستطع قتلها، تركتهم وهرولت مسرعاً للخارج.»

كين: «أنت لم تخطئ... لقد فعلت الصواب»

نيفا: «هاهاها... هل تظن هذا؟»

كين: «ماذا تقصد؟!»

نيفا: «بعد بضعة أيام من الحادث، انتشرت الأخبار وكان يتحدث الجميع أن هناك مُجرماً من الهنود اقتحم بيت أحد كبار المسؤولين، وقتل عدداً من الحراس، وحاولت السلطات التفاوض معه لكن طبيعته الوحشية، تسيطر عليها، قتل خمسة أشخاص من المدينين أيضاً أثناء هروبه، وأنّ هناك مبلغاً ضخماً من المال مقابل من يرشد على مكانه.»

كين: «لقد كذبوا أنت لم تفعل!»

نيفا: «أجل كما يفعلون دائماً... فلا يغرنك بشرتهم البيضاء وعيونهم الزرقاء وأنهم ودودون، سيظل يلاحقهم عار ما فعلوا إلى أن تفنى الأرض،

لن يمحو الزمان جرائمهم، لقد عاصرت الكثير من الأزمنة لم يتغير شيء، القوي يقتل الضعيف بدون شفقة، ثم يسطر التاريخ حسب أهوائهم».

بعد رحلة... استغرقت 500 عام، وددت الرجوع والبحث على أي فرد من نسلي، لكن أسرني الجنودُ النازيون، وبقيت هنا لسنوات عديدة، هذا السجن ليس مكاناً للعنصرية الجنسية فقط، بل شمل كل صاحب رأي أو فكر داخل الدولة، أو حتى ديانة مختلفة... لا أريدك أن تصبح مثلي... لا تخف من المواجهة أو الهزيمة... ينبغي لك الخوف، إن قررت الاستسلام. استمع إليّ جيداً، أنا لا أعرف مصيرك مع تلك الوشوم، لهذا أريدك أن تبحث عن الكتابين هما الحل الوحيد لنجاتك بالتأكيد سوف تفهم ما بداخلهم فأنت أيضاً من نسل كاهلو... حينها سوف تستطيع إبطال تلك اللعنة، أريدك...

كين: «ما- ماذا! توقف، ماذا تقصد! عن أي لعنة تتحدث، هل أنا خالِد أيضاً؟!»

نيفا: «تباً! أنت أحمق، بالتأكيد لا، إن كنت خالِداً كان بإمكانك الاحتفاظ بيدك، أنا أقصد أن تعيش حياتك وتستمتع بكل لحظة بها دون خوف، حتى وإن كان هناك لحظات من الألم... ضعها في ذاكرتك، لتعرف أهمية

اللحظات السعيدة، وتستغلها جيداً، أنا أثق أن بإمكانك فعل الكثير... آمن بنفسك فالجميع يعتمد عليك، ففي النهاية أنت قائدهم».

انتهى نيفا من إهانتي وتحفيزي في الوقت ذاته، وقد كان الصباح أوشك على الطلوع، لهذا ذهبت إلى غرفتي أنتظر قدوم الجندي كالمعتاد لجلب الطعام.. لكنه عندما أتى تحدث بلهجة حادة وأمرني بالخروج، وأن اتجه للباب الرئيس للثكنات السوداء، حين وصلت إليه... أسند وجهي للحائط وكبل يدي وهو يبتسم بخبث، قائلاً: «تلك السلاسل صنعت خصيصاً لك يا صاحب اليد الواحدة»، لقد كان وغداً أحمقَ... لكنني لم أكترث له... تجمدت أوصالي من هول رؤيتهم للمرة الأولى... والقيود حول أعناقهم وأخرى تلتف حول أرجلهم، ثيابهم الممزقة وإظهارها لكم هائل من الكدمات الدامية التي تغطي أجسادهم... في تلك اللحظة لمعت عيناي وضحكت ساخراً لما يحدث، شعورهم بالعجز وعدم قدرتهم للدفاع عن أنفسهم (الآري)، ضد (الفرنسيين).

مر زمن طويل منذ أن شعرت بالرضا... أردت أن تستمر تلك اللحظة للأبد، أفسدها ذلك الجندي القبيح ودفعني للتحرك... حتى وصل بي أمام إدغار، كان يتناول الفطور بشراهة ويجلس أمامه أحد الضباط... ويبدو أن رؤيتي أزعجته، رفع أهدابه لينظر إليّ بغضب واشمئزاز... وألقى الطعام من يده، ثم جلس باستقامة وغمغم قائلاً:

إدغار: «لمَ ترفض الموت أيها الحقير؟ أنا أبغض رؤيتك وأريد نهايتك في القريب العاجل... لقد مات من هو أفضل منك، إن لم يقتلك جيار ولم تقتلك الثكنات السوداء... سوف تموت في معسكر الأسرى، وهذا وعد أيها الوغد المجنون كنت أعتقد أنك قوي وتمكنت من تغيير جيار... لكن اتضح أنك مجرد فتى فقد صوابه، لقد شاهدتك وأنت تجلس أمام الغرفة الفارغة وتتحدث مع نفسك... أمرٌ مخزٍ... خذوه إلى مهجعه في معسكر الأسرى».

توقف عقلي عن الاستجابة والإدراك... كنت أسير بجوار الضابط، بعد أن أمره إدغار بتولي أمر نقلي، لكن تفكيري كان مشتتاً، هل يخدعني أم أني حقاً أفقد صوابي؟ لهذا نظرت إليه وأنا أتوسل للإجابة هل أنا حقاً جُننت أم يخدعني!

الضابط: «من المفترض ألّا أتحدث معك... لكن نعم الثكنات السوداء فارغة بالكامل، تم إخلاؤها من الجثث منذ وقت طويل... وأثناء مراقبتك وأنت تجلس أمام الغرفة الأخيرة، وتروي كل ما حدث لك، تمكنا من معرفة كل شيء، أنا آسف حقاً على فقدانك لعائلتك، وعلى معاناتك... قد لا أحب تصرفات إدغار... لكن لن أستطيع مساعدتك سوى أن أخبرك... أنه ينبغي لك أن تكون قوياً، حتى تنجو في سجن الأسرى، لأن الأمور على وشك التحول».

الفصل الثامن

نسر الدم

سواء كانت الحياه جيدة أم قبيحة لا يأتي خلفها سوى الموت، لذا لن أستسلم ما دمت حياً، رددت تلك الكلمات وأنا أقف لأقاتل مرة أخرى... وأنظر إلى خصمي وأنطلق نحوه بكل قوتي، ثلاث لكمات لوجهه كانت كافية لسقوطي مرة ثانية، بسبب جهلي الواضح بفنون القتال... لكني تعلمت الصيد، وحتى وإن كانت الفريسة قوية وعظيمة لابد من وقوعها في خطأ، يكون الأول والأخير، وغرور خصمي هو خطؤه، كنت مستلقياً على الأرض وتنساب الدماء من فمي، وهو في أحد زوايا الحلبة يلوح للجميع بعظمة وغرور... حيث إنني لم أتمكن من إصابته بلكمة واحدة إلى الآن، تذكرت ما فعلته بالغزالة على حين غرة، فانطلقت نحوه بسرعة شديدة، ووضعت ذراعي الأيسر حول رقبته، ثم طوقتها بذراعي اليمنى حتى أتمكن من السيطرة الكاملة، لكنه انحنى بظهره للأمام... ليرفع جسدي من على الأرض، ثم ألقى بنفسة في الهواء للخلف... ارتطم جسدي بالأرض بقوة... رغم هذا كنت ما زلت على ظهره وأعتصر رقبته، وتمكنت من وضع قدمي حول بطنه في شكل عقدة، وأنا أصرخ قائلاً: «استسلم أو سوف أقتلك»،

بدأت أنفاسه في التباطؤ، وجحظت عيناه للخارج قليلاً... والدماء تخرج من أنفه وفمه... كان كلٌ منا يصرخ من ذلك الوضع المزري... مرت ثوانٍ معدودة، حتى أعلن استسلامه.

صاح أحد الحراس وأعلن أن فوزي هو نصر آخر حققته فرقة الغجر، لقد كان الأمر مختلفاً كما أنبأني الضابط.

سجن الأسرى كان يحتوي على مزيج من الألمان ونحن الغجر وبعض الرجال السود من أفريقيا، يتكون من مجموعة من الثكنات المتلاصقة في منتصف المعتقل، وفي الأمام يقع ثكنات الاستقبال، وفي آخر المعتقل يقع سجن منفصل للنساء، تم نقلي إلى إحدى الثكنات... التي كانت تحتوي على 30 شخصاً، نصفهم من الغجر والباقي من الآري، وكان بينهم جيار... عند دخولي إليها ظللت واقفاً للحظات، وأتأمل كل ما بها، فلم تحتوِ الغرفة على أسِرّة... بل بعض الأقمشة في كل جانب، وكان يوجد خط فاصل في المنتصف، وضعوه ليعرف كلا الطرفين حدوده ولا يتعداها، لكني تخطيته وذهبت مباشرة إلى جيار، ثم غمغمت قائلاً له: «لم أطلب منك إنقاذي، كانت ساعتي قد حانت، وأنت بدون وجه حق انتزعتها مني، سوف أجعل كل لحظة من حياتك القادمة ألماً وتعاسة، وبعد ذلك سوف أقتلك... هذا وعد»، انتهيت من حديثي واستدرت للذهاب حيث يمكث قومي، لكن

أوقفني رد جيار: «أنا أفهم... بما تشعر، لكن كل ما أردت هو إنقاذك وصداقتك، إن أردت قتلي فأنا لا أمانع... أنا آسف أنني لم أستطع إنقاذ يدك، ولو كان الموت هو ما تريده يسعدني أن أحقق لك ما تتمنى... لأنك صديقي»

رغم أن وقوع كلماته على أذني جعلتني أستشيط غضباً، لكني لم ألتفت إليه... تقدمت نحو قومي، بينما كانت نظرات الجميع تحاوطني، ومن بينهم (أرداف) قائد الألمان في الغرفة، وفي السابق أحد القادة العسكريين الماهرين في الحرب، كان عمره يقارب ال٣٤ عاماً... رغم تقلده لمناصب كبيرة، لم يكن مثل قومة يسب ويصيح استنكاراً بما فعلته مع جيار، لم يتكلم بل اكتفى بالنظر لقومه، وهو قادم نحوي فصمتوا جميعاً.
وقف أمامي... لم أرفع عيني للنظر إليه كنا متقاربين في الطول... رغم تفوقه الملحوظ، وكان مميزاً بأعين خضراء ووجه بشوش عن الآخرين... ابتسم ابتسامة خافتة وتكلم بود قائلاً: «أنا أعتذر لك بالنيابة عنهم، لم يقصد أي منهم أن يسيء إليك... كما أن هذا الخط لم يوضع للتفضيل بين الأعراق، فنحن جميعاً أبناء وطن واحد، ولكن أنا من وضعته لتجنب النزاعات والقتال، هناك قتالات أخرى لابد لنا ولكم من الاستعداد إليها، تبدو لي أنك ذكي وتتفهم مجرى الأمور هنا»

لم تفارق الابتسامة وجهه الأبيض المشرق، وكان يتحدث بأسلوبٍ مهذبٍ وراقٍ، حينها لم أعلم هل هو صادق أم أنها خدعة منمقة كما أخبرني (نيفا) عنهم وعن شرورهم، كنت مشوشاً فلم أكن واثقاً من وجود (نيفا) أو من حديثه معه، بعدما علمت أن الغرفة كانت فارغة، لكن كان هناك أمر واحد واقعي... وهي أن الثقة بأحدهم كلفتني كف يدي اليسرى، وأقسمت أن هذا الأمر لن يتكرر.

تركته وذهبت إلى مكان قومي ولم أجِبه على ما قال كانوا فرحين بما رأوا وأني مثلهم أبغض هؤلاء القوم لما سببوه لنا من معاناة وألم وقال لي حينها (تاجرو): صبراً يا فتى سوف تنال منهم كل ما تريد هذا هو الأساس هنا في الحلبة سوف تسحق منهم ما تشاء... فلا ينجو هنا سوى القوي في القتال ولا فرق بين الغجر والآري، هنا الجميع يُقتل.

لقد كان زعيم الغجر هو (تاجرو)، وأعتقد أنه هو السبب الأساسيّ لعدم تجاوز أي من العرق الآخر الخط الفاصل. كانت عينه اليمنى ممسوحة ويغطيها بقطعة سوداء من القماش... والأخرى كان لونها بني غامق، لديه شارب ضخم، كثيف اللحية، وكان صوته غليظاً... من النظرة الأولى يبدو كالموت إذا عبثت معه، برغم هذا كان لطيفاً في الحديث معي وكان الجميع

يرحب بتواجدي، ويُعرف كل شخص بنفسه ومن أي قبيلة ينتمي كنوع من كسر جمود أول لقاء بيننا، كان الأمر أشبه بالتواجد في وسط العائلة.

عندما انتهى آخر فرد من تقديم نفسه... أشار تاجرو إليّ بأنْ أدنو إليه... ثم غمغم قائلاً: «أنت كين... الفتى القادم من الغابات السوداء، لقد علِم الجميع بأمرك، أنا سعيد أنك نجوت، والآن، أنصت إليّ جيداً... هنا لن تحيا سوى بالموت، بمعنى أن حياتك تقابل حياة أخرى، وهذا ليس لمرة واحدة مثل سجن الاستقبال... بل يتم إقامة قتالات بشكل منتظم كل أسبوع، بالترتيب بين الثكنات الخمسة للأسرى، يشاهدها الجميع، ولا تنتهي سوى بأمرين... أولهما أن تقتل خصمك في الحلبة، والثاني أن يستسلم... وحينها يتم نقله لمكان آخر، حتى الآن لم نعرف مصير من استسلموا، ولم نرَهم مرة أخرى، ولكن لا يتم هذا إلا بعد عفو من الخصم، رغم أنه يكون قتالاً دموياً وينتهي بالموت لكنه ممتع... فأنت لا تقاتل أبناء عرقك. بل جميعنا نقاتل الجنس المختار كما يلقبون أنفسهم، لقد فقدت عيني في إحدى القتالات... لكنني سحقت 56 رجلاً منهم في المقابل، وأطمح في المزيد من هؤلاء الأوغاد، لا أريدك أن تسمح لأحد منهم بالاستسلام... فكر جيداً، هل خصمك سوف يعفو عنك أم لا... تخلص من مثاليتك الزائفة وافعل مثلهم، أو سوف تكون لقمة سهلة المنال للجميع، هل تفهم؟»

تحول حديث تاجرو من اللين للزجر والتوبيخ بشأن جيار وتلميحه أنه كان ينبغي لي أن أقتله في بداية الأمر... نظراته ليدي المقطوعة كانت تحوي الكثير، وفي الحقيقة لم أحبذ التطرق لهذا الأمر الآن... لهذا تصرفت بدهاء وسألته عن أمور أجهلها لعله يبعد أنظاره عن يدي.

كين: «أنا أفهم ماذا تعني... لكنني لم أفهم ماذا تقصد بعفو من الخصم... لماذا أعفو عنه بعد الهزيمة؟ وأيضاً من فرض علينا تلك القتالات؟»

تاجرو: «من فرض علينا قانون العفو... هو نفسه من فرض القتال، إن تمكنت من إجبار خصمك على الاستسلام، يحق لك إما أن تعفو عنه وتتركه يُنقل لمكان آخر، أو أن تقتله أنت في الحلبة»

كين: «ماذا... هذا جنون!!»

تاجرو: «أنت محق... إدغار شخص بلا قلب وفقد صوابه منذ وقت طويل، هناك الكثير من الروايات تدور حول جنونه، قيل إنه كان له ابن شارك في الحرب العالمية الأولى وقُتل بها، وحينها كان هو من أحد قادة الجيش آنذاك، تخلى عن منصبه بعد الفوز في الحرب، حتى يستطيع أن يكون قائداً لهذا المعتقل ويحقق انتقامه... لهذا يكرهك بشكل مبالغ فأنت تذكره بطفله المقتول»

في تلك اللحظة... قطبت حاجبي... وانكشفت أسناني بسبب فمي المفتوح ذهولاً للكراهية التي نشأت بيني وبين إدغار، مع العلم أني لم أره

من قبل ولم أقُم بأذيته، ضحك تاجرو بسخرية من رؤيتي هكذا وأراد أن يخفف العبء عني قائلاً: «لا تقلق لست وحدك هو يكرهنا جميعاً بشكل خاص، لقد شارك في حملات إبادة للغجر وأعراق أخرى... داخل فرنسا... هو أو غيره قتلة بلا رحمة... سوف أخبرك بما هو أفظع، قطع إصبعين من يد كل فرد... لأنه عندما عادت جثة ابنه، كان قد فقد هذين الإصبعين في الحرب، لهذا فعلها معنا جميعاً».

كين: «لم... لماذا لا نقاوم هذا الظلم؟!»

تاجرو: «إدغار شديد الذكاء... فلم ينجح أحد من الهروب، وكل من حاول لاقى حتفه، بالإضافة أنه هو من قام ببناء سجن النساء هنا... فكل شخص هنا نساء قبيلته أو عائلته مثل نساء الألمان في الجانب الآخر، كوسيلة للضغط، ولن يتوانى لحظة واحدة عن قتلهم جميعاً، إن خالف أحد أمره أو حاول الهروب لهذا نقاتل، ونفعل ما يريد وأنصحك بالمثل لأجل قبيلتك.

انتهى النقاش، مع غروب الشمس... بمزيج من اليأس والأمل... والفرحة بتواجد نساء القبيلة هنا وأنهم بخير، استلقوا على الأرض وتهيأ الجميع ولم تمر سوى دقائق، وغطوا في النوم... بالرغم من أن القتال يوم واحد من كل أسبوع، كان الباقي للعمل في تكسير الصخور وأعمال البناء في مناطق معينة في المعتقل حسب توجيهات إدغار، لم يبق مستيقظاً سوى تاجرو...

للحراسة أثناء النوم، رغم أنه القائد كان يطبق ما يقوله بفعله قبل أن يأمرهم به، وله نوبة للحراسة مثل الجميع، وأظن أن هذا الأمر كان من حظي السعيد لتوطيد علاقتي معه وأيضاً لمعرفة أمر هام... لم أستطع التكلم معه أمام الجميع... ذهبت وجلست بجانبه دون أن تنبس شفتاي بكلمة... حتى بادر هو بأطراف الحديث قائلاً: «هذه نوبتي في الحراسة... من المفترض لك أن تنام، وتنال قسطاً من الراحة، سوف تحتاج إليها».

كين: «أنا أعتذر عن إزعاجك... لكن، أممم... هناك أمر هام بشأن الوشوم التي تعتلي جسدك»

تاجرو: «وما شأنها؟!»

كين: «تلك الوشوم تماثل... الوشوم التي كانت تغطي جسد أبي، أنا أتذكرها جيداً»

تاجرو: «فهمت... لم يخبرك بارو أنّ لديه شقيقاً!»

كين: «ماذا... شقيق! أنت شقيق أبي؟»

تاجرو: «اهدأ... لم نُولد من رحم أم واحدة ولم يكن أبونا واحداً، ولكن كنا سوياً بما يقارب **25** عاماً، ترعرعنا معاً، أيتاماً... لم تكن لدي عائلة، وهو أيضاً فقد عائلته في حريق ما، فأصبحنا عائلة... نمكث معاً في أي مكان ونفعل أي شيء حتى نستطيع توفير قوت يومنا، أنت لا تستطيع إخفاء تعابير وجهك، لقد انتبهت إليك من البداية، بأنك تميز هذه

الوشوم... لكن أحببت أن تبدأ أنت بالحديث حتى لا أذكرك بأمور تريد أن تنساها»

كين: «لقد أخبرتني نافارو بأمرك... وأن أبي أنقذك عند إصابتك في قدمك أثناء الهجوم على القرية»

تاجرو: «هي محقة... لقد كان وما زال أبوك رجلاً عظيماً... لم نتفرق أبداً، إلا عندما قابل والدتك وأحبها وأراد أن يكون بجوارها، لقد أخبرته حينها أنه مهما كان اختياره سوف يظل أخي وأنا أحبه وأتمنى له السعادة، لقد علمت من أنت بسبب أننا نسترق السمع لحديث الجنود، وأخبرت الجميع أنك ابن أخي لهذا كان ترحيبهم حاراً بك»

اطمَأنَ قلبي وملأته السكينة، بحديث تاجرو بأني الآن أصبحت في كنفه، وسوف يفعل كل اللازم لسلامتي. في تلك الأثناء كان يقتلني الفضول كيف وصل تاجرو إلى هنا، فسألته متعجباً: لم تذكر نافارو لي أمر رحيلك!

تاجرو: «أردت البقاء... لكن كان هناك عهد لابد من الالتزام به، عندما قامت القوات الألمانية بأسر النساء في مركز الشرطة، انضم إلينا رجال القرى الأخرى القريبة لتقديم المدد، ولم نكن لننجو لولا تضحياتهم بأنفسهم، لتأخير الجنود... تاركين أمر نسائهم وأطفالهم بين أيدينا، لهذا بعد شفائي من الإصابة، رحلت ومعي نصف رجال والدك، لتأمين عائلتهم والإتيان بهم جميعاً للغابات السوداء، عندما وصلت إليهم كان تحقق أسوأ

مخاوفنا... بسبب فقدانهم لأحد يحميهم، قُتل الكثير من الأطفال، واستباحوا أجساد النساء، لإشباع رغباتهم... ثم يتركونهن ما بين الحياة والموت، لم أستطع العودة بما تبقى منهن، دون الأخذ بثأرهن، فمكثنا أنا والرجال في القرية وأعددنا الكثير من الفخاخ في انتظار قدوم أحد الجنود، بعد انقضاء ١٦ يوماً قَدِم ٥ جنود إلى القرية، مبتسمين ويترنح بعضهم من آثار الثمالة، كان من السهل الإمساك بهم... صرخت بعض النسوة، بمجرد رؤيتهم وأخبرتني... أن... أنهم ذبحوا أغلب الأطفال أمام أمهاتهم.
عندما دافعوا عن أنفسهم... لهذا قررت أن أجعل منهم عبرة وأن أبث الخوف في قلوبهم، لهذا نالوا جزاءهم وفقاً لعقوبة (نسر الدم)»

عند ذكر تلك العقوبة، اتسعت حدقة عين تاجرو وارتسمت على وجهه ملامح شيطانية، بابتسامة مخيفة... كأنه شخص آخر، أتذكر جيداً... أن في هذا الوقت تحركت بعض الخطوات لأبتعد من جانبه قليلاً... خوفاً منه وأنا أسأله بحذر ما المثير أو الممتع في تلك العقوبة، حتى أبهجك ذكرها هكذا؟!

تاجرو: «الثأر... يماثل النار المشتعلة في القلب، تظن أنك سوف تطفئها بدماء أعدائك... ولكن في كل مرة تتوق للمزيد... لقد ربطنا أطراف أجسادهم بالحبال، وبطحناهم أرضاً بحيث تصبح بطونهم مقابلة للأرض،

ثم قام أمهر شخص بينا في استخدام السكين، بالجلوس على ظهر أحدهم ثم يبدأ في شق ظهره من أعلى إلى أسفل، ويقوم بتكسير ضلوعه، ثم يثنيه للأمام ويخرج معه رئتيه، فتصبح مثل الأجنحة، ويتم كل هذا وهو حي حتى يتعذب بكل لحظة، ويتحمل نتيجة أفعاله، ثم يتم تعليقه من ضلوعه الخارجة وأحياناً من جلد ظهره. يشبه أجنحة النسر. لهذا سمي بها»

تمنيت أني لم أسأل عن هذا الأمر... كان يشرح بمتعة ويصف كل شيء بدقة ويمثل الأمر بيده، تركته وفررت إلى آخر الغرفة، حيث يوجد (دلو)، استفرغت بداخله من هول الأمور التي استمر في وصفها. عندما انتهيت عدت إليه، وأنا أصيح: من المجنون الذي قام بفعل هذا؟!

تاجرو: «أخفض صوتك سوف توقظهم، هل تقصد حينها؟»
كين: « نعم »
تاجرو: « امممم... أنا »

ساد صمت مطبق بعد إجابته، جلست بجانبه... دون أن ينطق أي منا بكلمه، فقط ننظر للأمام ولا نتكلم حتى انقضت نصف ساعة، غمغم هو قائلاً: «أنت كنت تريد أن تعرف كيف وصل بنا الحال إلى هنا، أليس كذلك؟»

كين: أجل (كان ما زال نظري مثبتاً للأمام)
تاجرو: «بعد تلك الواقعة... انتشر الرعب في قلوب الكثير من الألمان، وحتى يتم إخماد الفتنة والهلع التي أصابت أغلبهم، أرسلوا جيشاً كبيراً لإبادة القرية بالكامل، لكننا تمكنا من الهرب وظللنا هكذا نهرب من مكان لآخر حتى استطاع جيش التحالف هزيمة الألمان، اعتقدت أن الأمور تغيرت لكن ها نحن هنا الآن، استسلمنا لهم خوفاً على الأطفال والنساء»

انتهى الحديث بيننا حينما نصحني تاجرو بأن أذهب للنوم، لراحة جسدي... وأني سوف أحتاج إليها، لم أفهم مغزى كلامه أو في الحقيقة لم أبالِ، بالرغم من أن تاجرو مريب في أقواله، لكنه قائد يعتمد عليه وشعرت بالأمان لوجودي معه. أشرقت الشمس واستيقظ الجميع عندما أتى الجنود بأكياس بازلاء وبعض الخبز للفطور... كانت تشبه العشب الجافة وذات طعمٍ لاذعٍ، لكن كانت أفضل من تناول خبزاً بمفرده، أثناء تناول الطعام، كانت نظراتهم تحاوطني، يتمتم كل اثنين وهم ينظرون إليّ، ثم يعاودون النظر للطعام، عندما أنتبه إليهم، بدا لي أنهم يريدون إخباري بأمر هام، انتبه تاجرو لهم غمغم بصوت صاخب وعنيف قائلاً: «ليس الآن... تناولوا الطعام في صمت، نتكلم بعد الفطور»

تاجرو: «غداً هو يوم القتال بين الثكنات، وهناك قانون وضعه إدغار، أن الفرد الجديد هو من يتحتم عليه المشاركة، ليثبت جدارته في القتال. لقد خضع جيار لهذا الأمر وأجبر خصمه من الغجر القابعين في الثكنة الرابعة على الاستسلام. قد لا تكون مقاتلاً ولا تجيد فنون القتال، لكنك صياد، تحمل الكثير في الغابات السوداء، أثق أن بإمكانك النجاح»

كين: «أوه... تقصد أني سوف أقاتل غداً؟»
تاجرو: «بل سوف تفوز غداً»

استسلم خصمي بعد إحكام يدي على رقبته لم يكن أمامه فرصة... الموت أو الاستسلام، وهأنذا... الآن أقف بجواره منتصراً كما وثق تاجرو أنني سوف أفعل في الليلة الماضية، ما زلت أتذكر حديثي معه، بينما أراقب المتفرجين من السجناء، بعضهم يهتف لي والبعض يسبني كالمعتاد منهم، وأدار تاجرو وجهه لينظر في ناحية أخرى عندما صعد ٦ جنود للحلبة أمسكوا خصمي، وقيدوا يديه وقدميه، وجعلوه يثني ركبتيه ويحني رأسه للأسفل... قَدم إليّ سابعهم وهو يحمل فأساً وضعه أمامي... في وسط تهليل من السجناء بعضهم يقول اقتله والبعض يطلبون السماح، لم ينشغل بالي من كل هؤلاء سوى نظرات إدغار، وابتسامة خافتة على وجهه يقيناً أني لن أقتله... وأردف وهو يحرك رأسه يميناً ويساراً طالباً مني ألّا أفعلها، وما زال

تاجرو ينظر للجهة الأخرى، انحنيت وأمسكت بالفأس الذي طالما برعت في استخدامه حتى ولو كانت لدي يد واحدة. التقت عيناي معه كان الرعب يتملكه... يبكي ويتمتم قائلاً: «أرجوك سيدي لا تقتلني أنا آسف على كل شيء... سيدي أرجوك أنا لدي أطفال لا تقتلني أنا آسف على أذيتك كنت سوف أعفو عنك صدقني... أنا لا أكذب... لست شريراً أرجوك من أجل أطفالي لا تقتلني».

عجزت عن إجابته أو فهم ما يقول، من يقصد بقوله سيدي... هل يقصدني... قبل عدة دقائق لعينة كان يكيل لي اللكمات ويستهزئ بي، ولم ينظر إليّ بنظرة الرحمة أو الشفقة، رغم أني في سن أطفاله. صياحه وتوسلاته طلباً للرحمة كانت تزعجني وتفقدني أعصابي شيئاً فشيئاً... صرخت في وجهه: «أغلق فمك أيها الوغد»

صمت الجميع وأصابهم الذهول... فلم يهتف لي أحد أو حتى يسبني... بل انصدموا عندما قطعت رأسه بضربة واحدة وسقط أمام أرجلهم مع تطاير الدماء على القريبين من الحلبة ولطخت وجوههم. وقف إدغار من فوق مقعده غير مصدق، وتبدلت ملامح أرداف للغضب والذهول، أما تاجرو كان ينظر إليّ بفخر ويبتسم. تحمل جسدي الكثير أثناء القتال وبدأت أنفاسي تتباطأ، حتى خارت قواي بالفعل وسقطت فاقداً للوعي.

الفصل التاسع

بقايا الماضي

لم أعلم أن التاريخ يحمل في طياته الكثير من الكراهية والظلم والقتل، أنا حقاً أتساءل... لمَ لمْ يستطيعوا العيش بسلام؟ لمَ أذاقوا بعضهم الويلات؟ أبادوا حضارات وقتلوا ملايين البشر، ونشروا الوباء والأمراض، لأجل تحقيق منافعهم الذاتية... والمؤلم أن هؤلاء البشر، ما زال أحفادهم الآن يمارسون نفس السلوك القديم، بالرغم من التقدم في **2020** واعتقاد البعض أن العالم تغير مع الأسف... لا، فقط تغيرت المسميات، من إبادة جماعية، إلى عنصرية واضطهاد لكون المرء يتبع ديناً معيناً أو ينتمي لعرق آخر... حقاً لا أعرف كيف سيكون شعور (نيفا) لو بقي حياً ورأى أن فلسطين تدمرت واحتلها آخرون وقتلوا واستباحوا الدماء ودنسوا حرمة المسجد الأقصى، لقد فعلوا ما يفعلونه دائماً، كما أبادوا الهنود الحمر وقتلوا كثيراً من الغجر وغيرهم، رغم مرور كل تلك السنوات من المحزن أنه لم يتغير شيء.

رغم حبي للقراءة، أصابتني تلك المذكرات بالضجر والحزن... بسبب الفظائع التي اقترفها البشر، ومثل أي وقت آخر، دائماً ألجأ للقاتلة

الصغيرة، اسم أطلقته على سجائري، لأني أعلم أن يوماً ما سوف تقتلني بسرطان رئوي أو فشل كلوي أو شيء من هذا القبيل، أدعو ربي دائماً أن يعينني للتوقف عنها.

أصبحت واقفاً في العراء... أمام الغابة أدخن قاتلتي... وأفكر في أن الخمسة أيام قد انقضت بالفعل وليس لي طاقة ولا رغبة في العمل، في الواقع ليس لي طاقة للعيش في هذا المجتمع الزائف. إنهاء الكوابيس كانت مبلغ همي... لكنني اكتشفت أنها أقل من أقل المصائب التي تصيب الإنسان في هذا العالم.

غابرييل: «آدم... اللعنة! فيمَ تفكر؟ أنا أشير لك وأصيح، لماذا لا تجيب؟»
آدم: «أنا آسف عزيزي لم أنتبه، لكن لماذا أنتِ هنا! هل حدث شيء ما؟»
غابرييل: «أجل حدث الكثير... وأنت لا تجيب على الهاتف، لهذا أتيت للاطمئنان عليك... ماذا يحدث؟»
آدم: «تلك المذكرات تحمل الكثير من الألم والحزن، وقد مات الكثير مقابل أطماع البشر، لم يسلم منهم حتى الأطفال والنساء تمت إبادتهم جميعاً وأرسلوا لهم الأمراض في شكل هدايا... مثل الآن هل تعلمين شيئاً عن أحداث مسلمي الروهينجا أو الأحداث القريبة التي قُتِلَ بها المسلمون في المسجد، أو مسلمو الإيغور... هل تعلمين أي من هذه القضايا؟»

غابرييل: «أنا... في الحقيقة... ما أريد قوله...»
آدم: «لا... هذا الأمر ليس ترنداً للمشاهير ولن يجلب الأموال، فبالتالي، لم ولن يهتم أحد»
غابرييل: «أنا أتفهم بما تشعر... أرجوك هدئ من روعك، الحياة تحتوي على الظلم والعدل وأيضاً والمساواة، أنا أثق أن أي فعل سيئ تجاه أي شخص جريمة... أنا أريدك هادئاً»
آدم: «هههه... أنا لا أفعل شيئاً سوى الهدوء، لقد تخطى تعدادنا المليار ونصف... وكلنا هادئون. لطالما كنا هادئين، أنا كنت هادئاً، عندما يتم انتهاك أبسط حقوقي ويعاملني الجميع كإرهابي في البلاد الغربية... لكوني مسلماً، وأيضاً عندما تم تشويه صورة (رسول الله صلى الله عليه وسلم) في فرنسا باسم الحرية، أغلبنا كان هادئاً للغاية... حتى تحول الهدوء وأصبح سلبية. لقد أصبحنا أكثر البشر بشاعة وسلبية وفقدنا هويتنا وانسلخنا من التقاليد والعادات لنتبع الغرب، الذي لا يريد سوى تدميرنا، مرات عديدة بالحروب وأخرى بالفكر والترويج لمفهوم الحرية على نحو خاطئ».
غابرييل: «لهذا... تفضل الوحدة، ولا تتعامل كثيراً مع زملائنا في العمل. أنت مخطئ جميعهم يذكرك بالخير ويحبونك»
آدم: «أنا أعلم... لكن لدي وصف أفضل للحب، أنا أحد أفضل الأطباء براعة في مجالي ولدي مؤلفات كثيرة في طب الأطفال، والكثير من الجامعات، قدمت عروضاً مغرية حتى أعلم التلاميذ هناك... لهذا أنا

أعيش هنا ويحبونني، فقط لأنهم يشعرون أن بإمكانهم استغلالي لتحقيق منفعتهم، كما الحال مع أي شخص مميز من الدول العربية، على الصعيد الآخر يمكنك رؤية شخص مسلم من دول جنوب أفريقيا يُقتل على يد عناصر الشرطة... لأنه ليس مفيداً، أو يمكن لأنهم يحبونه أيضاً، أنا لا أعلم في الحقيقة!»

غابرييل: «يكفي... أنا عائدة للمنزل»

آدم: «غابرييل... انتظري، أرجوك... أنا آسف لم أقصد أن أصيح بوجهك، هيا ابتسمي حبيبتي. أوه، نسيت لم تخبريني ماذا حدث؟»

غابرييل: «لقد أتت أمي من الخارج، وتريد رؤيتك»

آدم: «أنا... لماذا؟»

غابرييل: «ماذا تعني بماذا؟! أنت خطيبي، وهي لم تقابلك من قبل، تريد التعرف على زوج ابنتها المستقبلي»

آدم: «أوه... فهمت... حسناً»

غابرييل: «لا تقلق أنا بجانبك وسوف نجتاز كل المحن سوياً... هيا اذهب للداخل وارتدِ ملابس مناسبة، أريدك جذاباً أيها الشقي هيا أسرع سوف أنتظرك في السيارة».

آدم: «كيف أبدو هل ملابسي مناسبة؟»

غابرييل: أووا... أنت متألق للغاية، أنا خائفة الآن من أن تخطفك إحدى النساء وأنت بجانبي»

آدم: «لا تقلقي لقد تم بيع قلبي منذ زمن وأنا ملكك أيتها السيدة»

لم تتحدث غابرييل عن والدتها كثيراً، حتى أنها تتجنب الحديث عنها في بعض الأحيان وتقول أنها صعبة المراس وسريعة الغضب، والآن يجب عليّ أن أقابل تلك السيدة في المطعم القريب من المدينة، لمحاولة التعرف عليها والتودد إليها لمباركة زواجنا.

غابرييل: «آدم... آدم، أنت شارد الذهن منذ ركوبك معي، لم يتبقَّ سوى 5 دقائق وسوف نصل هل أنت متوتر؟»
آدم: «بالطبع لا، أنا بخير لا تقلقي»
غابرييل: «حسناً... وصلنا»
آدم: «ماذا، بهذه السرعة!»
غابرييل: «استغرق الطريق ربع ساعة، لكنك شارد الذهن وأيضاً أنا أمتلك سيارة رولز رويس»
آدم: «حسناً هيا بنا ندخل»
آدم: السلام عليكم، سيدتي كيف حالك؟
والدة غابرييل: «أهلاً... أنت آدم على ما أعتقد»
غابرييل: «أجل أمي آدم... لقد أخبرتك كثيراً عنه»

والدة غابرييل: «أنا أتذكر لكن أريد أن أتعرف عليه أكثر، لذا من فضلك اصمتي ودعيه يجيب... هل توافقني آدم؟»

آدم: «أجل سيدتي بالتأكيد، أنا آدم حبيب غابرييل ونحن مخطوبان الآن وننوي الزواج بلا شك»

والدة غابرييل: «لا نعلم ما يخبئ لنا المستقبل، أمر الزواج هذا ما زال بعيداً قليلاً، لذا سوف نتريث حتى أطمئن أن ابنتي الوحيدة سوف تكون سعيدة»

آدم: «لا مانع لدي فأنا أيضاً أحب أن تكون سعيدة وسوف أفعل كل شيء حتى أحقق لها ذلك»

والدة غابرييل: «أين تقابلتما ومن اعترف للآخر هل كان أنت آدم؟»

غابرييل: «في الحقيقة أنا... آدم لم يتخذ تلك الخطوة، مع العلم جميع تصرفاته كانت تدل على أننا أكثر من أصدقاء وأنه يحبني»

والدة غابرييل: «لمَ؟ هل أنت تخاف من العلاقة الجادة وتحمل مسؤولية شخص آخر معك؟ هل هذا يرهبك لهذا لم تبدأ أنت باتخاذ خطوة جادة في العلاقة بينكما؟»

آدم: «الأمر ليس هكذا... أنا أخاف أن أفقدها لهذا كنت أخشى الاقتراب منها، لا أعرف ماذا سوف يكون شعوري إن استيقظت يوماً ما ولم أجدها... فقط حين أتخيل هذا الأمر كان يتملكني الإحباط والتعب، أنا لا أستطيع أن أتخلى عن غابرييل هي ما تدفعني إلى الاستيقاظ كل يوم. غابرييل أنا أحبك وهذا ليس بسبب معين، أعلم أنّ جمالك سوف يزول

وسوف نشيخ ولن تبقى سوى الذكريات، لهذا أريد أن تكون كل ذكرياتي معك أنتِ فقط، لهاذا أخبرك أمام والدتك أرجوك لا تحطمي قلبي برحيلك أو خيانة الثقة بيننا هل تفهمينني؟

غابرييل: «أنت رومانسي اليوم للغاية، أرغب في احتضانك بشدة الآن... سوف أفعل كل ما بوسعي أعدك بهذا»

والدة غابرييل: «واو... الآن فهمت لما تلك الفتاة أخذت تلك الخطوة. أنت شخص لطيف للغاية آدم، غابرييل من فضلك اخرجي قليلاً للخارج أريد أن أتحدث مع آدم بمفردنا»

غابرييل: «حسناً... حبيبي سوف أنتظر في الخارج قليلاً لا تنسَ فيما تحدثنا، أحبك»

آدم: «لا تقلقي سوف تكون الأمور بخير»

والدة غابرييل: «فيمَ تحدثتما، هل كان بشأني؟»

آدم: «أجل... أخبرتني أنك صعبة المراس قليلاً، وأنني ينبغي أن أطاوعك حتى تكون الأمور بخير»

والدة غابرييل: «ولمَ تخبرني بهذا؟ هل تلك ثقة منك زائدة أم غباء؟»

آدم: «أنا لا أخشاكِ ولا يهمني هذا اللقاء كل ما يهمني سعادة غابرييل فقط وأنا أيضاً لا أكذب»

والدة غابرييل: «أممم... أنت شخص صالح لكن لا تصلح لابنتي»

آدم: «هل يمكن أن تخبريني بالسبب... لماذا؟!»

والدة غابرييل: «لا أستطيع أن أخبرك بشيء محدد لكن لست الشخص المناسب لها من فضلك غادر»

آدم: «لا... لن أغادر، أريد أن أعرف لماذا تقولين هذا ما السبب؟

والدة غابرييل: «حسناً، أنا لا أريد شخصاً مثلك لابنتي أريد شخصاً مثلنا»

آدم: «ماذا تقصدين بمثلنا، هل تقصدين أنك ترفضينني بسبب شكلي أم أن السبب أصولي العربية؟

والدة غابرييل: «أنا لست مضطرة للإجابة، لكن أجل أنا أرفضك بسبب الاثنين، أنا أريد رجلاً من عرقنا وليس من عرقك لأن مصير علاقتك بها الفشل، وأنا لا أريد تحطيم ابنتي بعدما أصبحت الوحيدة لدي، أرجوك ارحل الآن، وإن كنت تحبها لا تخبرها بشيء»

غابرييل: «آدم، توقف إلى أين أنت ذاهب؟»

آدم: لا شيء، لكن اسمحي لي بالانصراف، وأنتِ اجلسي معها قليلاً، أنا أريد الذهاب لبعض الأماكن لجلب الطعام، وسوف أذهب للبيت فيما بعد. أمر آخر أنا أريد إجازة مرضية أنا غير مستقر هذه الأيام، ولن أذهب للعمل.

غابرييل: «هل حدث بالداخل أمر سيّئ، بإمكاني الاستئذان قليلاً من والدتي ونذهب معاً لنتكلم»

آدم: «لا... أرجوكِ اتركيني كما أحب، مع السلامة حبيبتي، أحبك»

غابرييل: «وأنا أيضاً أحبك، لا تقلق بشأن العمل، سوف أرتب لك الأمور»

الفصل العاشر

جوبان

لم يدق قلبي سوى للحزن والأسى منذ طفولتي ولم أفهم ماذا يقصدون بكلمة الحب، سمعت هذه الكلمة للمرة الأولى من نافارو عندما قالت إن أبي أحب أمي وأراد اتباعها وحمايتها دائماً، لم أفهم هل يَكمن الحب في التضحية أم في الاهتمام والمراعاة وما معنى الحب الأشمل بالنسبة لنا وهل نصلح إليه، هل بقي بداخلي قلب يحب ويسعى ليحيا مرة أخرى، لم تأتِ تلك الأفكار إليّ إلا عند رؤيتها، بعد القتال الأول وقتل منافسي انهار جسدي وأمرهم إدغار أن يأخذوني إلى المشفى، فأصبحت لحياتي قيمة في نظر إدغار.

المشفى كانت نقطة التقاطع بين معتقل النساء والرجال، شيدها إدغار للمحافظة على صحة جنوده، ومداواة المصابين من القتال... أصحاب القيمة من وجهة نظره القاصرة على المنفعة. مقسمة إلى خمسة طوابق ما بين الجنود والعاملين بالمستشفى من النساء، وأماكن لتخزين الموارد المهمة، وطابق مغلق ويُمنع الجميع من الاقتراب منه. أما الأخير كان من نصيبنا... أعلى نقطة في المعتقل، فلو حاول أحد الهروب لن ينجو من السقوط من

تلك المسافة حتى وإن نجا، لن ينجو من براثن إدغار. في منتصف كل هذه الأمور شاهدتها للمرة الأولى وهي آتية نحو سريري تتمايل بجسدها المتناسق. ملامح طفولية، وشعر ذهبي طويل ومنساب يصل إلى منتصف ظهرها... كنت ما بين الإفاقة والإغماء... ظننت أني أحلم، لهذا تصنعت النوم حتى لا أفقد رؤيتها المبهجة. أردت أن أكون بجوارها... أطول فترة يمكن اقتناءها.

أدركت أني لا أحلم حين غمغمت بصوت يكسوه الهدوء قائلة: «أنا كارلا. أعرف أنك مستيقظ... بإمكاني رؤية أهدابك تتحرك، لا تقلق لا أحد من الجنود هنا، الآن»

كين: «لم أغلق جفوني خوفاً من تواجدهم، أردت أن أحتفظ بذكراكِ داخل عقلي وقلبي، وأن تبقي بجانبي أطول فترة ممكنة، منذ أن رأيتك قادمة نحوي وأنا لا أفكر سوى في الزواج بك والعيش في قرية جميلة، حيث يكون اختلافنا هو روعة الحياة في تلك القرية»

كارلا: «أممم... بالتأكيد كثرة اللكمات في وجهك جعلت عقلك غير مستقر، استرح الآن وسوف تكون بخير في صباح اليوم التالي»

كين: «لا أريد شيئاً آخر سوى أن أستيقظ من النوم وأقف بجوارك في الشرفة لنرى كل شيء بوضوح في قريتنا الجميلة، وأيضاً يمكننا أن نزرع

شجرة في منتصفها تكون ظلاً لحبنا... ويلعب أطفالنا على غصونها، ونشيخ معاً».

كارلا: «أوه، إذاً أنت تخبر كل من تراهم بهذا الأمر، وأنك تريدهم زوجات لك في قريتك الخيالية!»
كين: «أنا لم أعرف شكل قريتي لكن رأيتها في عينيك، بيوتها المتناسقة الصغيرة، وحقولها الواسعة. ويكون أساسها الحب، التواضع، حسن الجوار، الكرم، الأخلاق، والمساواة، سوف تكون جنة. لكني حتى الآن أرى ظلالها فقط وأتمنى رؤيتها كاملة.
كارلا: «كنت أشاهدك وأنت تقاتل من تلك الشرفة، ظننت أنك بربري قَدم من الغابة بلا عقل... لكنك أثرت اهتمامي أنت وقريتك الخيالية. تبدو بخير، تحتاج فقط للراحة، ينبغي لي الذهاب الآن... اممم... وداعاً»
كين: «انتظري، كيف علمتِ أنني قادم من الغابة؟!»
كارلا: «أنت ثرثار لهذا يعلم الجميع بقصتك، أراك لاحقاً»

عندما رأيتها للمرة الأولى كانت خالية الوفاض، لكنها رحلت وهي تحمل فؤادي وكل تفكيري، تمنيت لو أنها بقيت ونظرت طويلاً لعينيها الزرقاء البراقة، كانت في منتصف كل هذا الظلام... مثل بئر ظهرت في منتصف الصحراء، فنما العشب على حافتها، ليأكل الطير ويُروى من تاه فيها وكاد أن

يموت عطشاً، لقد أنبتت قلبي المظلم بالحب بعد أن صار قاحلاً مثل الصحراء.

مرت ثلاثة أيام ولم أرها، وحان موعد خروجي وبالفعل رجعت إلى السجن واستقبلني قومي بالهتاف والتهليل، حملني اثنان منهم على أكتافهما، احتفالاً برجوعي، حتى وصلا بي أمام تاجرو... ابتسم وصاح قائلاً: «لقد أثبت أنك ابن بارو. ليس لأنك قتلت هذا الرجل بل لأنك تحملت القتال ورفضت الاستسلام كنت رجلاً هناك لقد استحققت لقبك قائد الغابات السوداء، منذ الآن سيعلم الجميع أنك لم تعد فتى بل أنت رجل ومقاتل، ولست عبئاً على أحد أو أقل من أحد»

أرداف: «بالطبع... صار مثلكم، عند دخوله للمرة الأولى كان يتخلل عينيه بريق لبقايا من الإنسانية بداخله، رغم مروره بالكثير من الصعاب، أما الآن فقد تلاشت وأصبحت فارغة ومظلمة. كل هذا بفضلك أنت... تاجرو. هل أنت فخور! أخبرني... هل أنت فخور بانضمام قاتل جديد؟»

تاجرو: «إنه أصبح يرى عدوه الحقيقي، من هدم وطنه وقتل عائلته، والآن يحجز قبيلته، أنت وهم وجهان لعملة واحدة لا يختلف أي منكم عن الآخر، ومهما فعل لن يكون مثلكم.

أنتم أيضاً قتلة... لكن بدم بارد تقتلون الأطفال والنساء»

أرداف: «ونقتل الرجال الوقحين أيضاً أيها الوغد»

لم تكن النفوس صافية بسبب مكانة الرجل المقتول، وكان هناك عدة مشاحنات طفيفة بين الطرفين أثناء مكوثي في المشفى... فأشعلت مشاحنة الزعماء فتيل الحرب داخل الزنزانة، أصبحت معركة عرقية يضرب كل شخص من أمامه من العرق الآخر، لم تمر سوى ثوان حتى صارت الأرض كلها بلون واحد وهو الدماء، لو كانوا نظروا للأسفل لمرة واحدة كانوا سوف يرون أنه لا فرق بيننا وأنّ الدماء على الأرض كلها متشابهة... في النهاية جميعنا بشر.

سقط الكثير من الطرفين، وغطت الدماء أوجه البعض، إثر تساقط أسنانهم. وآخرون من شجّ رأسه وسقط بجانب الحائط يلتقط أنفاسه، وهناك من سقط في المنتصف وأصبح مداساً للطرفين ولم يبالِ به أحد... كانت ملحمة من الدماء.

على الجانب الآخر كان تاجرو يقاتل وتكفي لكمة واحدة ليسقط من أمامه... يصرخ من الألم ويفقد وعيه أو يبصق دماً إثر تلك الضربة ولا يقدر على القتال، وفي ظل الصراع الضخم، وانشغال الرجلان اللذان أوكلهما تاجرو بحمايتي، لأنني الهدف الأساسي من القتال الحالي هو موتي، وجدت نفسي أمام أرداف ظننت أني بإمكاني التغلب على هذا الشاب الأبيض،

أصابني الغرور بفوزي بالقتال السابق، أنطلق نحوه وأنا أوجه إليه أقوى لكماتي... لكن ذراعي لم يكمل امتداده، ولم يصل لنصف المسافة حتى، أدى شقلبة من نوع ما وضربني في وجهي، لم أشاهد مثلها من قبل، ثم فعل حركة أخرى... جعلت الجميع يلتفت لصوت ارتطام جسدي بالحائط، ومن بينهم تاجرو... نظر إليّ وأنا أحاول النهوض، ويتدفق الدم من فمي. وأضع يدي على صدري وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة بالغة. كنت أشعر أن رئتي تتمزق والهواء لا يعبر خلالها... ويزيد الألم كل ثانية، برغم كل هذا حاولت البقاء منتبهاً لما يحدث، صيحات تاجرو لهجومه ناحية أرداف... ومحاولة الحقير لفعلها ثانيةً، يقف بزاوية معينة ويحمل جسده على قدمه الأيسر ويرفع القدم اليمنى في وجه خصمه بالواقع لا يوجهها فقط، شعرت أن قدمه أصابت صدري كالمدفع لتدفعني نحو الحائط بقوة... نوع من القتال لم أعرفه والآن يكرر الأمر مع تاجرو... لكن حدثت المفاجأة... انخفض تاجرو وثنى ركبتيه وتفادى قدم أرداف اليمنى واتجه بكامل جسده نحوي، قدمه اليسرى الثابتة على الأرض وأمسكها، ودفعه إلى الخلف ليسقط أرضاً، بعد اصطدام رأس تاجرو بأنف أرداف... وصعد فوقه وأصبح يكيل له اللكمات في وجهه... حتى انفجرت الدماء من رأس أرداف... صرخ بقوة وهو يحاول تخليص نفسه من هذا المأزق، ثنى ركبتيه حاجزاً بينه وبين تاجرو ودفعه للخلف بقوة. استطاع أن يحرر نفسه ويسقط تاجرو، ثم وقف كلٌ منهما ثانيةً... وأصبح القتال مباشرةً دون

حيل، فقط تبادل للكمات، ذلك القائد الأبيض كان أقوى مما أتوقع، وجه الكثير من اللكمات السريعة لجسد تاجرو ووجهه، حتى نزف الكثير من الدماء، واستطاع أن يصمد لوقت طويل أكثر من أي مقاتل آخر. كانت النهاية على وشك الاقتراب، مهما طال القتال ومهما تفادى لن يصمد أمام جسد تاجرو الخيالي، كتلة من العضلات الضخمة والصلابة المدهشة. لم يوقف القاتل صوت صفير الجندي، عندما اقترب وشاهد المشهد الدموي، فأطلق (صفارات) الإنذار الخاصة بالأمور الطارئة، قَدم عدد هائل من الجنود المدججين بالأسلحة، حينما فُتح الباب استلقى كل السجناء أرضاً، خوفاً من بطش الجنود... ما عدا تاجرو الذي ما زال يقاتل بكل شراسة. فتجمع حولهم عددٌ ضخمٌ وانهالوا بالبنادق على أجسادهم... حتى خارت قوى الاثنين، وسحبوا تاجرو وأرداف أمام أعيننا إلى منتصف المعسكر، حيث يقف إدغار وحوله عددٌ ضخم... من الجنود لم يسبق لنا رؤيتهم أو معرفة أحدٍ منهم، قارب عددهم ال ١٠٠ جندي.

كان إدغار في أوج غضبه، عكس تصرفاته المتسمة بالبرود والهدوء، كان يتمتم ويسب بالكثير من الشتائم لجنوده لعدم معرفتهم بالأمر من البداية، وشعوره بالإهانة لتكسير أمره في المعتقل للمرة الأولى، انتهى منهم ثم نظر إلينا وهو يغمغم قائلاً: «هل تعتقدون أنكم تملكون حرية الاختيار...

بإمكاني قتلكم جميعاً الآن ولن يعبأ أحد بموت حفنة من الأغبياء مثلكم.

وأنت أرداف انظر إلى نفسك وما فعله الغجري بك، هل ما زلت تنظر إلى نفسك أنك قائد من الجيش النازي؟ لقد خسرتم الحرب... هاها... والآن أنت خسرت أمام هذا الغجري كان سوف يقتلك لولا تدخلنا، لا تقلق سوف أعطيك فرصة يوماً ما؛ لتنال شرفك المفقود، لكن عندما أقرر أنا هذا وليس أنت. منذ الآن سوف يتم نقل أرداف والغجري تاجرو في زنزانات أخرى مختلفة، سوف يتم تفريقهم عن أتباعهم لنرى وأنتم بمفردكم مع السجناء الآخرين، وهناك زعماء آخرون ولهم أتباع ماذا سوف يفعلون بكم، أما من بقي سوف يعملون في الصخور بشكل يومي بدون راحة ومن يسقط منهم اقتلوه، لن يذهب أحد منهم إلى المشفى لنرَ كم سيبقون صامدين.»

أنهكنا القتال بشكل كبير... كنا نسير ونحن محطمين، وبعضنا يستند على الآخر، يخشى السقوط، ما عدا الوغد جيار، كان بكامل قوته وبهجته... كأنه لم يكن معنا.

تحركنا ورؤوسنا للأسفل... بناء على أوامرهم، حتى وصلنا أمام جبل صخري يستند إليه المعتقل... كدعامة من الخلف، كان الغرض من عملنا بشكل

مرهق ومميت، استعراض قوته أمام الثكنات الأخرى، وحتى لا يجرؤ أحد على العصيان.

كان الجنود يقفون على مرمى بصرنا مستعدين وبنادقهم موجهة إلينا، وتركوا لنا أكواماً من المعدات في المنتصف، وعلى كل شخص اختيار ما يجيد استخدامه للعمل... حينها لفت انتباهي الفأس فقمت باختياره، عند الشعور بقبضة الفأس في يدي شعرت بقليل من القوة تتسرب إلى جسدي والشجاعة اجتاحت قلبي، وبدأ عقلي يتساءل هذا هو شعورهم عند امتلاك الأسلحة ويهاجمون قبائلنا، هل ينقصهم هذا الشعور ويقومون بتعويض هذا النقص بقتلنا؟ لكن الشجاعة والقوة، لن تكفي... استغرقت طويلاً أفكر إن استخدمت الفأس لن أصل لمكان الجنود سوف يقتلوني قبل التحرك، وإن صوبت الفأس نحو أحدهم وقتلته، سوف يقتلونا جميعاً، لذا كانت الحكمة هي الالتزام بما يقولون، أمرونا أن ننقسم مجموعتين نصفنا يكسر الصخور والنصف الآخر يحمل الصخور، ويقومون بنقلها للجزء الغربي من المعسكر، وكان يرافقهم الجنود في الذهاب والعودة، اخترت أن أحطم الصخور بفأسي كما فعلت في الغابة لسنوات طويلة، لم أكن على علم بقسوة الحجر أردت إظهار قوتي بالفأس؛ لذا وضعت تركيزي وكل قوتي في أول ضربة، قمت بالصياح عالياً... للفت أنظار الجميع... أردت إظهار قوة قائد الغابات السوداء بالفأس، صوتٌ مدوٍ كان أعلى من صوت البنادق

عند تلامس بلطة الفأس بصخر الجبل وظهور شرارة بينهم، تحطمت يد الفأس لنصفين واحدة في يدي والأخرى تحمل راس الفأس طارت بعيداً، كانت يدي ترتعش والدماء تنساب بين أصابعي. أحدث هذا الاحتكاك القوي من ردة فعل الفأس... تجلطات في راحة يدي، فأصبحت أرى اللحم، والدماء تنهمر بشدة. تحمل جسدي الكثير في القتال، ولم يستطع المواصلة وتحمل تلك الصدمة... سقطت في مكاني... طوال سنوات حياتي لم أعرف ما هو (الحظ) سوى تلك اللحظة لو لم ينهَر جسدي في تلك اللحظة كانت رصاصة ذلك الجندي استقرت في أعماق جسدي، لم يفرق بيننا سوى لحظات، أقسم أني شعرت بها فوق رأسي مباشرة... طبقاً لأمر إدغار من يسقط يُقتل، أفلتت رصاصته الأولى... فأصبح يلقم السلاح ليضعها في نصابها هذه المرة وأنا ثابت على الأرض، أوقفه صوت جندي قدم من بعيد يهرول ويصيح: «توقف... لا أحد يطلق النار... لقد كان كلام إدغار واضحاً من يسقط أي من يقول إنه لا يستطيع أن يكمل... إن أطلق أحد النار سوف أجعل إدغار يقوم بقطع رأسه»

أشار إليّ بأنامله... وهو يغمغم: «أنت أيها الفتى، انظر إليّ، هل تستطيع أن تكمل أم لا؟»

نظرت إليه ومازال جسدي يرتعد، كان الضابط الذي قام بنقلي للثكنات... فأجبته بإيماء رأسي بالموافقة.

الضابط: «حسناً... ليكمل الجميع عملهم، وأنت قُم واذهب أمامي... هيا»
قائد منطقة العمل: «إلى أين تأخذه... بناء على أوامر إدغار سوف يعملون حتى المساء، ويفترض أن يُقتل الآن! حينما يعلم إدغار، سوف تكون عواقب فعلتك هذه وخيمة»
الضابط: «هههه... حقاً... أعتقد أنه من الأفضل أن يعلم عن محاولتك في التسلل أنت وبعض الجنود لمعسكر النساء ليلاً... ما رأيك؟»
قائد منطقة العمل: «يوماً ما سوف يتخلى عنك إدغار وسوف تسقط... حينها سوف أكون بانتظارك»
الضابط: «هيا أيها الفتى لا أريد أن أضيع المزيد من الوقت في الهراء»

أكملت معه الطريق... بينما أحد الجنود كان يستشيط غضباً، وينظر إليّ في غيظ، ويسب زميلاً له... بسبب خسارته الرهان، وأنه لم يستطع قتلي من المرة الأولى. لم نذهب لمبنى المستشفى الشاهق أمامنا، بل سرنا بجانبه حتى وصلنا لبيت صغير منمق في المعتقل كان مسكن الضابط. دخل ثم غمغم قائلاً: «ادخل... لا تخف واقفل الباب خلفك... هل أنت غبي! لقد أخبرتك أن الأمر مختلف منذ الآن أولاً تقتل ذاك الرجل في الحلبة، وتجعل

من نفسك هدفاً لكل البيض هنا، وأيضاً تشترك في ذلك القتال في السجن. ثم تفعل هذا الاستعراض الأحمق... انظر إلى يدك هل تريد أن تفقد يدك الأخرى أيها الأخرق... أنت فيمَ تفكر أيها الغبي أجبني؟!»

كين: «من المفترض، أن أنعم بحياة طبيعية وهادئة، لا أن أفكر كل يوم سوف أموت غداً أم لا. أنا حقاً لا أعلم ماذا أفعل!»

الضابط: «أنت محظوظ أن إدغار ليس هنا، لقد خرج يطارد بعض الرجال في الخارج، أعطني يدك لدي بعض الأدوات والأدوية هنا سوف تساعد في التئام الجروح سريعاً، وتخفف آلامك».

كين: «أنا لم أقابل أبيض مثلك من قبل... لماذا تفعل هذا؟!»

الضابط: «من أجل ابني، كان في مثل عمرك، دائم الفضول بشأن عملي، ويسألني بصفة مستمرة هل أنقذت أحداً يا أبي؟

هل يمتنون لك لكونك بطلاً وتنقذهم؟ لم أهتمِمْ بكلامه تعلمت أن أكون جندياً قوياً لم يشكل سؤاله اليومي فارقاً لدي، كنت أجيبه بسخرية أن الأمور بخير، وأن لا أحد يحتاج للإنقاذ، قائلاً في نفسي أي إنقاذ يا فتى، الجميع يقتلون بعضهم ولا مكان للرحمة أو الضعفاء... إلى أن استدعوني لأنه ضرب زميله في الدراسة، لقد فعلها لأن زميله أخبره أن كل الجنود قتلة وهم يقتلون الناس فقط ولا ينقذون أحداً، وعند ذهابي ارتديت بدلتي العسكرية فبمجرد رؤيتي صرخ بكل قوته: أبي بطل وينقذ الجميع

وأنتم جميعاً تكذبون. وصار يبكي وتقدم نحوي يحتضنني بقوة ويقول: أخبرهم أنه صادق، لقد ولد مصاباً (بمتلازمة داون)، كان رقيق القلب وطفلاً صالحاً حتى أتت الحرب، أسقطت إحدى الطائرات القذائف فوق مدرسته، ومات وهو في عمر 18 عاماً، كم تمنيت أن يكبر ويصير رجلاً وأن أرى أطفاله، تدمرت كل تلك الأحلام في لحظة، حينها أقسمت على الانتقام، وانضَمَمْتُ لصفوف القتال في الحرب وقتلت الكثيرين... حتى أنتقم لصغيري.

تغير كل شيء في الحرب الأخيرة قبل انهيار ألمانيا وإعلان هزيمتها، كانت المعركة دامية وبقايا الجثث انتشرت في كل مكان وكنا متقدمين في الحرب، وقعنا في كمين فرقة ألمانية ومات كل من معي، وسقطت على الأرض بعدما أصبت في كتفي... أنتظر الموت، وقف أمامي جنديٌ ذو بشرة بنية قاتمة من الأعداء، مصوباً بندقيته تجاهي كان بإمكانه قتلي، لكنه تركني أحيا... لقد حقق إرادة ابني فأنقذ حياتي... لقد بكيت في تلك اللحظة ندماً على كل شيء، بكيت كوني مخطئاً، هناك من يحتاج للإنقاذ دائماً، وهناك رحماء بيننا، أقسمت أني سوف أكون كما أراد سوف أجعله فخوراً بي لهذا أنقذك الآن، أنصت جيداً... لن يطول الأمر، هناك مفاوضات كثيرة لخروج دول التحالف من ألمانيا، لكن إن فعلوا هذا إدغار سوف يقتلكم جميعاً قبل الرحيل لذا لا تستعجل موتك وتصرف بذكاء، قد لا أستطيع إنقاذك مرة أخرى»

كين: «أنا آسف على فقدان ابنك... في الحقيقة هناك طلب وحيد أريده ولا أبالي بشيء سواه... إن حققته سوف أكون ممتناً لك دائماً»

الضابط: «لن أستطيع أن أجعلك تهرب يا فتي»

كين: «هاهاها... ليس الأمر هكذا... هناك فتاة تدعى كارلا في المشفى أريد أن أقابلها»

الضابط: «وهل تلك الفتاة تستدعي المخاطرة بحياتك وأيضاً أن تضحي بطلبك الوحيد... قد لا أستطيع تحقيق غيره»

كين: «أجل... لقد أصبحت هي حياتي منذ أن رأيتها للمرة الأولى»

الضابط: «أوه... حسناً سوف نذهب بحجة إصابتك... تحرك أمامي، ولا تتكلم مهما حدث هل تفهم؟»

المسافة بين بيت الضابط والمشفى كانت أميالاً بسيطة، عدة دقائق وكنا أمام حراس المشفى، عقدوا حواجبهم استنكاراً، ماذا نفعل هنا.

جندي حراسة المشفى: «إلى أين! بناء على أوامر إدغار لن يذهب أحد منهم إلى المشفى... بل من يسقط منهم مثل الحيوانات يقتل، ثم يلقى خارج المعتقل للكلاب»

الضابط: «أنا أفعل ما أمرني به إدغار، وإن كنت تجرؤ على الاعتراض... افعل... لكنه عندما يأتي سوف أخبره بعصيانك ليقطع رقبتك عبرة لمن يعصي أمره، تنحَّ جانباً وأنت أيها الفتى هيا تحرك أمامي... هياااا»

بالفعل نظر بعضهم إلى بعض وأصابهم الخوف من تهديداته، ومكانته المرموقة لدى إدغار... أفسحوا لنا الطريق، صعدنا للطابق الثاني، فأمر الجميع بالنزول... ما عدا كارلا، وأمهلني خمس دقائق معها، واستدار واقفاً أمام الباب.

كين: «كارلا إن كان هذا آخر ما أقوله... فأنا أحبك، حقاً تمنيت أن أعيش بجوارك ما تبقى من عمري، لم يحطمني سوى أني... لا أراكِ كل لحظة أمام عيني حتى وإن كانت صورتك لا تفارق عقلي وقلبي... فكرة أني أبتعد عنك تجعلني أشعر بالوحدة والألم في قلبي... كارلا، أرجو... أرجوك هل يمكنني احتضانك»
كارلا: أم... ماذا!!

لم أمهلها لحظة للموافقة أو الرفض، بل احتضنتها كالطفل الصغير الذي فقد أمه، تلك اللحظة أعادت ذاكرتي لحظة تشبثي بملابس أمي وأنا صغير قبل موتها، شعورٌ دافئٌ يمتزج بالطمأنينة والسعادة... لكنني أفقت على

صوت غليظٍ، الضابط وهو يجذبني من ياقة ملابسي، وهو يقول: «هيااا... أيها العاشق، تحرك أمامي... هل سوف تنام في أحضانها»

كين: «كنت مستاءً بشدة وأقول له: ماذا، لمَ سحبتني؟ لم أجرب هذا من قبل... كان شعوراً رائعاً».

الحارس: «ماذا! لم يسبق لك احتضان فتاة من قبل في حياتك؟!»

كين: «أجل... هل هناك مشكلة؟»

الضابط: «تباً... ها أنا الآن أعتقد أن الأمر كان يستحق المخاطرة»

كين: «هناك أمر يحيرني... لو كنت خسرت في القتال ما الفرق بين الاستسلام والموت ما دام من يستسلم ويعفو عنه خصمه أيضاً، لا نراه مرة أخرى بالتأكيد يُقتل... أليس كذلك؟!»

الضابط: «لا... لا يُقتل ولا يتم إرساله للعمل ببناء الدول المدمرة... بل يتم إرساله إلى معتقل آخر يدعى(أكرا)، بعد يومين وهو الوقت اللازم لتجهيز مكان آخر هناك، الأمر أشبه بالموت سجن فردي لكل شخص لا ترى الشمس حتى تموت لهذا افعل كل شيء ولا تستسلم»

كين: «وهل تخشونَ إلى هذه الدرجة... فردٌ منا مهزوم في القتال وضعيف... هل يستدعي كل هذه التحضيرات وأيضاً كل هذا التأمين»

الضابط: «هاها... ماذا! بالطبع لا، لا يذهب معه سوى حارسين فقط»

كين: «هل لديك اسم؟ بماذا يمكنني أن أدعوك؟

الضابط: نادني (جوبان).

كين: كنت أسير مع جوبان متجهاً إلى الزنزانة، حتى أتى إدغار من بعيد، مسرعاً... تسارعت دقات قلبي، لقد تفاجأت بوجوده أمامي ونظر إلى الحارس بجانبه وأخبره أن يأخذني إلى الزنزانة ويجمع الجميع ويدخلهم انتهى عمل اليوم... ثم نظر إلى (جوبان) بجانبي وأخبره أن يتبعه إلى مكتبه في الحال.

****

الفصل الحادي عشر

سقوط الخط الفاصل

أنين في الليل من أصحاب الأجساد المصابة ليس من إرهاق العمل، بل الظلم حطم أرواحهم، أجساد ملقاة بالكاد تتنفس لكن بلا روح، اختلف هذا الليل بحركته الكثيرة في الخارج وصوت الجنود يتحدثون عن أمرٍ هام، لقد توقعت حدوث أمر مماثل، بعد نظرات إدغار المريبة لجوبان وأنه يريد الحديث معه في المكتب على انفراد، لقد خشيت أن يصيبه مكروه رغم أنه من الأعداء وينبغي أن أكرهه، كان منقذي الحقيقي هنا، جلست أفكر طويلاً حول الصباح وماذا سيحدث حتى غلبني النعاس... أفقت من النوم على حديث الجميع ووقوفهم حول منافذ الهواء، وبأيديهم قطع من الخبز طعامنا اليومي الفاخر، ويتحدثون عن شيء مجهول جلبه إدغار من الخارج، وقفت بجانبهم حتى أرى ماذا يحدث... كان هناك جسم ضخم مغطى بوشاح أسود في منتصف المعتقل، أياً كان ما يغطيه فالأمر ليس بجيد، لم تمر سوى عدة دقائق حتى أتت أعدادٌ مهولةٌ من الجنود يصطفون بجوار الجسم الأسود... وجنود آخرون، اقتربوا من الباب الأمامي... وأمرونا بالخروج ليس نحن فقط بل كل الأسرى. في شكل صفوف مزدوجة... أمام إدغار الذي كان يقف على مدرج خشبي صغير. وينوي أن يقول محاضرة ما.

إدغار: «البداية... ليست في هذا المعتقل، وأيضاً لم تبدأ في الحرب، بل من قديم الزمان وأنا أعرف جوبان صديق طفولتي... أو في الواقع صديقي الوحيد، عندما تشاجرت للمرة الأولى وعمري سبعة أعوام، كان بجانبي ودعمني في كل مرة كنت بحاجته، حتى عندما التحقت بالجامعة كام معي وتفرقنا عند التحاقي بالجيش، لم تمر سوى بضع سنوات والتحق هو الآخر؛ فأصبح يرافقني الطريق ونكافح معاً مرة أخرى، قاتلنا معاً لسنوات طويلة أنقذ حياتي مرات لا أحصي عددها. جوبان ليس مجرد ضابط هنا فقط... لقد كان مقاتلاً بارعاً في الحروب قتل المئات من الأوغاد، ويوماً ما سوف يكون قائداً عظيماً، طوال هذه السنوات وخلال الحروب لم يكن مجرد صديقي كان أخاً لي. لهذا لن أسمح الآن أن يأتي بعضكم ليقول إن أخي خائن ويرأف بهؤلاء الجرذان، لقد جمعتكم الآن حتى أخمد تلك الإشاعات للأبد وأثبت لكم أن أخي ما زال على ولائه وعهده... أزيلوا الوشاح.»

صدم الجميع لما يخفيه تحت الوشاح الأسود... كانت سيدة مغطى وجهها وجسدها بملابس سوداء... لم نعرف هي من عرقنا... أم من (الآري) كانت مصلوبة على لوح خشبي يشبه شخصاً يقف ويداه مرفوعتان لأعلى... حيث تتساوى يداه بكتفيه، كانت ترتعد خوفاً ونسمعها تئن... تحاول الصراخ لكن يبدو أنهم كموا فمها... لم نسمع صوتها لكن شعرنا بها

وكل ما تريد قوله من رعب وقهر. قطع تفكيري في مصير تلك المرأة ومن تكون، صوت إدغار وهو يخاطب جوبان.

إدغار: «لقد حان الوقت لتثبت ولاءك، التقط... هذا السوط واضرب تلك المرأة 25 جلدة، لأنها حاولت الهرب، افعلها من أجل بلادك... افعلها من أجل قائدك وأخيك هياااا...»

حينها... تجعدت أوجه الجميع... وعلت وتصاعدت أصوات الاستنكار لما يفعلوه، بل قام أحد السجناء يصرخ: توقفوا أيها الحثالة... أيها... الـ... لم يكمل تلك الكلمة، فكان صوت الطلقة هو من نبهنا لسقوط ذلك الرجل والدماء انفجرت من رأسه حيث استقرت تلك الرصاصة من مسدس إدغار في منتصف رأسه، لتصنع فجوة بها؛ فخرَّ قتيلاً.

حدث الأمر بسرعة كبيرة... استعد جميع الجنود بشد الأجزاء في بنادقهم، ووجهوها نحو رؤوسنا لقتلنا على الفور إن تهور أحد وحاول أحد فعل شيء... لم ينقذنا من هذا الأمر سوى صرخات جوبان.

جوبان: «توقفوا... يكفي إراقة للدماء، لن أفعلها»
قائد منطقة العمل: «لقد أخبرتك... سيدي إنه خائن»
إدغار: «انتظر أنت... ما... ماذا تقول... كرر ما قلته جوبان!»

جوبان: «لن أقتل أحداً من أجلك، منذ زمن طويل وأنا أقاتل لأجل الجميع لكن... لا... لن أقاتل من أجل أحد، بدلاً من إزهاق الأرواح سوف أنقذها سوف أحقق حلم طفلي وأكون بطلاً من أجله... يكفي... إدغار، انظر لما تفعله لقد فقدت صوابك، هل مجد فرنسا ودول التحالف أن نقتل النساء أو نقتل أطفالاً في عمر 18 عاماً؟ أين المجد في هذا، لقد مات ابنك وهو يقاتل دفاعاً عن أرضه وعائلته، مات بطلاً أما أنت فلا تقاتل سوى لنفسك، إن كنت تظن أن ابنك مات عندما اخترقت الرصاصات جسده أنت مخطئ، لقد مات ابنك من الداخل منذ زمن بعيد، مات عندما فرقت بينه وبين حبيبته وأرسلته إلى مدرسة داخلية... بالإجبار، مات أيضاً عندما كنت تعنفه يومياً أمام المارة في الشارع، مات عندما كان يريدك بجانبه في وقت قست عليه الحياة ولم يرَك، مات عندما هجرته أمه وهو صغير هاربة من إهانتك وضربك لها. تركت صغيرها حتى تهرب من جحيمك، لم يقتل ابنك العدو، لقد مات ألف مرة بيدك، لو تكلم الموتى... لاستيقظ ابنك من الطابق المغلق ليخبرك، أنك مريض وحقير. أنا ألعن كل يوم جمعني بك.
ألعن كل يوم كنت أقتدي فيه بك، حتى مات ابني ولم أخبره كم كنت أحبه... وأنه أفضل شيء كان في حياتي.»

صدم صراخ جوبان وكلامه القاسي الجميع بما فيهم إدغار، الذي كان على وجه الذهول، وعيناه تتحركان في كل الاتجاهات، يشعر أن الجميع يراقبه... ويحاول أن يلملم شتات نفسه ليتحدث.

إدغار: «منذ متى وأنت تراني هكذا، مريض... أحمق، أنا أعرف ماذا تحاول أن تفعل... أنت تكذب. لقد كان ابني مطيعاً وأحببته، لم أتمنَّ شيئاً أفضل لشخص سواه.

لقد كان كل شيء لي وهم سلبوه مني، مات ابني رجلاً في الحرب بعكسك مجرد جبانٍ يتقول بعض الكلام ليغطي جبنه، أردت إعطاءك فرصة أخيرة، لكن الآن سوف أثبت لك أنهم مجرد حيوانات، أيها الحراس فكوا وثاق المرأة وقيدوا جوبان في موضعها.»

الحرية... كلمة تحمل في طياتها الكثير من السحر. كان عرض إدغار أن من سوف يضرب جوبان بالسوط **50** ضربة سوف يحرره، زادت أنفاس الجميع وتبادلوا النظرات من سيقف لينال حريته... كانت دماء المقتول من الألمان ما زالت تسير بينهم، لم يستطع أحدهم الوقوف، وضعوا كلتا أيديهم على الدماء، يقدمون احترامهم واتباعهم لذلك الشخص، أما الغجر عانوا من الظلم والقتل طيلة حياتهم، فلن يهاجموا رجلاً أبيض نصرهم ودافع عنهم للمرة الأولى... كرر عرضه مرة ثانية لكن لم يقم أحد... فأمر أحد الجنود كان (قائد الحرس من منطقة العمل) أمسك السوط... وصار يضرب

جسد جوبان... كان ينتفض مع كل ضربة ألماً. فتمزقت ملابسه بسبب الشفرات الصغيرة في آخر السوط، وتساقطت دماؤه بشدة وأصبح يتطاير بعضٌ منها علينا مع كل ضربة، حتى اختلطت دماء جوبان مع دماء الألماني المقتول على الأرض وامتزجت لتسير معاً دون فوارق... ظل يضربه حتى فقد وعيه.... فأمر إدغار أن يضعوه في السجن معنا. حمله اثنان من الجنود ووضعوه داخل الشكنات.

التف الجميع حوله كل شخص يحاول المساعدة في مداواة الجروح بما أتيح لدينا، نحاول أن نجعله يفيق في تلك الأثناء كان الجميع يتحرك في كل زاوية غير ملاحظين ذلك الخط الفاصل بيننا والجميع يتعاونون. سقط الخط العرقي في ذلك اليوم.

جوبان: «لا تقلق يا فتى لن أموت، أممم... لم أرَكم بجوار بعضكم هكذا من قبل، أوه... ماذا هل تتنافسون على من يقتلني!!»
كين: «حقاً... هل هذا وقت مزاح... إدغار لن يتوقف حتى تموت. أنا آسف كل هذا بسببي»
جوبان: لا... بل أنا آسف أني لم أتكلم منذ البداية. لا تقلق لن يستطيع قتلي، إن فعلها سوف يفقد منصبه لهذا سوف يخبرهم بعصياني وسوف يأتون لأخذي للمحاكمة.

نوبات الحراسة كان مزدوجة... للسهر على رعاية جوبان في مرقده، حتى يشفى... لكن حالته كانت تسوء يوماً بعد يومٍ، فتحول جسده من البياض الناصع... إلى اللون الأزرق، وشحبت بشرته بعد صفائها، واحمرت عيناه حتى غاب لونها الأزرق تماماً... وأصبح يرتعش من البرد... مع العلم أننا في يونيو الأكثر حراً بين الشهور. يتمتم ببعض الكلمات الغريبة، أنه فعلها... وظل هكذا خمسة أيام متواصلة، حتى أفاق بشكل طفيف وأصبح قادراً على الكلام، لكن بصعوبة.

جوبان: «أن أموت بفكرة من أفكاري... أمر مثير للسخرية، حينما كنت مجرد جندي صغير، كان هناك عصيان في الجيش وأراد القائد قتلهم، بشكل غير مثير للريبة، فأشرت عليه أن نقوم بجلدهم كنوع من العقاب... ونضع بعض الشفرات المسممة في نهاية السوط... هه... فلن يلاحظ أحد الأمر. يموت ببطء عندما يتوغل السم لجسده، يموت بطريقة سهلة ونظيفة. لست فخوراً بما كنت أو فعلت في السابق.

ليس مهماً الآن... أنا سعيد أنني سوف أجيبه سوف أخبره يا فتى... إنكم... هه... إنكم كنتم ممتنين»

كانت هذه الكلمات الأخيرة لجوبان منقذنا، لقد ذرفنا الدموع عليه بل كان يواسي بعضنا البعض كالعائلة، فعندما ارتفع أنين البعض على موته...

سمعنا أحد الجنود عند قيامه بدورية نهارية... فذهب مسرعاً ليبلغ إدغار، فرحاً بموت الخائن، وينتظر الحصول على مكافأة لهذا الخبر السعيد. أجفله صراخ إدغار وصياحه الذي اجتاح المعسكر بأكمله، وسبه للجندي بإهانات عديدة. وقدم مهرولاً إلينا وعلى وجه الدهشة والذهول.

إدغار: «ما... ماذا... ماذا يحدث هنا... أيها الأوغاد، أنتم فعلتم هذا... سوف أقتلكم جميعاً»

ينظر إليّ تارة وتارة أخرى لجسد جوبان... سقط على ركبتيه... واحتضنه وهو يغمغم...

إدغار: «انهض... أيها الحقير انهض، أنت لن تموت وتتركني أيضاً. لن تقتلك بعض الضربات... أنت قوي... أقوى من أي شخص هنا. فهمت أنت تتظاهر بالموت حتى تجعلني أشعر بالأسى... لا.... لا أيها الوغد فهمت ماذا تفعل، لن تخدعني. جوبان أنت أخي، كل ما أردته، أن أعيدك لصوابك وأن تقف بجانبي كما تفعل دائماً... لا تتركني أنت أيضاً».

كين: «لقد توغل سم الشفرات لجسده... لم يعد معنا. فاضت روحه بالفعل»

إدغار: «سم... أي سم... ومن وضعه! لا... جوباااااان»

الفقدان... شعور مر به معظمنا... وقد لا أبالغ إن قلت جميعنا، فنعلم جيداً آلامه وصدق مشاعره، لم يكن إدغار يزيف مشاعره. كان لا يعلم بأمر السم... فظل يحتضن جسد جوبان ويبكي لمدة طويلة. رفع رأسه رويداً... وعلى وجهه غضب عارم كأنه تذكر أمراً ما، فوضع جسد جوبان أرضاً، وهو يكشر على أنابيه... ويصيح بأعلى صوت له: «باااااانر».

أخذ بندقية من أحد الجنود خلفة، وسار في المعتقل كالثور الهائج... يبحث عن بانر (قائد منطقة العمل) رجل عجوز يبلغ الـ ٥٠ من عمره... قصير القامة، خبيث النية. خاف أن يتفوه جوبان ما هدده به سابقاً... فوشى به، وأشار على إدغار بوضع الشفرات وكان المسؤول عن تحضير السوط. لم يكن يعلم أن هذه الفكرة من أفكار جوبان منذ زمن. بحث عنه إدغار في كل المعتقل. لكنه هرب قبل أن يتمكن منه.

خيم الحزن على المعسكر بأكمله... جلب إدغار صندوقاً خشبياً ووضع جثمان جوبان بداخله وجلس بجانبه 3 أيام يرفض الطعام. في اليوم الرابع أتى زعيم جديد ليخلف إدغار... ومعه الكثير من الجنود لمرافقة موكب الجثمان إلى أرض الوطن... لكنهم رحلوا بصندوقين... كان الجميع في حيرة شديدة لمن الصندوق الثاني. عرفت الإجابة حين تأملت وجه إدغار... يسير خلف الموكب بالكاد حياً... لكن ملامحه شاحبة مازال متأثراً بالصدمة. كنت متعجباً، لمَ يتألم إدغار من موت جوبان هل فقدانه رفيق

عمره يماثل فقدان أحد عائلته؟ قائد شجاع قوي انهار لمقتل صديقه، لحظة غضب عارمة أنهت حياة جوبان ودمرت المتبقي من حياة إدغار. أصبح إزهاق الروح لا يمثل سوى لحظات ولكن يبقى الندم لنتعايش معه طوال الحياة.

رحل إدغار للأبد... يرافق صديقه لموطنه الأصلي، غضب الكثير لرحيله، أملاً في أن يأتي يوم ويقتلوه بأنفسهم، لم يعلموا أن إدغار قتله الندم واليأس لحظة موت جوبان، وقدم إلى المعسكر مجموعة من القادة وكان أعلاهم في الرتبة هو (إدوارد). تشاور في العمل حول معتقل (أوشفيتز) بعد مقتل جندي غدراً من جندي آخر ساءت سمعة المعتقل عند القيادات العليا، حتى إن بعضهم اقترح إخلاءه وضمه إلى باقي المعتقلات الأخرى. لم يثنِهم عن قرارهم سوى إدوارد كان له رأي آخر، ويتلخص في استضافته جزء من القيادات وعمل مسابقة ضخمة في القتال... للترفيه وحتى يظهرون أهمية بقاء المعتقل وأيضاً إظهار قوتهم في السيطرة عليه، كان نوعاً آخر من القادة، منحنا شهراً كاملاً لا أحد يعمل بأي عمل مرهق، وأشرف على مداواة كل الإصابات لدنيا، وقدم لنا أفخم الطعام... لحم البقر... اممم كان طيباً كما وصفته نافارو، لم نفهم ماذا يحدث لكن السعادة داخل الثكنات تحققت عند إزالة الفوارق، كنا مسوخاً وأصبحنا بشراً. مرت الأيام على هذا المنوال المتكرر حتى قرر إدوارد أن يعقد أول اجتماع بنا جميعاً في ساحة المعتقل.

إدوارد: «أهلاً بكم جميعاً... كان ينبغي أن يتم هذا الاجتماع في وقت أبكر... لكنني وددت أن تستريحوا أولاً. فأنا أعلم أن الجميع قاسىَ من طغي إدغار. لكن لا تقلقوا... الأمر مختلف الآن... في الحقيقة تريد القيادة إخلاء المعتقل ونقلكم إلى (أكرا)... هناك الأمر مختلف لا يرى الفرد الشمس سوى بعد الموت، أيضاً النساء لن نعرف مصيرهن، فأي شيء وارد حدوثه لهن، لذا أعددت خطة بسيطة سوف نقيم مسابقة ضخمة بين الأبطال... لا تتعجبوا نحن نعلم كل ما حدث هنا... لذا سوف يقاتل أرداف ضد تاجرو... وسوف يقاتل كين ضد جيار... أمام بعض زعماء القيادة، أثناء زيارتهم المعتقل. أتوقع أن تجعلوني فخوراً... فأنا لم أفشل من قبل... لذا فكروا في نسائكم قبل فعل أي شيء لأني عندما أغضب سوف تعلمون أن إدغار كان... رحمة»

بالفعل كان محقاً... إدغار كان صريحاً حتى في شروره، أما إدوارد مثل الأفعى، تلتفُّ بلطفٍ حول عنق فريستها ولا تكشر عن أنيابها، إلا عند قتلها وهذا ما يجعلها خطيرة.

أعطانا **30** يوماً آخر نأكل، ننام، نتدرب على هذا المنوال، حتى موعد القتال... مرت الأيام سريعاً، ولم يبقَ سوى **5** ليالي ويحضر رجال القيادة. في هذا اليوم كنت أجلس في الزنزانة أتناول الفطور. اقترب عجوز من

الآري، وتساءل هل سوف نتقاتل أنا وجيار... وهل سوف نسمح لهم أن يجعلونا نمزق أنفسنا بأيدينا مرة أخرى. هممت أن أجيبه بما في قلبي... لكن قطع حديثنا، صوت جيار المرتفع وهو يتشاجر ويلكم أحد رفاقه. تدخل الجميع لفض النزاع، فلكمني في وجهي دون أدنى سبب، كنت أحاول تهدئته... اشتطت غضباً وهجمت أنهال عليه بالضرب، فرد من الآري وآخر من الغجر لم تشتعل الحرب بل فضوا النزاع، رغم أني أريد قتل هذا الأحمق، غمرني شعور بالبهجة، أننا جميعاً أصبحنا بشراً لا فرق بين أبيض وأسود وبني، فقط الصواب والخطأ هو ما يحكم علينا جميعاً. انتهى اليوم بسلام حتى موعد مرور إدوارد المسائي للاطمئنان على استقرار الأمور كما يفعل دائماً. حينها رأى وجهي وإصابات جيار، وتحدث صاحب المشكلة وقال ما فعله جيار، غضب إدوارد وصاح في وجه جيار.

إدوارد: «أيها القذر... لم يبقَ سوى أيام قليلة وسوف تقاتله، لن أضحي بكل هذا من أجل وغد مثلك... سوف أجعلك عبرة للجميع... افعلوا الترتيبات اللازمة وأرسلوه إلى (أكرا)، لن أخاطر بوجود أمثاله هنا...»

كان الأمر صادماً وعظة للجميع من يخالف قانون إدوارد سوف يرحل على الفور. لم نعُد إلى الثكنات، رحلنا في طريقين مختلفين، جيار إلى سجن فردي حتى رحيله وأنا إلى المشفى للتأكد من صحتي لأجل القتال. أخبرني

إدوارد قبل ذهابي للمشفى أنه سوف يدبر أمر قتالي مع أحد يشبه جيار، حتى لا يخلف وعده مع القادة. لكنني لم أعِره أدنى اهتمام، كل ما أفكر به أني سوف أرى كارلا مرة أخرى.

كين: «تباً... لم أرَ شخصاً كل يوم يزداد جمالاً!»

كارلا: «وأنا لم أرَ شخصاً يُضرب كل يوم... ما فعلته المرة الماضية لا يصح لقد انصدمت لهذا لم أعرف كيف أتصرف، لا تفعلها مرة أخرى هل فهمت!»

كين: آسف... لم أقصد أذيتك بالتعبير عن مشاعري... أنا تصرفت بحماقة أعتذر... وشكراً على كل شيء.

أحد الجنود: هل انتهيتِ من معالجته؟

كين: «لحظة واحدة... سيدي»

كين: «هل يمكنك مداواة ذراعي الأيمن ما زلت أشعر بالألم في كف يدي.»

كارلا: «حسناً... اممم... تبدو بخير، التأمت جروحك بالفعل. فقط تناول هذه الأقراص وسوف يزول الألم»

الجندي: «هيا بنا... سوف نعود»

لا تسير الحياة كما نريد، فلا نختار من نحب ولا من نكره، مضى اليومان وتم تجهيز جيار للرحيل، أردت لقاءه توسلت إلى إدوارد، لم يوافق إلا أنه

رأى أن إحسانه أمام الجميع سوف يكون جيداً، ويعزز موفقة كقائد عطوف تجاه المطيعين.

الجيد والسيئ تذكرتُ كليهما وأنا أقف أمام جيار... تصرفت وفقاً لعواطفي... احتضنته وأنا أبكي. اخترت أن أسامحه على كل شيء. شكراً لك على إنقاذ حياتي، بدا لي أنه كان ينتظر تلك الكلمات، ربت على كتفي وهو يعتذر عن كل شيء قبل رحيله.

****

الفصل الثاني عشر

سقوط أوشفيتز

تنشأ الصراعات في نفوسنا منذ الولادة، أي الجانبين يفوز الخير أم الشر؟ كان تفكيرنا مشتتاً هل نثبت على عهد جوبان، أم نقاتل خوفاً على أنفسنا من شر إدوارد، انقضت الأيام المتبقية. وتمت تجهيزات ضخمة لاستقبال القيادات، في اليوم الموعود، قَدم مجموعة ضخمة من الجنود يوسطهم 5 بلباس عسكري فاخر مرصع بالأوسمة والنجوم، يأتون لرؤية بشر مثلهم يجبروهم على القتال، وكأن تلك الأوسمة يحصلون عليها كلما انحطت أخلاقهم وتشبهوا بالحيوانات عديمة الرحمة. أقام الجنود حلبة ضخمة لقتال الليلة الرئيسيّ قائد الآري ضد قائد الغجر، هذا وصفهم للأمر أما نحن نرى رجلين من وطن واحد يتقاتلان لتسلية الأعداء، أشرق الصباح ليخرج الجميع لمشاهدة النزال. تم نصب منصتين واحدة للقتال والأخرى للقادة... في منظورهم هم أعلى شأناً منا، لن يتساوى أحدهم بنا... هههه فليست لدينا ملابس مرصعة بالأوسمة والنجوم. صعد أرداف وتاجرو إلى حلبة القتال، وتقدم إدوارد لشرفة المنصة ليقول خطابه.

إدوارد: «نحن نكن الاحترام لمختلف الأعراق... و... وهذه المسابقة هي منافسة للقوة والمهارة، التي يتعامل المرء من أفراد عرقه جيلاً بعد جيل... لهذا هناك قوانين جديدة للقتال فلن يكون هناك استلام، بل يعيش الأفضل... باختصار بسيط حياتك بين يديك... والآن اسمحوا لي أيها السادة أن أقدم لكم قتالاً حتى الموت بين قائد الآري أرداف وزعيم الغجر تاجرو... هياااا امتعونا بالقتال.»

لم يتحرك تاجرو ظل واقفاً ينظر إلى السجناء تارة وإلى القادة فوق المنصة تارة أخرى... ثم تقدم بعض خطوات لأمام نحوهم وغمغم قائلاً: «لا... لن أقاتل أبناء وطني، غجري أو آري نحن جميعاً بشر. اللعنة عليك أيها المسخ.»

انصدم الجميع من تصرف تاجرو، وأصابتهم الحيرة والذهول من التغيير المفاجئ له رغم أنه لم يكن معنا ويشهد على تغير الجميع. اسشتاط إدوارد غيظاً... وأمر أرداف بقتل الخائن تاجرو، كما وصفة حينها. تحولت جميع الأنظار نحو أرداف... تنتظر مقولته.

أرداف: «نحن نتأسف سيدي... ذلك الغجري الهمجي لم يتعلم كيفية الأدب... في الحديث مع الزعماء، هو يقصد تباً تلك أيها الداعر أنت... والعجائز خلفك»

نعم... أجل... هتف الجميع ليوافق فعلهم، تضامناً معهم وأصبحوا يهتفون معاً، تباً لكم أيها الأوغاد، تصاعدت الأحداث سريعاً. قبل أن يتكلم إدوارد، وقف زعيم القادة وتقدم نحو الشرفة يقول: «أطلقوا النار عليهم... اقتلوهم جميعاً» فجأة ارتدت رأسه للخلف كأن شيئاً أصاب رأسه بقوة وصار يتحرك يميناً ويساراً... وتسيل الدماء من ثقب في رأسه وسقط من فوق المنصة على الأرض. لم نسمع أصوات نيران... لكن تساقط الجنود صارخين، بالتأكيد أصابهم شيء لم نعرف ما هو... كنا في صدمة، حتى انفجر الجانب الغربي ليظهر وميض قوي يصاحبه توهج نيران ضخمة إثر الانفجار والحطام يتطاير في كل مكان محملاً بالغبار وأصوات تشجيع اهجمواااا... دخل أفواج من الرجال يقاتلون لأجل تحريرنا، تحركت المساجين للمساندة على الفور رغم تكبيل أيديهم، انطلقوا ناحية الجنود المقربين في شكل مجموعات يقاتلون بأرجلهم... تحول الأمر لمشهد مرعب عندما... رأيت أحد السجناء يهجم على أحد الجنود بأسنانه... حتى انتزع قطعة لحم من رقبته، تخلص منه الجندي بصعوبة وهو يصرخ مهرولاً في أرجاء المعتقل يحاول إيقاف النزيف بيده، حتى رأى أمامه أحد قادته... انطلق ناحيته ليغيثه. أطلق النار عليه وقتله حتى لا يعيقه ويستطيع النجاة هارباً... لم يكمل ثلاث خطوات نحو باب الهروب، انقضت عليه مجموعة من المساجين وقتلوه. الوحيد المتبقي من القادة نزل من أعلى المنصة مشهراً سلاحه يضرب كل من أمامه حتى فرغت ذخيرته. قتل الكثير منا...

انطلقت نحوه للهجوم عليه وأنا أصرخ أيها اللعين... تمكنت من إسقاطه أرضاً، ووجهت إليه الكثير من اللكمات حتى صار وجهه مشبعاً بالدماء وتكسرت بعض أسنانه، بصقها مع الدماء المسال من فمه... كنت منهمكاً في تلقين هذا الوغد درساً، لم أنتبه لمن خلفي حتى تكلم... كان صوته مألوفاً تمتم قائلاً: «ما زلتَ تقاتل كالفتيات»

كين: «جيار!! ما يضحك أيها الأحمق، اذهب وقاتل أحداً ما، ولماذا تأخرت... كنا سوف نموت جميعاً بسبب خطتك الغبية»
جيار: «ماذا!!! خطتي خالية من العيوب... وقد أثمر اتحادنا واليوم هو سقوط أوشفيتز... تباً انخفض»

عندما ذهبت إلى جيار وأنا أوبخه على وقوفه هكذا، أفاق القائد وضربني في مؤخرة رأسي بحجر، سقطت على الأرض... شج رأسي وانهمرت الدماء منه. بعض دقائق، وأصبحت الرؤية مشوشة، ولم أعِ شيئاً بعدها... آخر ما أتذكره أنّ شخصاً أتى لم يسبق لي رؤيته وحملني على كتفه، كان رأسي متدلياً للأسفل ويتأرجح يميناً ويساراً، وأنا أخرج من عند أوشفيتز... فاقداً الوعي تماماً كما أتيت إليه.
لا أعلم كم غبت عن الوعي، استيقظت على سرير دافئ بغرفة صغيرة منمقة، وكان يبدو أنّ أحداً اعتنى بي جيداً.

خرجت من الغرفة لأجد تاجرو، وجيار، أرداف، والرجل الغريب الذي أخرجني من المعتقل، حول مائدة مستديرة يتناولون الطعام والشراب ويتبادلون أطراف الحديث وهم يضحكون. أول من انتبه إليّ هو الرجل الغريب، وقف يرحب بي ودعاني للجلوس معهم.

كين: «مرحباً... امم... كم غبت عن الوعي؟»

جيار: «أوه... في الحقيقة 3 سنوات»

كين: «ما... ماذا!!»

الرجل الغريب: «جيار توقف عن إزعاجه، أنا آسف كين، ابني فقط يمازحك لقد غبت عن الوعي يومين لا أكثر»

كين: «ابنك! أنت والد جيار؟»

والد جيار: «أجل... سررت بالتعرف إليك. سوف تعلم كل شيء لا تقلق، لكن أولاً أريد أن أعرف كيف استطعتم إتمام الأمر... وتدمير معتقل أوشفيتز؟!

كين: «إذاً... لم يخبرك جيار!»

والدك جبار: «رفض الحديث لعدم تواجدك، لكن الآن سوف يبوح بكل شيء، أنا متشوق لسماع القصة»

جيار: «حسناً... حسناً، سوف أبدأ. تغيرت الأمور عندما ألقى الجنود كين داخل زنزانتي... في البداية ظننت أنه مجرد شخص آخر سوف أقتله. لكنه

كان مختلفاً، ذكر الكثير من الأسماء وكان يتساءل عن أشخاص من قريته، عندما كان فاقداً للوعي... كان قلقاً على سلامتهم برغم كل ما يعانيه. لهذا كان الاختيار الأفضل، و... وأيضاً كونه من الغجر أضاف إليه أهمية كبيرة. أنا لم أقصد التفرقة أو شيء سيّئ لكن لكي تنجح خطتي كان لابد من تعاون مشترك بين جميع المعتقلين ولن يثق الغجر التي بلغ عددهم نصف المعتقل إلا في أحد منهم... وأيضاً (الأفارقة) يثقون بالغجر بشكل كبير. لهذا أخبرته بالحقيقة الكاملة... وأني لم أعتقل بل جعلتهم يعتقدون هذا، فأنا لست شخصاً بسيطاً، تربيت على فنون القتال والدفاع عن النفس منذ صغري وتعلم فنون التخطيط الاستراتيجي، وفن الخداع البصري واستخدام الأسلحة بمختلف أنواعها. لم يمتلك أبي الجينات الوراثية الأزمة ليكون من ضمن العرق الآري المختار، لكنه ارتقى في الشرطة بمهاراته الفريدة في القتال، حتى أصبح من ضمن أفضل **10** مقاتلين محترفين تستخدمهم الحكومة لتصفية أعدائها. تعلمت منه كل شيء، حتى أصبحت هكذا.

عندما أسروا كارلا أختي لم يكن هناك حل آخر، سوى أن أقع في الأسر لإنقاذها، معتقل أوشفيتز مؤمن بقوة وحصين ويصعب اختراقه.

أرداف: «مهلاً... أنت قلت كارلا أختي هل تعني تلك الفتاة من المشفى!!»

تاجرو: «لم يخبرك!»

أرداف: «ماذا... هل كنت تعلم؟»
تاجرو: «لا... أنا أتساءل أيضاً!!»
أرداف: «إذاً، اخرس... لم أسألك»
جيار: «الهدوء... كلاكما لا يعرف، ودعوني أكمل»
أرداف: «حسناً... أنا أسمع، قل كل ما تخفيه»
تاجرو: «أوه ... أنا لا أهتم بما تخفيه... ولن أقاطعك لا تقلق»
جيار: «جيد.... بعدما أصبحت في عهدة إدغار تصنعت الضعف والبؤس، كان من السهل التنبؤ بتصرفاته وأنه يريد التحكم بكل شيء حوله والسيطرة على مصير الأفراد ودفعهم للهلاك، جعلته يعتقد أنني أفعل ما يريد، لكنه في الواقع كان يفعل ما أريد منذ البداية. كنت أخشى أن تراني كارلا وتبدو عليها علامات الدهشة وأن يلاحظ أي أحد، لهذا تصنعت الخوف من المشفى، وكنت أرجو من إدغار دائماً أن تتم مداواتي في السجن، استجاب لطلبي لأني لعبة لطيفة يحكم أصابعه حولها. ويحركها كيفما شاء.

الشخص الأمثل الذي كنت أبحث عنه منذ دخولي، هو كين فكان مناسباً للأمرين أن يمهد الطريق لمعرفة كارلا بوجودي وأني أريد مساعدتها، والمساعدة من شعبه، خطتي تغيرت لمرات كثيرة بتغيير الأحوال في المعتقل غير المستقرة، هناك أمور كانت في مصلحتنا وأخرى ضدنا، لكن في

النهاية كانت هناك خطوات رئيسة لم تتغير وبدأنا بها على الفور، أولاً تحقيق التحالف بين القادة في كل الثكنات، وموافقتهم على المشاركة والمساندة في وقت القتال الحقيقة.
ثانياً: معرفة أعداد الجنود بالتقريب ووقت تجمعهم في الأزمات العصبية، ومعرفة الخونة في الثكنات، لأن هناك الكثير من الأخبار كان يعلم بها إدغار بشكل غريب.
ثالثاً: رسم توضيحي للمعتقل بالكامل، وأماكن الضعف والقوة.
رابعاً: كيفية خروج المعلومات للخارج لجلب الدعم.
تلك كانت النقاط الأساسية... وكل الأمور الفرعية التي تغيرت مع تغير الظروف كانت تهدف لتحقيق هذه الأمور.

شرحت الخطة بالتفصيل لكين... وأخبرته أيضاً، أن الجرح بيده لم يتم كيه بشكل صحيح، وفي القريب سوف يتسمم، ومن المحتمل أن يهلك، ولن يستطيع إنقاذ أفراد قريته. فإن تركته يحيا سوف يدعه إدغار يموت، لكن إن قمت بعلاجه وأنقذته، سوف أدفع إدغار للإبقاء على حياته... لهذا أعطيته الخيار... فقدان كين ليده هو سبب خروجنا أحياء من ثكنات الاستقبال، إدغار كان يكرهه بشكل خاص ولم أعرف السبب، وأعتقد أنه تعمد عدم مداواة جرحه بشكل صحيح حتى يتسمم ويموت. دفاعي عنه

وانقلابي على إدغار جعله يشعر بالهزيمة وفقدانه لتحكمه المزعوم بي، لهذا عاقبني ووضعني في ثكنات الأسرى وأبقى على حياة كين كما خططت.

بدأت الخطوة الأولى وبالفعل التقيت بأرداف وتأكد أنه يمكن الوثوق به، وهو من أخبرني أن تاجرو سوف يتفق معنا مادام الأمر في صالح شعبه، وعندما خرج كين وضعه إدغار معي كما أردت، لأنه يريد أن يعرف اللغز بيننا، لقد اتبعت غريزتي وأيضاً مرض إدغار نحو السيطرة والتحكم في كل الأفراد، لكن لا يعرف أنه يتبعُ خطايا من البداية، الحظ كان حليفنا بسبب معرفة تاجرو القديمة بعائلة كين، هذا الأمر سهل الكثير، وبقي على عاتق أرداف وتاجرو إقناع الزعماء الآخرين، ويتركون لنا الباقي.

تقاليد القتال في المعتقل... حلت أمر التقاء كين بكارلا، من المفترض أن يقاتل ويحقق الفوز ويترك منافسة، بمنحة حرية الاستسلام... أنا لا أعرف إلى الآن... ماذا حدث!»

أرداف: «كان زعيماً صالحاً... كنت أعرفه، حقق الكثير من الإنجازات، لصالح الوطن. أبرمت معه عقداً في أن يكون متساهلاً مع كين، دماؤه تلوث يدي... ويدك أنت أيضاً لمَ فعلت هذا؟ أنت مدين لي بتفسير»
تاجرو: «هاااي... اهدأ، أعتقد أن لديه أمر يريد قوله، أخبرهم»

كين: «بطل.... إنجازات، دعني أخبرك بعضاً منها، لقد كان هو القائد الذي أخذ أبي والجميع للموت، قضى على طفولتي وحياتي، والكثيرون من القرية أصبحوا أيتاماً بسببه، وعندما سألته عن أبي ركلني بقوة وذهب. لكني لم أقتله لهذا، نزعت رأسه لأنه لم يتعرف عليّ، رغم أنه كان السبب في كل شيء سيّئ مرَّ بي كل تلك السنوات، كان يعيش حياته غير مبالٍ بما فعله. لقد استحق هذا»

أرداف: «أنا... أنا لم أعرف، لماذا لم تخبرني؟»

كين: «تعايشت مع الأمر، مثلما فعل هو»

والد تاجرو: «تباً... اممم... أرى أن نؤجل الحديث حتى يهدأ الجميع»

كين: «لا... سوف أكمل أنا. لم يتم الأمر على الوجه الأمثل لقتلي إياه، لكن تم نقلي للمشفى، كما أراد جيار لتحقيق أول مهامي، بإخبار كارلا أن أحد أفراد أسرتها هو من أرسلني، تغزلت بها وذكرت القرية المختلفة والشجرة القائمة في منتصفها، بالضبط كما وصفها لي... وبالفعل جعلها كلامي منتبهة، حتى أنها أشارت إليّ على أحد الثقوب بأطراف أصابعها، كان أحد الجنود يستمع لحديثنا، لهذا كنت لا أتكلم معها سوى بالغزل والحب.

جيار: «حسناً يكفي الحب والغزل سوف أكمل... عند عودة كين من المشفى كان لابد من إتمام ما تبقى من الخطوة الأولى وهي الاتفاق مع جميع القادة على الاتحاد... لكننا لم نخبرهم بالخطة، فقط أخذنا عهدهم على المساعدة وقت الحاجة القصوى، لهذا كان لابد من نزاع أرداف وتاجرو في

الزنزانة حتى نقوم باستفزاز إدغار ولا يجد سبيلاً سوى نقلهم ليقلل شأنهم وقوتهم أمام الجميع، أما الواشي... فقد علمناه أيضاً بسبب هذا النزاع، فلن يخسر إدغار عينه داخل الثكنات وسوف يميزه في العقاب المُنزل على الجميع. عندما أخذونا للعمل في الصخور، أخذ أحد الحراس رجلاً يبلغ من العمر 32 عاماً ليقوم بتنظيف المكان من الدماء، لم يكن الاختيار عشوائياً بل كانت عين هذا الجندي تبحث عن شخص بعينه حتى وجدوه.»

كين: «من هنا يأتي دوري... فلم يتلخص هدفي في إخبار كارلا أنّ أخاها هنا، بل أن أطلب منها رسماً توضيحياً من شرفة المشفى، حيث كانت النقطة العليا وتكشف كل المعتقل، ولإتمام هذا كان لابد أن أجعل أحد الحراس يتعاطف معي ليقول لي ما أريد... لكن هذا حدث بالمصادفة. جوبان، أنا لم أقُل له شيئاً ليتعاطف معي، بل كان شخصاً رحيماً، أخبرت كارلا بكل شيء عندما استدار جوبان في غرفة المشفى بحجة أنني أريد أن احتضانها... لكن لم يحدث لقد كانت خدعة فقط أقسم لكم... أيضاً وهو من أنبأني بكيفية خروج المعلومات عن طريق الاستسلام في الحلبة، حيث إن من يستسلم يُنقل لمعتقل (أكرا) بعد يومين ولا يرافقه سوى حارسين فقط.»

جيار: «بالضبط... كان من المفترض أن أتحدى كين وأستسلم ليتم نقلي لكن موت جوبان... عقّد الأمور... وأيضاً ظهور إدوارد. أنقذنا من هذا الموقف غرور وطمع هذا الشخص للنصر، كان يريد المجد بأي ثمن لا يريد أن يتحمل الخسارة... لهذا تشاجرت مع الواشي في الزنزانة كنت أعرف أنه سوف يخدم سيده الجديد وينقل كل ما حدث، آثار القتال كانت غير واضحة لكل المارة لكن أتى إدوارد ولاحظها لمعرفته بما جرى مسبقاً، كانت تلك المشاجرة مفتاح خروجي من السجن لنقلي لمعتقل أكرا والهروب وجلب التعزيزات مع أبي.»

والد جيار: «جيار ما زلت لم أفهم كيف قمتم بجمع المعلومات وكيف أخذتها... على حد علمي المعتقل يتم تفتيشه دائماً»

كين: «سوف أخبرك أنا... إصابتي في يدي اليمنى من الفأس، كانت من الخطة لأنها كانت الوصلة الأخيرة لأخذ المخطط من كارلا وأن يكون لي عذر لربط يدي برباط دائم ولكن الأمر، كان أروع من المخطط له بظهور جوبان، بعد قتال جيار مع الواشي، ثم معي، أرسلني إدوارد للمشفى كما توقعنا ليتم التأكد من سلامتي وهناك أردتها أن تفحص يدي... في الواقع لتضع المخطط في يدي اليمنى وأيضاً سرقت أحد أدوات الجراحة، ثم توسلت لأجل وداع جيار اعتماداً على شخصية إدوارد، وأنه سوف يوافق حتى يظهر بمظهر رحيم أمامنا، كان كالذئب متخفياً في مظهر بشر، فأردت احتضان جيار حتى أرسل معه المخطط وأداة للقتال.»

أرداف: «تباً لم أعرف تلك التفاصيل، أخبرتني أشياء مختلفة!»
تاجرو: «وأنا أيضاً... أخبرني كين أشياء مختلفة!»
جيار: «أنا آسف أرداف... أنني لم أخبرك بالحقيقة كاملة، فعلت هذا من أجل صالحنا جميعاً»
أرداف: «لا عليك... أعتقد إنْ كنت جندياً، لن نخسر حرباً أخرى أبداً»
كين: «أنا أيضاً آسف تاجرو... أخفيت الخطة خوفاً من اكتشاف إدغار للأمر... سوف يقتل من خطط لهذا، أردت أن أجنبك الأذى، فأنت من ضمن عائلتي»
تاجرو: «اللعنة، أنت تشبه كثيراً، الوغد والدك لكمني ذات مرة، لإنقاذ حياتي... وأنت تضع حياتك على المحك من أجلي... أنت أيضاً عائلتي الوحيدة»
والد جيار: «لم يكن التخطيط الاستراتيجي جيداً للغاية، لكن الثقة كانت مفتاح كل تلك العقبات، أنا فخور بكم كثيراً. لولاكم لما استطعنا تحرير الجميع، كنا نراقب المعتقل بشكل دائم... للبحث عن ثغرة للهجوم. المخططات كانت تحتوي على تفاصيل دقيقة لأماكن الأبراج القتالية، وأماكن تجمع المقاتلين وضعف الجانب الغربي، لهذا يعملون بشكل مكثف لتعزيزه، كما أخبرنا جيار... أنتم الأربعة قمتم بتحقيق المستحيل»

كين: «مهلاً... أنا لا أعلم شيئاً عن ضعف الجانب الغربي، كيف علمت... جيار؟!»

جيار: «بعض الجنود ملابسهم كانت متسخة، عند مفصل الركبة وأسفل البطن... نتيجة حمل صخور، أيضاً هذا الأمر حدث للكثير من الجنود، عندما يغيب لساعات طويلة لا نراهم حولنا مع العلم أنهم مكلفون بمراقبتنا على مدار الساعة وعند عودتهم يكونون مرهقين بشكل مبالغ، ويتكرر هذا الأمر لكل جندي ثلاثة أيام في الأسبوع... مما يعني أنهم في نوبات عمل أيضاً، كما أن الأدوات التي جلبوها كانت جديدة، ومع هذا كان على أطرافها آثار العمل؛ لهذا استنتجت الأمر، وزاد تأكيد أن العمال المكلفين بنقل الصخور لم يصل أحدهم لنهاية الجانب الغربي، بل كانوا يضعون الصخور على مسافة قريبة في شكل أكوام ويرحلون»

كين: «أيها الوغد... أنت لم تخبرني!»

جيار: «حقاً... مؤكد أنني نسيت.»

ضحكنا... وتحدثنا كثيراً ونحن نتناول الطعام الساخن، لم يتعلق الأمر بروعة الطعام والإحساس بالآدمية، بل الود والاحترام المتبادل بين الأفراد، عندما انتهينا خرجت من منزل جيار لأجد أنها حقيقة قرية جيار الخيالية

كانت حقيقة، أعراق مختلفة يعملون سوياً بلا تفرقة، الحب، التواضع، حسن الجوار، الكرم، الأخلاق، والمساواة، هي ما تجعلنا بشراً... تلك الكلمات كانت مكتوبة على لوحة كبيرة فوق منزل جيار ترجمها لي وأخبرني أنها قوانين القرية. حينها توقف في ذهول وأنا أنظر إليه.... وترتسم على وجهه ابتسامة ساخرة. كانت الكلمات التي ذكرتها لكارلا بالنص، ظل جيار يذكرها ويكررها لي على مدار عشرة أيام لحفظها كما هي.
تلك الكلمات كانت اللغز الحقيقي لمعرفة كارلا بهويتي.

حان الموعد المنتظر... أخذني جيار حيث يمكثون، عندما رأيتهم أحياء وبخير، اجتاح قلبي شعور بالراحة والسرور أني حققت حلم نافارو وكنت قائداً كفيلاً بحمايتهم مثل جدي. بمجرد أن رأوني قادم نحوهم... انطلقوا جميعهم نحوي، ويسبقهم الصغار ببعض خطوات مهرولين منهم من يضحك سعيداً برؤيتي ومنهم من يبكي لفقدان يدي، ومعاناتي في الأيام السابقة. أخبرهم جيار بكل ما فعلته من أجلهم، وكانوا حقاً ممتنين كوني قائدهم، لم يرفع بعضهم نظره من الأرض، لشعورهم بالخزي، وأن آخر لحظاتنا في القرية كانت مبهمة وغير مفهومة، وأراد بعضهم إيضاح الأمر، لكني علمت مسبقاً السبب... لهذا طمأنتهم، وأني غير مبالٍ بالمضي، ودعونا نبدأ فصلاً جديداً في الحياة، من هذه القرية.

مضت الأيام سريعاً، بدون أحداث جوهرية، لتغير حياتنا الرائعة في القرية. رغم نجاة إدوارد وبحثه لسنوات لم يستطيع الوصول للقرية... حتى عام (1949) وخروج جيش التحالف الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا، من ألمانيا... أحدث الأمر فرحة عارمة، لكنه امتزج ببعض الحزن، عند رحيل أرداف لينضم للجيش من الجديد. وأيضاً رحيل تاجرو مع بعض رجاله، بحثاً عن أفراد من الغجر من القرى الأخرى لمساعدتهم. رحلوا لكن بأرواح مختلفة، وعين يملؤها بريق الحياة... وتعلم معنى الحب والرحمة والمساواة.

****

الفصل الثالث عشر

الفراق

أحلام تمنيت أن أكتبها، حب، زواج، استقرار، أطفال وسعادة إلى الأبد، يبدو أن الأحلام لا تهواني... وتصبح مستحيلة عندما أريدها... لم تزرني الكوابيس منذ نقل نافارو تلك الوشوم إليّ، في الواقع لم أشعر بقوتها وتأثيرها السحري، لكن تغير كل هذا منذ انتقالنا للقرية، أصبحت تزورني الكوابيس ودائماً تتشابه حيث يفنى الجميع في نهايتها وأنا أتوسط كل هذا معلق في الهواء وتنشق السماء لتخرج منها 7 سلاسل تنطلق 6 منهم نحوي أنا وأبي وأمي وتثقب أجسادنا ويتبقى سلسلة تمتد إلى عرش مظلم، يوسطه كاهلو وبيده تلك السلسلة الأخيرة، وأحياناً أحلم بموت جميع القرية وهناك وباء يفتك بهم، وتخرج دماء سوداء من أجسادهم وينظرون إليّ بخوف... وأشعر أني من أصابهم بهذا الوباء، رغم أن اليأس أحياناً يصيبني كان شعاع أملي هي كارلا... حاولت التقرب كثيراً منها معبراً عن حبي لها، مرات كثيرة وتبقى الإجابة مبهمة... لذا أردت إجابة صريحة، ذهبت إليها وقت الغروب على أطراف القرية في مكانها المحبب، حيث تجلس في هدوء.

كين: «هل يمكنني مشاركتك تلك اللحظة الجميلة؟»

كارلا: «ولمَ أفعل هذا؟! لمَ أعطيك دقيقة من وقتي؟»
كين: لا أفهم، لمَ تتحدثين هكذا... هل أنتِ غاضبة مني؟!
كارلا: «لا... لا شيء»
كين: «ماذا يحدث... أنت تتجنبين لقائي منذ أيام؟»
كارلا: «أنا لا أحبك... لقد فعلت كل هذا في المعتقل لأني أردت النجاة، آسفة. لست الشخص المناسب لي... أنا لم أرَك يوماً زوجي ولن أراك هكذا..»
كين: «فهمت... عن إذنك»

بعض كلمات تكون قادرة على إيذائنا... بقدر أكبر من كل الإيذاء الجسدي، أنا أتذكر يوم قطع كف يدي اليسرى، لقد كان أقل ألماً من شعوري في الوقت الحالي، اختبرت الموت حياً كما لو طُعنت بخنجر من تلك الكلمات، أردت تصديق أننا جميعاً واحد ويمكنني أن أحب وأتزوج من يسكن لها فؤادي ويبتهج قلبي لرؤيتها... لكن ما زالت في النفس البشرية تفرقة عنصرية لم تزُل... هذا الأمر جعلني بائساً والتزمت غرفتي أياماً، حتى طرق أحدهم باب غرفتي كالمعتاد، فأجبته أني لن أخرج... لكن كان الطارق تاجرو، عاد ويحمل في جعبته الكثير.

تاجرو: «تباً... لماذا أنت عابس هكذا؟»

كين: «لا شيء»

تاجرو: «عند الحديث عنها أو رؤيتك لها كانت عيناك تلمع بالود والمحبة... أنا أعرف ما تكنه لها، لكنها لا تستحق أن تكون معك رغم سنك الصغير فعلت أشياء عجزنا نحن عن أدائها وأديت دورك كقائد لقبيلتك، لا تهدر وقتك في الجلوس هكذا، فهناك أشياء كثيرة تستحق اهتمامك منذ الآن.

كين: «ماذا تقصد!، ولماذا عدت؟»

تاجرو: «تجولت في الكثير من البلدان في محاولة تحقيق النجاة لقومنا من الظلم والاضطهاد، حتى وجدت شخصين لابد لك من رؤيتهم هما بالخارج... انتظر قليلاً سوف أدخلهم»

توقعت الكثير، بل تمنيت أن يكونوا من أريد، لكنه أتى بسيده في عمر 30 عاماً وطفل صغير يقارب 4 سنوات بشعر طويل بني ووجهه بريء لم يتلوث من الحياة بعد، لم يسبق لي رؤيتهم... شكل الصغير كان مألوفاً، رغم أني لم ألقاه في حياتي.

تاجرو: «أعرف أن الأمر غريب، لكن هؤلاء هم المتبقون من عائلتك... هذه زوجة أبيك (ديفارا) وهذا أخوك الصغير اسمه (كين) كنية بك»

كين: «هاهاها هل هذه مزحة؟ م... من هؤلاء... زوجته وطفله. وأين هو الآن هل يتزوج بأخرى... هل تركني أعاني وأتحمل مصير الجميع وهو يتزوج وينجب أطفالا ويستمتع بحياته!»

زوجة أبي: «أنت لا تفهم لقد بحث عنك وظن أنك ميت»
كين: «اصمتي... لقد تخلى عني... لا أحد يعلم شعوري عندما فقدته، بعمر 15 سنة، أنا كنت أكافح لإطعام الجميع والاعتناء بهم... وفقدت يدي من أجل إنقاذهم، وأين هو من كل هذا... أخبرتني نافارو عن عظمته، ولكنها كانت مخطئة بشأنه. أنا ليس لدي أب منذ زمن طويل... وليس لدي أي صلة بكم.»

صوتي كان صاخباً للغاية، استطاع أغلب من في القرية، الاستماع لكل ما حدث. خرجت من الغرفة وكان أغلبهم قرب الباب... علموا أن والدي حي، واستبشروا أنه من الإمكان أن يكون رجال عائلتهم أحياء أيضا، لكن لم يفاتحني أحد في الأمر. فلم يتملكني الغضب هكذا من قبل، فدائما اتسم بالهدوء حتى في أصعب الأمور. لكني لم أستطع فكرة تخليه عني.
ذهبت إلى أطراف القرية، لأجلس بهدوء في الهواء الطلق.
وجدت جيار هناك يجلس، ويفعل أمرا ما، بمجرد أن شاهدني أمامه ارتبك، وحاول أن يخفي ما يفعل ويتهرب من سؤالي.

كين: «ماذا تفعل؟»
جيار: «لا شيء يذكر... أمر غير مهم»
كين: «حسناً... دعني أرى»
جيار: «أمر تافه، لا يستحق... أنت ما بك تبدو منزعجاً»

قبل أن أخبره بما حدث، أتى تاجرو، كان يتبعني لكني لم أشعر به. تفاجأ جيار بتواجده... لكنه لم يتكلم اكتفى بالمشاهدة ليفهم ماذا يحدث... تحول وجهي للغضب ثانيةً منتظراً أن يتحدث بخصوصهم مجدداً.

تاجرو: «لم أقطع كل تلك المسافة لرؤيتك وأنت تتركني وترحل... لا يتعلق مجيئي بلم شملك بهم فقط، أنا لم أخبرك بالأسوأ بعد. هناك قائد عجوز في إحدى القرى التي مررنا بها، رأيت وشوماً تغطي جسده تماثل وشوم جسدك، لذا مازحته أنك خدعتني بشأن الوشوم حيث إن العجوز يمتلكها أيضاً، كان لا يبالي بنا في البداية، لكنه بمجرد معرفة أنك تملك وشوماً تماثله وأخبرته كامل قصتك أخبرني أن أجلبك إليه فوراً، وأن أقول لك سوف تتحقق الأحلام إن لم تأتِ ولن يفنى قومك فقط بل سوف يفنى الكثير... لذا لابد لنا من الرحيل الآن.»

جيار: «سوف أرافقكم»

تاجرو: «قد تجد الأمر غريباً، لكن العجوز طلب رؤيتك أنت أيضاً»

ظننت أن الأمور تتخذ منحنى جيداً، لكن من الواضح أن الأسوأ قادم بالفعل. تجهزنا للرحيل... وأثناء هذا أخي الصغير كما يقولون يقف بجوار والدته ينظر إليّ بخوف بسبب انفعالي وغضبي عليهما... ويقف بجانبه جميع قريتي، ذهبت إليهم وودعتهم بحجة أني ذاهب للبحث عن الناجين من الحرب وإعادتهم بخير. واعتذرت لزوجة أبي والصغير كين، وأخبرتهم أنهم الآن في حماية والد جيار.

انطلقنا إلى مكان العجوز، كان يقيم في قرية منعزلة تماماً وتتسم بالهدوء، بالرغم من هذا شعرت برعب تسلل إلى قلبي لم أعهده، كان له مهجع خاص وأمامه اثنان يحرسونه ويتغيرون بصفة دائمة، قالوا لا يُسمح بالدخول سوى لي فقط.
دخلت وجدت العجوز نيفا... اتسعت حدقتا عينيّ من الذهول ولم أتكلم، زادت أنفاسي وأنا أفكر هل هذه هلوسة، أم حقيقة... وجهه مطابق تماماً لما رأيته، لكن جسده كان يختلف، فرغم ملابسه الفضفاضة كان ضخم الجثة قوي البنية بشكل لا يصدق. بادر هو بالحديث لصمتي، وتأملي له لوقت طويل.

نيفا: «أخبرني تاجرو كل ما رويته له. لست أنا من ظهر لك في المعتقل... ويبدو أن الأمر أخطر مما نتصور أجلس لنتحدث قليلاً، ليس كل يوم أقابل أحد أحفادي.»

جلست على جذع شجرة صغيرة يشبه الكرسي بداخل الخيمة، فلم تكن تحتوي على الكثير، سرير واحد في أحد الأركان وبعض الكتب مكومة على منضدة صغيرة وثلاثة من أجذاع النخيل للجلوس... أخبرته بكل ما حدث بالتفصيل في معتقل أوشفيتز، وأنه لا يعلم الأمر بالكامل سوى تاجرو وجيار.

نيفا: «امممم... كل ما أخبرك به صحيح ولكن كيف علم كل هذا وأيضاً لماذا أخبرك بقصتي إلى ماذا يهدف!»

كين: «إذاً من كان؟ هل كان كاهلو؟!»

نيفا: «هذا هو السؤال من كان ولماذا يفعل هذا!! بالطبع ليس كاهلو، سحر أخي ليس بتلك القوة هذا شيء آخر... أياً كان من هذا الشخص، بالتأكيد أراد أن نتقابل وأيضاً لقد أراد أن تحصل على كتب كاهلو... تباً... لقد كان يخطط لهذا، دعنا نرجع إلى الخلف لماذا الجنود اقتحموا الغابات السوداء، أنا زرت هذا المكان من قبل كان بإمكانهم أن يسلكوا طريق المنحدر أو الالتفاف حول الغابة لكن ذهابهم إلى طريق قريتكم ليست مصادفة، كل

ما حدث لك من اعتقال ومعاناة... حتى يظهر لك بمظهري، هو يخطط لهذا من البداية كل شيء حدث لك مخطط له ولكن ما الدافع؟
لابد لنا من اكتشافه هذا أيضاً لماذا أخبرك بموت نافارو لماذا يخبرك بموت شخص عزيز لديك وأنت بداخل المعتقل.... أنت لم ترها وهي تموت أيضاً إن ماتت بالتأكيد جثمانها مازال في للغابات السوداء، هل قبر والدتك في القرية أيضاً؟

كين: «أجل ولكن لماذا؟!»
نيفا: «لدي شكوك بأمر ما وأريد التأكد»

بالفعل استدعى تاجرو وأمره بالذهاب للغابات السوداء والتأكد من جثمان نافارو وأيضاً رؤية جسد والدتي والتأكد من وجود بقاياه... وكذلك أخبر جيار أنه بإمكانه الجلوس معنا بسبب ذكائه الحاد وموهبته الرائعة. جلب نيفا كتب كاهلو وأخبرني... أن هذا الشيء أراد أن تحصل عليها لسبب وأني من نسل كاهلو لهذا سوف أتمكن من قراءة رموزها انقضت 3 أسابيع ونحن نحاول أن نفهم، كانت بضع كلمات غير مفهومة تتكلم عن قصة قديمة قبل بدء الحضارات، غطى الظلام شتات الأرض وعرش تصارع عليه الجميع وتلونت الأرض بلون الدماء، ووعود أثقلت القوى لبدء عصر جديد... كانت كلمات غير مفهومة. لكن جيار تمكن من ربطها هي

وأحلامي السابقة، وظهور السلاسل بشكل خاص التي تخترق جسدي، والشخص الجالس على عرش في منتصف الظلام. كان هناك رابط بين القصتين، لكن لم نفهم سوى أن حرباً قامت من أجل عرش ومات الكثير. قطع حديثنا أحد رجال نيفا غمغم قائلاً: «عاد تاجرو، يبدو عليه أثر التعب والرعب يتملك وجهه ويلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة وتظهر إصابات عديدة على جسده وينزف بغزارة.» أسرعنا للخارج... كان يجثو على الأرض... تتساقط قطرات الدماء من فمه ويتكلم بصعوبة، قائلاً لا تقتربوا.

نيفا: «ماذا بك؟ من فعل هذا. هل صادفت أحد الجنود!»

تاجرو: «لا... لم يكن الجنود، عند دخولي الغابات السوداء كنت أسمع همسات غريبة ظننت أنها أصوات الرياح... حتى دخلت إلى القرية وجدت فوهة عظيمة من الظلام وهناك سيدة معلقة وجسدها ممزق بواسطة 2 من السلاسل والدماء تسيل منها لكن لا تسقط أرضاً بل تسير باتجاه الفوهة لتختلط بظلامها، آاه... جسدي أشعر أنه يتحطم، لا أعرف ما رأيته إن كان صحيحاً، لكن هاجمني (بارو) لقد كان سريعاً جداً. وعيناه مليئتان بالظلام... كان بإمكانه قتلي لا أعرف لما تركني أهرب... أشعر أن شيئاً بداخلي... يمزقني من الداخل»

نيفا: «تباً... ابتعدوا الآن هيا... اهربوا»

ابتعدنا عن تاجرو ونحن نسمع صراخه وهو يمزق ملابسه، حتى أصبح عارياً بجسد أسود، كأن وباءً أصابه. ويتوسط صدره خمسة أصابع... شيء بداخله يريد الخروج، ظل يصيح ويصرخ وأصبحت الدماء تخرج من عينيه وأذنيه... كان يحاول الكلام... لكن حلقة كان مليئاً بالدماء. نظر للفأس بيد أحد رجال نيفا، ثم نظر إليّ يريد أن أخلصه من هذه المعاناة، اختلط صراخي ببكائي، في محاولة أن أتشجع لفعلها... ألقيت الفأس بكل قوتي، تمكنت من إصابة قلبه... سكن قليلاً، ونظر إليّ مرة أخرى مبتسماً، ثم سقط أرضاً، وتحول جسده لغبار أسود. وقف نيفا بجواري تمتم قائلاً: «أعلم بما تشعر، لكن ليس هناك وقت للنحيب... حان الوقت للذهاب للغابات السوداء.»

****

الفصل الرابع عشر

القلب المنتزع

ملأ الرعب قلوب الجميع عقب موت تاجرو وتحول جسده لغبار... لكن كان لابد من الاستعداد للذهاب إلى الغابات السوداء (موطني)، كنت أجلس بمفردي أستشيطُ غضباً، بعد كل ما مررنا به يموت تاجرو هكذا... يموت بيدي! أما نيفا كان يجهز الجميع للذهاب وأرسل رسائل لكل القبائل القريبة يطلب المدد منهم. لكن جيار رفض وكان له رأي آخر يود قوله.

جيار: «نيفا أن أثق بحكمتك وقراراتك الصائبة... لكن لا أؤيد أن نذهب جميعاً، هذا الشيء لديه القدرة على تحويل الناس لشيء ما... لقد كان تاجرو قوياً للغاية مع هذا كان يهرب من بارو، لأنه لم يكن بشرياً كان أشبه بالوحش، لنفترض أنه قادر على فعلها مرة أخرى، حينها لن نقاتله بل سوف نعطيه جيشاً، ولن نشرع في قتاله حتى... وسوف نموت جميعاً.»

نيفا: «أنت محق... موت تاجرو جعلني لا أفكر بشكل صائب، كان صادقاً بشأنك... ولم يبالغ بما فعلته في معتقل أوشفيتز، إذاً ماذا نفعل؟»

جيار: «لن نستطيع أن نحارب عدواً مجهولاً، وأيضاً تاجرو لم يستطع مواجهة باروا، فكيف لنا أن نفعلها نحن. وهناك أمر آخر... أنت لم تتفاجأ بما حدث لتاجرو... بدا لي أنك رأيت هذا الأمر من قبل. أخبرني بما يحدث أو سوف آخذ كين ونرحل من هنا»

نيفا: «حسناً... سوف أخبرك، بداخل تلك الفوهة شيء ما وهو يريد كين، ما زلت لا أعرف الرابط بينهم وما دوافعه، لكن منذ 200 عام وجدت كتاباً يدعى (أدفران)، يحتوي على سحر غريب أقوى من سحر كاهلو، عندما قرأته فقدت بعض قوتي وكنت على شفير الموت... كان يضعف سحر كاهلو... بل يكاد أن يمحوه تماماً... لكن لكل شيء ثمن كنت غير قادرٍ على استخدامه، لذا عهدت الكتاب لابني الأصغر لتعلمه، أخبرني الكثير وأهم المعلومات عن قصة (فركوس) بشريٌّ تعلم السحر من أباطرة الشياطين وأصبح سيداً لهم. شارك في حربٍ مات خلالها الكثيرون... طمعاً في العرش تقاتل 7 قبائل... تفرق الإخوة وقتلوا الصغير وقطعوا يد الخائن حتى صارت البحار والأرض بلون الدماء... ولم يكتفِ، استباح النساء وقتل كل غالٍ... حتى تربّع على العرش، لم نفهم سوى تلك الكلمات وبعض التعاويذ الأخرى للحماية وزيادة القوة.»

جيار: «ماذا تقصد أن لكل شيء ثمن!! ماذا حدث؟»

نيفا: «مات ابني وهو يرتعد خوفاً... ويقول: إنه قادم وسوف يهلك الجميع، لذا أعتقد أن بداخل تلك الفوهة (فركوس)»

جيار: «تلك التعاويذ هل تجيد استخدامها من كتاب (أدفران)؟»

نيفا: «سرق الكتاب أحد الغجر وهرب بعد موت ابني، لكنّني أحفظ وأستخدم القليل منها، حتى لا تؤذيني»

جيار: «هناك رابط بينهم لكن أعتقد أن داخل الفوهة هو كاهلو وليس (فركوس). السبيل الوحيد للتصدي لسحر كاهلو هو سحر فركوس. أعتقد الآن أن القوى أصبحت متساوية... بمجرد إتمام التعاويذ سوف نذهب»

كين: «لا يمكنني استخدام سحر كاهلو من البداية، كيف سوف أستخدم سحر فركوس؟!»

نيفا: «أرى أن نمحو سحر كاهلو أولاً، ثم تستخدم سحر فركوس»

جيار: «لا أظن هذا... مازال سحر (فركوس) مجهولاً لنا، وأن نجعله ركيزة لكل خططنا، أجده أمراً غير صائبٍ، كين لم يحصل على قوة كاهلو بسبب أن الوشوم لم تكتمل... إن كان بإمكانك إكمال الطقوس، هذا سوف يضيف لنا قوة أخرى في حالة فشل الأولى»

نيفا: «أنت محق... سوف أجهز كل شيء للطقوس بحلول المساء ونرحل للغابات السوداء عند استعادة كين كامل قوته.»

في المساء، أحضر نيفا كل الأمور اللازمة للطقوس، مثل الماضي مع نافارو، الفرق أنني الآن مستيقظ وأشاهد كل شيء، تمت الطقوس بنجاح، وفقدت الوعي مثل السابق، أظلمت الدنيا لأجد نفسي في مكان لم يسبق لي رؤيته وأرى طفلاً صغيراً وحوله أشخاص عمالقة... الأمر أشبه أنهم يمارسون طقساً ما، جميعهم بملابس سوداء، وتقدم أحدهم يمسك الطفل الذي يبكي ويتوسل إليه ويقسم أنه لم يفعلها لكن دون جدوى... تقدم شخص آخر ليقطع يد الطفل اليسرى... كان يصرخ وتسيل دماء سوداء من يده، لم تكن صرخاته بشرية كان الوحش الجريح كان صراخاً مختلطاً بزئير... وهرب الطفل متجهاً نحوي ويده تسيل منها الدماء، تحول نظر الجميع إليّ، كأن دوري قد حان. استيقظت وقلبي يخفق بشدة، كابوس آخر لكن مختلف... شعرت أن ما يحدث حقيقي بالفعل، أردت الخروج لاستنشاق بعض الهواء، وقفت متجهاً نحو الباب، لم أتحرك علقت قدمي بشيء رطب يشبه الماء... لكن أكثر لزوجة، تجمّدت أطرافي للحظات وأنا أميل برأسي للأسفل، كانت دماء سوداء تغطي كامل الغرفة ويد الطفل صغير ملقاة بجوار السرير وتنزف الدماء، لم أقدر على الكلام، توقعت أن أكون أصابني الجنون وهذا غير حقيقي، هربت من الخيمة ولم أخبر أحداً بما رأيته. انقضت ثلاثة أيام حتى تعافيت وتمكنت من الاعتياد على قوة جسدي. وأيضاً ألقى نيفا تعاويذ فركوس على جسد جيار... ولم يفعل الأمر لنفسه.. اتضح أنه لم يعلم نسبة نجاح الأمر، وكاد أن يقتله فعل هذا الأمر في الماضي

لهذا أراد أن يختبر الأمر على جسدي؛ لولا اعتراض جيار على الخطة من البداية.

انطلقنا إلى الغابات السوداء وبرفقتي نيفا وجيار فقط، وآوى إليّ جيار متحججاً أنه يريد أن يتكلم معي في أمور خاصة وعائلية... حقيقةً عندما قال هذا ابتهج قلبي. شعرت أنه سوف يتكلم معي بخصوص كارلا، وعندما تأخرنا قليلاً في السير لنتكلم، غمغم جيار قائلاً: «أريد أن أتكلم معك في أمر مهم... تباً... لماذا تبدو سعيداً هكذا؟»

كين: «هههه... لا شيء يحدث، أنا أستمع جيداً هياااا... أخبرني»
جيار: «أوه حسناً... أنا لا أثق بنيفا أشعر أنه يدبر لشيء، أنا لم أوافق على جلب المزيد من رجاله لهذا السبب، أخبرنا أنه كان على وشك موته عند تلاوته تعاويذ فركوس، مع العلم كان يريد استخدام نفس التعاويذ لإزالة سحر كاهلو عنك، وأيضاً موافقته على كلامي دون جدال، وكيف يستطيع أن يستخدم سحر فركوس، من المفترض أن يضعفه هذا... قوله يعاكس أفعاله... كين أنا هنا من أجلك، لذا إن أراد ذلك الوغد الغدر بنا سوف أنتزع رأسه من جسده... أعلم أنك من نسل أخيه، لذا أخبرني أي شخص سوف تقف معه.»

كين: «تجمعنا دماء واحدة أنا ونيفا، لكنه لم ينقذ حياتي مراراً مع عدم اضطراره لهذا... أنت كل المتبقي من عائلتي وأنا معك إذا تأكدنا من هذا الأمر»

أنهينا حديثنا ثم التحقنا به، حتى وصلنا إلى الغابات السوداء، تغيرت بشكل جذري، تفوح منها رائحة أعرفها جيداً تشبه سجن التجارب في أوشفيتز رائحة عفن مختلط بموت، دخلنا بحذر بين الأشجار حتى نصل للقرية، أصبح لون لحاء الأشجار أسود وأصابها العفن، كنا نستنكر ما نراه حتى وصلنا للقرية، تماماً كما وصفها تاجرو كانت هناك سيدة تخترق جسدها 2 من السلاسل وتتساقط دماؤها لتختلط بظلام الفوهة التي يبدو أنها ظهرت في الهواء من العدم. كان شعرها منسدلاً ويغطي وجهها، لهذا لم يعرفها تاجرو... لكن بمجرد أن تمتمت قائلة: «أنقذوني أرجوكم» أدركنا من هي، كارلا... قبل أن نتحرك نحوها، سحبتها السلاسل داخل الفوهة، انطلق جيار خلفها ينادي بأعلى صوته: اتركهاااا... أيها الوغد.

ودخل الفوهة، أردنا اتباعه تقدمنا خطوة واحدة نحو الفوهة. ظهر أبي من العدم وهجم على نيفا ليسقطه أرضاً... ووضع كلتا يديه حول عنقه ليخنقه... لم يستغرق الأمر ثواني، كانت اللكمة مشابهة لبرق أصاب جسد أبي، فقط لكمة واحدة أبعدته لأمتار يتدحرج بعيداً، فرغم قوة أبي وهيئته الغريبة، المشابهة لأحد العمالقة في حلمي... لم يشكل أي تهديد أو خوف

لنيفا، نزع ملابسه... لم يكن عجوزاً نحيفاً كما رأيته في المعتقل، بل كان جسده يماثل قطعة من العضلات الفولاذية المرسومة بعناية، تجعلك تُقسم أنه قضى **500** عام من التدريب الشاق كل يوم... نظر نحوي وقال: «اذهب خلف صديقك ولا تقلق لن أقتله سوف ألهو معه قليلاً»

تجمدت أطرافي قليلاً... متسائلاً هل هذا من يريد جيار قتله، تباً سوف أتخذ صف جدي بالتأكيد، صحيح لا شيء أقوى من صلة الدم. عاد أبي ويبدو أنه في أوج غضبه وأصبح له أنياب ومخالب... وعينه مظلمة للغاية، بهيئة تماثل ما قالته نافروا عندما حولته أمي في الحرب الأولى، وهجم على جدي مرة أخرى، رغم هذا لم يكن نداً لجدي، استطاع توجيه كثيرٍ من اللكمات إليه. لكن لكمة واحدة أخرى وجهها جدي إليه كسرت بعض أسنانه، وأطاحت به في الهواء ليحطم ثلاث شجرات بجسده. حينها شعرت بالخوف على ما أصابه، وأردت الاطمئنان عليه، لكن نيفا أوقفني. وأخبرني أن السبيل الوحيد لإنقاذه هو تحريره من كاهلو.

حينها انطلقت نحو الفوهة. كنت أسمع صرخات أبي تعلو وتعلو يريد منعي، لكنني لم ألتفت إليه ودخلت، كان المكان بارداً ومظلماً... بإمكاني الشعور بالشر في كل مكان... يماثل الكهف... لكن لا منفذ له سوى الفوهة بالواقع كان قبراً، يعمُّ بالظلام. انتبهت على صوت أنفاس متقطعة. جيار

ملقى على الأرض ويبصق دماً من فمه وشخص يقف يضع قدمه على صدره، يحاول تحطيمه. (كاهلو)، ناديته بأعلى صوتي ليتوقف.

كين: «أنت... توقف، كاااااهلو»

كاهلو: «دقائق وسوف تنضم لصديقك أيها الحذق»

كين: «لا أهتم كوني من نسلك... اترك صديقي أو سوف أقتلك.»

كاهلو: «هاهاها... لقد عشت أعواماً لم أستطع إحصاءها، هل تظن أنّ أحمقَ مثلك يستطيع خداعي، لقد مات جميع أولادي، أحرقوهم لفشلي في الماضي لتدمير أمثال هذا الأبيض، ولن أفشل مرة أخرى.»

كين: «نيفا بالخارج يقاتل والدي بارو... أنت لم تتسبب سوى بالمعاناة لنا، لقد نجت طفلتك الصغيرة، وكادت أن تموت بسبب الوباء الذي أطلقته (الطاعون)، أخوك بالخارج يحيا مئات السنين يشاهد موت كل عائلته ويعاني ويتعذب ويتمنى أن يموت، وتاجرو كان من أعظم الرجال، قائداً يجول لينقذ جميع الغجر، لقد قُتل بسبب ما فعلته له، وأمي اليانا لقد كانت من أحفاد ابنتك، أنت جدها الأكبر... هلكت بسببك، كل هذا بسبب سحرك الشرير توقف أرجوك، لا تتسبب في المزيد من الموتى»

كاهلو: «نافارو... ابنتي، نجت من الحريق!»

كين: «انتظر... ماذا هل نافارو، هي طفلتك...كيف؟!»

كاهلو: «أجل، ماذا حدث لها... أخبرني»

كين: «نحن نظن أنك قتلتها»

كاهلو: ماذا؟ أنا لم أقابلها ولم أقابل والدتك أيضاً!»

كين: «أخبرني هل أنت من أطلق الوباء (الطاعون) لتدمير الجميع.»

كاهلو: «عن أي وباء تتحدث... أنا لست مجنوناً لأطلق وباءً وأقتل عائلتي... عندما بلغني موتهم، أردت الذهاب لقبيلتي للتأكد، استقبلني أبي وطعنني في صدري وكان يخبرني أن هذا من أجل الجميع، استيقظت لأجد نفسي هنا، ولم أخرج حتى أتى ذلك الحقير الأبيض وأراد قتلي.»

كين: «إذا من خلف كل هذا!!»

كاهلو: «لا أعرف»

كين: «أين كارلا؟»

كاهلو: «تقصد الفتاة البيضاء! سوف تجدها هناك بجانب تلك الصخور.»

الكثير من الأمور في آنٍ واحدٍ لم تجعلني قادراً على التفكير، كل ما أردت أن أخذ الجميع واهرب من هذا المكان حيث يراودني شعور سيّئ، وجدت كارلا كانت بخير، فقط بعض الكدمات واختفت من جسدها آثار السلاسل... وأخبرت كاهلو إنْ أرادَ معرفة المزيد عن نافارو، أن يساعد جيار ولنخرج من هنا حالاً، فلم يتبقَّ سوى خطوات بسيطة ونخرج من الكهف، سمعت همسات بسيطة، شخص يذكر اسمي، ظننت أنها هلوسة كالسابق، ولم

أتوقف، تابعت الحركة، لكن توقف كلٌّ من كاهلو وجيار من كلام هذا الشخص.

غمغم قائلاً: «بإمكانكم الخروج، لكن لن تروا سوى أجساد معلقة، فسوف أمزق أجسادهم وأشرب من دمائهم جيار، وأنت كاهلو هل تترك ابنتك خلفك وترحل... نافارو هنا، أما أنت كين لن أجبرك على البقاء، النكران أمر سيّئ ظننت أنك أتيت لتنقذ والدتك، لكن أنْ تنقذ حبيبتك وترحل... عارٌ عليك.»

كين: «والدتي ماتت منذ زمن بعيد، أنت تكذب، من تكون؟!»

أجاب بصوت أوضح من سابقه: «على مر تلك السنوات، ذكرت بأسماء عديدة، نيفا، كاهلو، فانوس، إدفا، نفيتيك، وأسماء كثيرة أخرى، لكن المحبب لدي هو إدفا، يمكنك أن تدعوني إدفا... أمر آخر ادعوني كاذباً مرة أخرى وسوف أقتلع لسانك، وأزين به هذا الكهف... أنا لست مثلكم، خونة وقتلة وكاذبون، بما شعرت في ذلك الممر الضيق في معتقل أوشفيتز عندما فقدت يدك... لمَ بكيت كين؟ هل لأجل فقدانك يدك الثمينة أم لأنك شعرت بظلم جائر من بشري مثلك؟ لم أخطط للظهور لك متجسداً في شكل نيفا، لكن أزعجني ما حدث لك، لهذا أردت أن أهون عليك الأمر قليلاً، أرأيت أنا أرحم من البشر بكثير.

كاهلو: «أين ابنتي... أين نافارو، لو حدث لها شيء سوف أقتلك؟!»
إدفا: «لا تطلق التهديدات، لا تنسَ أنك بشري ولا تملك قوى هنا... وأنتم أيضاً أصبحتم مثله... بمجرد عبور أي شخص الفوهة، يفقد كل سحره... لهذا كاهلو هنا ولم يستطع الخروج، حسناً سوف أخبرك حتى يتسنى لكم جميعاً الموت في راحة، نافارو... كانت تستمد قوتها من نوعين من السحر أحدهم سحري والآخر سحر الحياة، كدتُ أقتلها في مرات كثيرة، لكن اليانا كانت دائماً تساندها، لم يسبق لبشر أن مارس سحر فركوس بمفرده، كانت فريدة من نوعها، اليانا ملكة السحرة، استحقت هذا اللقب، نافارو كانت تعلم بوجودي لهذا كانت تستخدم سحري بحذر، حتى التقت بـ اليانا، الاثنان معاً دمجوا سحرين من المفترض أن يمحو أحدهم الآخر، لتكوين سحر فريد... ما زلت أذكر هجوم ملوك سحرة الفودو، رغم قوتهم المهولة لم يكونوا أهلاً للوقوف أمام اليانا ونافارو، استغرق الأمر ساعة واحدة لهزيمتهم. سحر الفودو يتصل بالأجداد وكيانات أخرى لتدعيم قواه، وبسبب كمية السحر الهائلة هذا اليوم، استطعت أن أخرج لأشعر بالهواء النقي بعد قرون طويلة من السجن. وبدأ القتال الحقيقي بيني وبين اليانا... لا أصدق أن تلك اللعينة هزمتني، بل أجبرتني أن أتخلى عن جسدي المادي، حتى أطلق العنان لقوتي، ومع هذا لم أتمكن من هزيمتها، يقال إن كل شيء مباح في الحب والحرب، كان لوالدتك نقطة ضعف واحدة وهي البشر... كان بإمكانها قتلي، لكن عندما استخدمته سحرة الفودو

درعاً لي، لم تهاجم وكانت الأولوية لديها إنقاذهم، أرخت دفاعها لكي تحميهم، وكانت النتيجة هزيمتها وألحقت بها كثيراً من الجروح، لكن لم أستطع قتلها بسبب إحاطتها بسحر فركوس، في النهاية سحر فركوس يضعف قوة سحري، حينها أردت التوجه للقرية وقتل الجميع، لكن أتممت صفقة مربحة جعلتني أتراجع، اليانا أبرمت عهداً أن تعطيني سر قوة إدماج السحرين وسوف تتخلى عن قوتها بالكامل وأيضاً حياتها في المقابل أن أتركهم وشأنكم، الآن أن أملك سحري وسحر فركوس.»

جيار: «لهذا لا تستطيع قتلنا، إن فعلتها سوف تنقض العهد وتخسر قوة سحر فركوس»

إدفا: «أحسنت... أنا لا أستطيع لكن هو يستطيع وسوف يفعلها من أجلي»

****

الفصل الخامس عشر

الاختيار

الضحية، من أي منظور يتم تحديدها، أنا أروي تلك القصة، فكلها من منظوري ولا يبدو أني الجاني، لكن إن تكلم من قتلته في النزل في معتقل أوشفيتز، سوف يقول إنه الضحية ولم يحق لي قتله. مهما كان جُرمه. أيضاً تاجرو، الحقيقة التي لم أذكرها أني لم أقتله لتخليصه من ألمه، لم تكن تلك الفكرة سائدة في رأسي بل قتلته خوفاً على حياتنا. مثلما فعل إدغار بظنه أنه يفعل الصواب، وأنه يأخذ بثأر ابنه... يرى أنه الضحية ويحقق العدالة. بالتأكيد هذا شعور عائلات الجنود القتلى منذ بدء الحرب حتى الانتهاء. فلم يعد يتخلل قلبي أي رحمة لكل الأعداء، أصبحت مثلهم لا أرى سوى نفسي وقومي... وصار قلبي يسكنه الظلام ولا أشعر بالرحمة تجاههم... كلمات وتساؤلات وردت إلى عقلي عندما نظرنا إلى الخلف لأجد نيفا يقف خلفنا بمظهر عادي بدون تلك القوة الجسدية... ك...كان يحمل بيده قطعة من اللحم ينبعث منها صوت نبضات منخفضة وترتعد يديه إثر كل ضربة يصاحبها صوت قطرة مياه تتساقط! دققت جيداً لأرى أن الذي بيده قلباً وأن تلك القطرات هي دماء تسيل... وتوقفت الضربات مع آخر نقطة من الدماء. فألقاه يتدحرج أرضاً أمام إدفا... اقتلع قلبه

قرباناً حتى يحقق له أمانيه، توجهت بخطوات مرتعشة، وسقط جسدي أمام قلب أبي، انهمرت الدموع من عيني متساقطة لتختلط بدماء قلبه، عندما فقدته في المرة الأولى كان لي أمل بالرجوع، كلمات تمنيت قولها أنا لست غاضباً من زواجك انهض أرجوك. تجمدت اللحظات فأصبحت تمر كالسنين... صمت الجميع فلم يتكلم سوى...

إدفا: «لدي خبران أحدهما جيد والآخر سيّئ، أستطيع تحقيق أمنية واحدة، نيفا لقد وعدتك أن أشفي طفلك المصاب بسبب سحر فركوس، أشعر بالأسى لأنني أيضاً وعدت أخاك كاهلو بأني سوف أجعله يرى ابنته، أما الجيد أن نيفا أصبح مثلكم مجرد بشري، يتوجب على أحدكم أن يتخلى عن رغبته للآخر... ومن لديه ضغينة يستطيع أن يفرغ ما في جعبته ويأخذ بثأره... كين»

لم أفق من الصدمة للتفكير في الثأر... كنت أحتضن قلب أبي وأبكي... وتمر كل ذكرياتي أمام عيني، مقتل جوبان وموت الجنود وقتلي لخصمي في النزال... أردت الصراخ لإفراغ شعور الذنب بداخلي، شعرت أن موته عقاب، لا شيء يبرر إهلاكَ نفسٍ بشريةٍ لإنقاذ أنفسنا... حتى الوحوش في البرية لديها عائلات تنتظرها، أحسست ما يعانيه عائلات الجنود وكل عائلة كان لها فقيد... تلك التساؤلات وشعور بالذنب تسلسل إلى عقلي عندما تحدث نيفا قائلاً...

نيفا: «لم... لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ أنتم أيضاً قتلة، أنت جيار لقد قتلت الكثير من الجنود لإنقاذ أختك الثمينة، لقد أهلكت كثيراً من الجنود كانت لهم عائلات تنتظرهم، قتلتهم لتنجو. وأنت أخي العظيم كاهلو... أنت أناني وحقير، أنا أعلم ما فعلته وكيف حصلت على قوتك، أعلم برحلتك الشيقة، عندما سافرت حتى تتعلم السحر من بلاد أخرى، وأنك قابلت ساحراً قوياً مهاباً من الجميع بقوته وحكمته وكان له ابنة جميلة، نقطة ضعفه الوحيدة... لقد توددت إلى الفتاة حتى تقنع أباها بتعليمك ذلك السحر، وعندما علمت أن طقوس انتقال السحر تحصد روح من ينقلها ضحيت بالفتاة حتى تحصل على قوتك، وبحث عنك والدها سنوات حتى مات قهراً على موت ابنته... وأتيت إلينا تشفي المرضى وتساعد الناس لتمحو ما فعلت، ولكن لا يا أخي، لن يفكر أي شيء فعلتك الشنعاء وموت عائلتك كانت نتيجة لهذا... لن يموت أحد ومازال على كتفيه دين لابد من سداده، جميعنا نرى الأمور حسب رغباتنا ويحدد الصح والخطأ على حسب أهوائنا، لذا ليفعل كلٌ منا ما يريد وليعِش من يستحق... أو لأننا نراه يستحق. لن يموت طفلٌ آخر لي بسبب سحر فركوس اللعين... اللعنة عليكم جميعاً.»

عقب انتهاء نيفا من كلامه، انقض عليه كاهلو، كلاهما بدون قوة، مجرد رجلين ينزفان الدماء ويتضرر جسداهما خلف كل ضربة، كلٌ منهما يريد

تحقيق رغبته، حتى سقطا أرضاً يلتقطان أنفاسهما بصعوبة أنهكهما القتال وغلبهما التعب. كنت ما زلت جالساً، وأرى كل ما يحدث، وأشعر أن الهواء يملأ صدري وأني أجوف من الداخل بلا قلب، لم يعترنِ إحساس بالغضب أو الألم أو اليأس أو حتى الحزن، فقدته للمرة الأولى وعمري لا يتجاوز عشرة أعوام... وتملكني اليأس من اللقاء، لكن تواجده في الحياة له قيمته حتى وإن كان بعيداً... ظننت أن العمر مازال مديداً لأقول كم أحبه، وأن تواجده في الحياة كان يعني لي الكثير من الأمل والطمأنينة، لم أشعر بقيمة أبي الحقيقة إلا عند فقدانه للأبد. وضعت قلب أبي أرضاً واتجهت نحو نيفا... حيث كان مستلقياً على ظهره ورأسه إلى الخلف ينظر إليّ والدماء تسيل من فمه ويلتقط أنفاسه بصعوبة، جثوت فوق صدره بكلتا قدمي وقبضت على عنقه بيدي، جسده ضعيف بدون قواه وأنهكه قتال كاهلو، صوته وعدم قدرته على الكلام وجحوظ عينيه نتيجة لخنقه بكل قوتي وروحه تكاد أن تخرج، رعب تملك وجهه، كان يعلم من نظرات عينيّ أنني لم أعد أشعر بشيء ولن أفلته سوى بالموت، كان يقاوم آملاً في الحياة، يأمل أن أعطيه ما سلبه من أبي، يأمل الرحمة والنجاة مع افتقاره لهم، لم تجدِ توسلاته ومقاومته نفعاً، لا يفصل عن الموت سوى لحظات، أصابت وجهي لكمة... لأسقط مبتعداً عن جسد نيفا. كاهلو أنقذه في لحظاته الأخيرة، وأصبح يتحدث عن أمور لم أشعر أنها كانت بينهما. وأنه إذا كان مخطئاً أو مصيباً فهو يبقى أخاه ولا يريده أن يموت،

وتحول الأمر إلى صراعٍ مزدوجٍ نيفا وكاهلو أمامي أنا وجيار. قبل أن نشرع بالقتال. أوقفتنا كلمة (منافقون)... كلمة نطقها إدفا، بصوت مليء بالسخرية والاستهزاء.

إدفا: «أتيتما حقاً لقتلي، انظرا لنفسيكما هل تظنان أنكما أفضل مني، تعتقدان أنني شيطان وينبغي حرقي وقتلي. لمَ؟ أنا لم أقتلع قلب حفيد أخي، ولم أتسبب في مقتل حفيدة أخي أيضاً، أنتما لا تعلمان أليس كذلك... بالرغم من عمركما المديد، لم تفعلا أشياء لبني جنسكما، بخلاف أشخاص أقل عمراً منكما فعلوا الكثير، كان لدي كل الوقت لتتبع سلالة كلٍ منكما، بارو والد كين من سلالة كاهلو؛ لهذا كانت نافارو تخاطر دائماً وتحميه دائماً. لذا عندما تزوج والدتك تطورت قواتها بسبب أن والدك يحمل دماء كاهلو. تتحدثان عن العائلة وأنت نيفا اقتلعت قلب شخص من سلالة أخيك، أنت شخص سيئ. أما عن اليانا فهي من سلالة نيفا، أحد أطفالك مستخدمي سحر فركوس بالتحديد الفتى غير المطيع الهارب بالكتاب، لهذا كين ولد يحمل السحرين في دمائه مع عدم مقدرته على استخدامهما، أمر مثير للشفقة. لم تتغيرا تدَعيان أشياء وتفعلان عكسها، تدمران ما تبقى من عائلتكما وتدعيان أنكما تنقذان الباقي، كما فعل أسلافكم منذ آلاف السنين. اليانا أحد أحفاد نيفا هلكت بسبب كاهلو، كما هلك بارو

بسبب نيفا، والآن أنتما الاثنان تريدان قتل حفيديكما، هل هذه هي العائلة؟!

الجشع والرغبة في القوة والسلطة هي من فعل بكم كل هذا.
كما دمرت مملكتي منذ قرون... تدمرت هيئتي الحقيقة منذ آلاف السنين وعندما اتخذت هيئة أخرى دمرتها اليانا، أنا (إدفا) الوريث الشرعي لمملكة الجن (فويران)، لسنوات طويلة حكموا القبائل عائلة واحدة، أرغموا شعبها على الحروب فيما بينهم. أوهم كل زعيم شعبه أنهم المختارون، وينبغي لهم قيادة شعوب الجن الأخرى. فنشأت الحروب لتفرض كل قبيلة سيطرتها. امتلأت الطرقات برائحة الجثث العفنة الملقاة على الأرض، من مخلفات الحرب. استمر هذا الأمر لسنوات طويلة، فلم يعد يذكر أحد كيف كانت المدينة قبل ظهور عائلة (موراف). وأصبح العداء بين القبائل أمراً راسخاً في القلوب. لم يعلموا أن زعماء القبائل كانوا يجتمعون معاً ليتناولوا الشراب، وهم يضحكون على جهل مدينة الجن، وأنهم مزقوا أنفسهم بأيديهم. لكن كل هذا انتهى بظهور (فالوريس)، جنيٌ شابٌ من أحفاد الجن الضوئيين (النصيبين)، وهم الجن الذين عاهدوا بعثة آخر رسول أنزل عليه الوحي الإلهي (محمد صلى الله عليه وسلم). إيمانهم الراسخ في قلوبهم أعطاهم قوة تتعدى ألف مارد مجتمعين معاً. كان أقرب في الشكل للبشر، لكنه أطول في القامة بكثير، ويلبس دائماً ملابس سوداء قاتمة. كان وجهه طويلاً وناصع

البياض، وعيناه سوداوين، ويتميز بشعره الموج بعدة ألوان. استطاع توحيد صفوف بعض الناقمين على عائلة (موراف)، وقاتلهم في حروب كثيرة، ورغم قلة أعداد أتباعه، وعدم مؤازرة باقي الجن الضوئيين له، بحجة قلة أعدادهم وأن الحرب لم تشغلهم طيلة حياتهم وأنهم يفضلون العبادة وعدم التدخل. انتصر وفعل بهم الويلات وأذاقهم ذلّ الخسارة، ووحد الجميع تحت راية واحدة.... مملكة (فويران). عمّ السلام وتحقق العدل لسنوات طويلة. تزوج فالوريس، وأنجب طفلين توءم، غوفيران وإدفا. على الجانب الآخر في عالم البشر ولد طفل في يوم مولد أبناء فالوريس يدعى (فركوس)، من عائلة نبيلة، كما ساد وصفها في تلك الحقبة. اهتمّ والد الطفل بتعليمه أصول السحر وقوته، وجلبوا إليه أقوى السحرة، ليتعلم السحر الأسود والأبيض والسحر الأحمر. وقد كان ما تمنوا... ليعرفه العالم بعدما كبر (بسيد السحرة). إلى هنا ليس للقصتين أي معنى، وتبدوان مختلفتين... لكن جمعهما الجشع والرغبة في القوة والسلطة، أراد فركوس أن يسيطر على العالم ويصبح الحاكم الفعلي له، لهذا استدعى أباطرة الشياطين ليساعدوه في تحقيق مراده، لكنهم أبلغوه بعجزهم عن مساعدته بسبب والدي، وأنهم إن استطاعوا هزيمته فلن يملك عالم البشر فقط، سوف يملك العالمين. لكنه لكي يحقق هذا لابد من عهد يثقل القوى، وهو أن يعهد بروحه لإبليس، في مقابل أن يكون لديه سلطة على كل شيطان. وافق إبليس وأعطاه جيشاً كبيراً لإبادة مملكة فويران. وعلى رأس هذا الجيش زمرة من الشياطين ـالتي

كانت مسجونة من العهد القديمـ العاصين في عهد النبي سليمان عليه السلام. من بينهم شيطان عتيق يدعى (جوتراف)، لم أرَ جنياً مثله من قبل، ساقاه كانتا رفيعتين للغاية رغم ضخامة نصفه العلوي، ويمتلك اثنتي عشر عيناً، خمسة في وجهه، وثلاثة في رأسه من الخلف، واثنتين في كل ذراع، كان أقرب للجن الأرضي، رغم امتلاكه جناحين كبيرين، وقدرته على الطيران بشكل سريع جداً. في ذلك اليوم المشؤوم بدأت حرب عظيمة سميت بالمذبحة الحمراء. مات الكثير من الجن الصالح، وقُتل أبي على يد (جوتراف). لم يعرف أبي منذ البداية أن جوتراف هجين ويملك أغلب قوى الجن، ولديه ما يعرف بـ (نبراس)، وهو 7 سلاسل متصلة ببعضها، تلتف حول ضحيتها وتخترق جسدها، ليس بغرض القتل بل للتعذيب وامتصاص القوى، أحلامك هي الماضي عن المذبحة الحمراء. عندما أراد أبي استخدام كامل قوته وتدمير كل الأعداء انطلق إلى السماء، تبعه بعض المردة من الجن الهوائي، ومعهم جوتراف... ظهرت أمامه غمامة سوداء، خرج منها 7 سلاسل لم تصِبه، بل توجهت نحوي أنا وأخي وأمي. اخترقت أجسادنا حتى نزفنا الكثير من الدماء، لم يكن أمام أبي حل سوى الاستسلام، مع وعد بعدم قتلي أنا وأخي.

قتلوا الجميع وأبقوا على حياتي أنا وغوفيران... عذبونا، كل يوم بطرق مختلفة وبشعة عن اليوم السابق. مات أخي وأنا سُجنت هنا كل هذه السنوات، محاطاً بتعاويذ كثيرة تمنعني من الخروج... الساحر وابنته هما

آخر من تبقى من نسل فركوس، كان يعلم ماضي أجداده لهذا كان على علم بالسحر المحظور. أما كاهلو فتى جاهل يدّعي العلم، استخدم الكثير من التعاويذ المحظورة، وفتح لي باباً للخروج. رغم هذا لم أستطع البقاء خارج الكهف سوى بضع ساعات حتى لا يعلم الجن بوجودي.

معاناتي ومعاناة عائلتي كانت بسبب البشر ونفوسهم المريضة، المليئة بالكره والحقد والغل والشر. أقسمت على الانتقام ووضعت كل الخطط حتى أحقق مرادي أنا من تشكل في هيئة كاهلو وأطلق الوباء... أردت أن يصيبكم ما أصابنا، وأن يتمزق أجسادكم... لكني أدركت خطئي، فأنتم كيفلون بفعل السوء لأنفسكم، كم شخصاً قُتل بسبب الطمع والسلطة والغرور، إبادة شاملة فعلها البشر بحق أنفسهم، قتلتوا بني جلدتكم لمجرد اختلافهم في المعتقد أو الدين أو اللون أو اللغة، دماء من قتلوا في تلك الحروب والإبادات يقع على عاتقكم جميعاً.

للمرة الأولى في حياتك سوف تحصل على حق الاختيار... (كين)، إما أن أتركك ترحل وتتزوج من تحب وسوف يموت الملايين بسبب وباء أقوى ومن بينهم قومك، أو نعقد صفقة أبدية، فأنت الوعاء المناسب لي، مع وعدي أني لن أؤذي بشرياً بعدها. أنا لست شريراً كين... أنا أعطيك ما فقدته منذ ولادتك، حرية الاختيار. أنت تعيش ويموت الملايين أم تموت، ويحيا الملايين.

الفصل السادس عشر

أوزار الغير

حمقى... فقط الحمقى من يستمعون للعدل والحرية والتضحية، الآن في 2020 نرى كثيراً من "كوميك" وأفلام عن أبطال خارقين يبذلون ما في وسعهم مضحين بكل شيء لإنقاذ البشر، ومن السخرية أن بطل تلك القصة في الواقع منظم لحركة ما تنصر فئة من البشر على فئة أخرى لمجرد اختلاف أعراقهم، لم يختلف الأمر كثيراً في الماضي عن الحاضر أو المستقبل... لا أعرف من زرع تلك الضغينة في قلوب البشر، من أين الاختلاف وكيف أتى أول طفل بشري يتميز ببشرته السمراء أو يتميز بملامح مختلفة كلياً عن الأبوين وعن إخوته، كيف... إن كان أصل البشر هو الجنس الأبيض السامي كما يصفون أنفسهم، وأنهم العرق الأسمى في المجتمع. أنا لا أؤمن بالتفرقة العنصرية بين الأشخاص مهما كان اختلافنا في العرق أو الدين أو حتى معتقد التفكير، تشابه أجسادنا وأننا ننزف دماء متماثلة وأيضاً تحقيق المساواة في بعض الدول والتناغم بين أفراد مجتمعها يعد الدليل الأكبر على أننا مختلفون في اللون، التفكير، اللغة، وأيضاً المعتقد الديني، لكن ما تبقى أننا بشر متماثلون وينبغي أن نعيش في محبة وسلام،

لم أفكر من قبل في اختلاف الشعوب والكراهية اللامتناهية بينهم ورفضهم الدائم للحقيقة الكونية أننا متماثلون، نستيقظ على أخبار مقتل فئة معينة لاختلافهم الديني أو جنسيتهم أو حتى لون بشرتهم، أعتقد كوني طبيباً أن تلك العنصرية نحو الاختلاف والرأي أحد الأمراض المستعصية وينبغي لنا أن نعالجها بترياقٍ قويّ. تعلمت في الأشهر المنصرمة معاناة ملايين البشر في الماضي... ما يحزنني أنني لم أعرف النهاية... وما رد كين على ذلك العرض... بعد معاناة، ظلم، وموت الكثير أمام عينيه من شعبة وغيرهم، ومعرفته بما فعلوه في الهنود والإبادات على مر السنين... هل سوف يقبل عرض إيفا، ثم ينتقم من العرق الآري بأكمله، أم سوف يتعلق بالحياة ولا يعبأ بالأجيال القادمة من أحفاده، اعتقادي أن كين هو أحد هؤلاء الحمقى... لا يعبؤون سوى بغيرهم، مضحون بكل شيء في سبيله إنقاذه.

كل هذه الأفكار تطرق لها آدم عندما انتهى من قراءة المذكرات، وحزنه على عدم معرفته الباقي، جعله غير مدركٍ لدقات الباب الخافتة من يد رقيقة.

غابرييل: «آدم... هل أنت بالداخل؟»
آدم: «غابرييل! هذا أنتِ... أنا آسف كنت أفكر قليلاً، لم أسمع صوتك أو طرقك للباب... أعتذر حبيبتي»
غابرييل: «لا بأس أنا لم أنتظر طويلاً... لقد جلبت بعض الأسماك اللذيذة وأيضاً طهوتها كما تحب... دعنا نتكلم ونحن نأكل هيا أنا جائعة»

آدم: «حسناً... سوف أنظف الطاولة، وأنت أخرجي الطعام من الأكياس، أنا أيضاً جائع للغاية»

غابرييل: «واو... هل هذا المجلد القديم هو القصة يبدو مهترئاً للغاية! أنا سعيدة أنك أنهيتها.»

آدم: «امممم، في الحقيقة لم أفعل.»

غابرييل: «ماذا؟! هل أضعت الإجازة ولم تنهِها؟!»

آدم: «الأمر ليس هكذا... آخر ثلاث صفحات من الكتاب غير متواجدة تم قطعها.»

غابرييل: إذاً... ما العمل الآن؟

آدم: «لا أعرف ولا أبالي، أممم مازال الطعام ساخناً، ولذيذاً جداً.»

غابرييل: «سعيدة أنه أعجبك. لكن حقاً أنت لا تبالي بالنهاية؟»

آدم: «بالتأكيد من شخصيته وتضحياته من البداية أظن أنه وافق، هو مجرد أحمق.»

غابرييل: «لا أعتقد أن كين غبي لدرجة رفضه للحياة وأن يقبل أن يستحوذ على جسده (إيفا).»

آدم: «مهلاً... ماذا قلتِ الآن؟ كيف علمتِ بشأن كين وإيفا!! أنا لم أذكر أسماءهم؟!»

غابرييل: «لقد فعلت، أخبرتني ونحن نتحدث في المشفى هل تتذكر»

آدم: «لا... لم أخبرك، أنتِ تكذبين، لم أعلم بوجود إيفا سوى في النهاية... من أنتِ؟!»

لم يكترث آدم لهلع غابرييل... أطاح بالطاولة بعيداً، وتقدم نحوها وهو يصرخ بها لمعرفة من تكون. تقدم بضع خطوات قبل أن يسقط وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، فلم يعد يشعر بكلتا قدميه، تسارعت دقات قلبه، وأصدرت ضجيجاً وكأنه يقترب من نهايته، انغلقت عيناه رغماً عنه، وأحاطه الظلام... فلم يسمع سوى خطوات قادمة من بعيد... امرأة تتمتم ببعض الكلمات.

والدة غابرييل: «لماذا تبكين غابرييل! انظري إليّ... أنت انظري إلى عيني. بكيت طوال تلك السنوات على فراقهم. منتظرة هذه اللحظة... لن نضيع تلك الفرصة، صغيرتي لن تكون هناك فرصة أخرى»

عندما أفاق آدم وجد نفسه خارج البيت. أمامه شاب يقاربه في العمر، ذو شعر أشعث ببشرة سمراء. يجلس على كرسي متحرك. حاول آدم أن يستغيث به ليحرره من قيوده... لكن دون رد منه، حتى أتت غابرييل ووالدتها ووقفتا بجواره.

والدة غابرييل: «توقف عن النظر إلى غابرييل... هي تفعل ما أقسمت عليه منذ طفولتها. إن كنت تريد النظر، انظر إلى (توبار) ابني»

آدم: «ماذا تعنين؟!»

والدة غابرييل: «لست امرأةً شريرةً آدم... أنا ضحية أخرى من ضحاياهم، منذ 20 سنة انتقلنا أنا وزوجي إلى أميركا بلاد التطور وبلاد الحرية أو هذا ما كنا نعتقد، كنا نعمل بدوام كامل... فقط لسد احتياجات الطعام والملبس، لم نتسول أو نطلب المساعدة، بل نعمل ونأمل مستقبل أفضل لأطفالنا، رزقنا بصبي، ثم بغابرييل واستمر الاضطهاد والمعاناة يوماً... خلف يوم... ونحن نحاول البقاء، أعلم ما يجول بخاطرك، لماذا لم نعد إلى بلادنا، لأن تلك الدول استعمرتها ونهبت ثرواتها وقتلت الآلاف لبناء دولتها، وتشيد تلك المباني بدماء الشعوب الأخرى، رحلنا لاستحالة الحياة في وطننا، ونأمل بحياة أفضل، اتخذت الأمور منحى آخر حين رأى زوجي أحد ضباط الشرطة يعنف طفلي الصغير بالضرب المبرح.

أمام عينيك ترى طفلك لم يتجاوز 13 عاماً ملقى أرضاً وشخص بالغ يركله بقدمه كالقمامة، هرول زوجي نحو طفلنا وانهال بالضرب على ذلك الشرطي.

15 ثانية لعينة استغرقها القاضي ليحكم بإعدامه.»

آدم: «لا أفهم لماذا تخبريني هذا!!»

والدة غابرييل: «لم تسأل نفسك يوماً لماذا كنتم تنتقلون بصفة دائمة كل ٥ أشهر لمكان مختلف»

آدم: «كيف لكِ أن تعرفي هذا!!»

والدة غابرييل: «والدك هو الشرطي الفاسد، الذي دمر بعنصريته حياة ابني... كنت تتساءل لمَ لمْ يحِبك، لأن والدك جعله عاجزاً كلياً. عندما حكم القاضي بموت زوجي، أتى والدك لبيتي هو وأصدقاؤه وشنق توبار أمام عينيّ وتركه في اللحظة الأخيرة، لكن الأوان قد فات... لم يستطع أن يتحرك أو يتكلم بعدها، لكنه يشعر بما حوله، ويشاهدك الآن.»

آدم: «أنت تكذبين... أبي كان رجلاً عظيماً»

والدة غابرييل: «عظيم... هاهاها أنت محق، فبالرغم من مرور أكثر من ٢٠ سنة ما زلت أتذكر عظمة والدك.»

آدم: «حتى وإن كنت صادقة، والدي مات... ما تفعلينه الآن دون جدوى»

والدة غابرييل: «لست هنا للنيل من والدك، عاقبته بالفعل منذ زمن طويل. عندما عجزت عن أخذ حقي بالقانون، ولم ينصرني الحاضر لجأت إلى الماضي. لدى عائلتي تاريخ طويل مع سحر الفودو. أجدادي هم من واجهوا اليانا ملكة سحرة الغجر في الحرب القديمة. حاولت تدميركم بشتى طرق سحر الفودو، لكنني لم أستطع، كان هناك دائماً شيء ما يحميكم، سحر أقوى من سحر الفودو (السحر الأحمر). المذكرات كانت تخص جدك الأكبر، لكنها مجرد أوراق، ليست كتب سحر... كل أحلامك كانت بسبب تعاويذ سحر الفودو التي وضعتها في الكتاب لتجعلك هكذا»

آدم: «قلتِ إنك عاقبتِه، كيف؟»

والدة غابرييل: «أردت أن أجعله يشعر بما أشعر حينها، دمرت سيارة والدتك. أنا السبب في مقتلها»

غابرييل: «ماما... ماذا!! أنت لم تخبريني بهذا!»

آدم: «أنت السبب في كل معاناتي، كل هذا السنوات. أردت الانتحار أكثر من مرة، حتى أنهي حياتي البائسة، هل يشعرك هذا بالسعادة... هل تشعرين الآن بالراحة والسرور لما فعلتِه بي؟»

والدة غابرييل: «كلفني الانتقام كل شيء... على مدار كل هذه السنوات، فقدت بشريتي وكل ما يتعلق بها. لكنني لن أستطيع الرجوع الآن. لم يعاقب والدك على ما فعله بسبب نفوذ جدك ومكانته التي جعلته فوق البشر... وجدتك سيدة المجتمع ومؤتمراتها الكثيرة حول تعصب السود وخطرهم على المجتمع الأبيض، وأن زوجي كان مجرماً واستحق ما حدث له»

غابرييل: «ماما... آدم ليس سيئاً، لا يستحق كل هذا، أرجوكِ يكفي، دعينا نعود.»

والدة غابرييل: «أنا أعرف... لكن فات الأمر، لقد خلطت المنوم بسم أفعى كوبرا، لم يتبقَّ له سوى دقائق، أنا آسفة آدم أنا لست شريرة، لكن أنت هديتي الأخيرة»

آدم: «قالها إدفا... عندما عرض الموت على كين، أنا لست شريراً»

الفصل السابع عشر

السعي للنجاة

انفجر الجميع بالبكاء على غير العادة بسبب موت آدم، بعضهم استنكر الأمر، وبعضهم عبر عن غضبه في مهاجمة الكاتب، وأنه كان لابد من أن يعيش آدم... فهو يستحق العيش.

مستمع **1**: «كيف لك أن تقتله هكذا!»
مستمع **2**: «اجلس أيها العجوز هذه مجرد قصة لا أكثر، لا أصدق أن الدولة تجبرنا على حضور **10** ساعات متواصلة لسماع تلك الترهات.»
مستمع **1**: «تلك الترهات بداخل عقلك أنت، ينبغي لك الخروج من هنا.»

د/ نزار: «أيّها السادة.. التزموا الهدوء أرجوكم، لا أصدق أنكم لا تدركون حجم الكارثة الواقعة على كاهل كلٍ منا، قبل أن نكمل حديثنا، سوف أخبرك أيها السيد لما الدولة تجبرك على حضور قراءة الروايات والكتب القديمة.

أنت هنا لأن هذا المدينة هي الملاذ الأخير، لم تعد الأرض صالحة للحياة، ولن يمكنك الصمود بالخارج لساعات. التلوث والأمراض والجوع والموت كل هذا سوف يلاحقك بالخارج، أنت هنا لأنك لست مخيراً لذا اجلس مكانك واصمت، يبدو أن الكثير منكم يحتاج للتذكرة، هذه المدينة هي الأخيرة على الكرة الأرضية، منذ **70** عاماً، انتشار وباء عالمي أطاح بالكثير من البلدان، لم تستطع البشرية السيطرة على الأمر، فبعد عام واحد من انتشاره، فقدنا نصف سكان الأرض. انتشر الهلع والفوضى وسعت كثيراً من الدول لسد احتياجاتها من الطعام وتخزين الباقي بكميات كبيرة دون الالتفات للشعوب الأخرى، شعوب أهلكها الجوع والمرض وأخرى أعلنت الحرب على الجميع طلباً للغذاء، في النهاية الجميع يرغب بالنجاة، لم ترفض الدول العظمى طلبهم للطعام وأرست إليهم. الجميع هنا يعلم ماذا أرسلت إليهم الدول القوية، **5** رؤوس نووية أنهت حياة **170** مليون شخص. اجتماع

10 أشخاص من صناع القرار أنهت حياة ملايين البشر، حسب الخطة الموضوعة أنهم يقومون بالقضاء على التهديد القائم حتى تستعيد البشرية توازنها والسيطرة، لم يعلم أحد أن تلك الدول الفقيرة امتلكت ما تدفع به الظلم عن نفسها، وأنها كانت تمتلك أسلحة نووية للدفاع عن نفسها في حالات الطوارئ ضد الدول القوية، انفجرت أطنان من الرؤوس النووية مما امتلكته تلك الدول، وصاحب الانفجار التلوث الإشعاعي... ليملأ

الكوكب بأكمله، ولولا تكاتف من بقي لهلك الجنس البشري للأبد... لهذا سيدي أنت هنا لتتعلم كيف تصير إنساناً، تتعلم أن من يجلس بجانبك بملامحه الآسيوية ومن أمامك ببشرته السمراء ومن خلف بلباسه الديني، جميعهم بشر، أنت لست مميزاً ببشرتك البيضاء، في الواقع لا أحد هنا مميز، أنتم من تبقى من البشر، لهذا نعلمكم أن من حق الجميع حرية الاختيار واتباع الدين أو النهج الصحيح ما لم يضر أحداً.»

د/نزار: «أخبرني عن اسمك أيها السيد؟»

المستمع **2**: يمكنك أن تدعوني باكا»

د/ نزار: «هاها... هذا واضح، سيد باكا أنتَ تقول على قصتي أنها هراء لسماعك لها دون تعمق، كل شيء يحمل وجهين سيد باكا... مثالاً على هذا كنيتك باللغة اليابانية معناها (أحمق)، أما بالعربية فهي نوع من النبات... لا أقصد التقليل منك سيد باكا، أردت التوضيح والتنبيه على أهمية معرفة المغزى الحقيقي للأمور، وخطورة الحكم بالظاهر، لنكمل الآن قصتنا.»

باكا: «عذراً... إذاً أنت تقول إنّ من نشر الوباء وبدأ كل شيء هو إدفا عندما استولى على كين!! هذا جنون، ماذا هل يصدق أحدكم هذا الهراء.»

د/ نزار: نعم سيد باكا... أنا أقول إن إدفا هو من بدأ كل هذا، ولكن هذا يعتمد على تعريفك له، في منظوري إدفا هو الجهل، الظلم، العنصرية، الكرة، القتل، الغرور، وازدراء الأديان، هذا هو إدفا وهو بداخل كل منا، سيد باكا، من صنع الوباء بشري ومن أطلق الصواريخ وقتل الملايين بشري ومن طبق إبادة عرقية بشري، ومن حرّض على ازدراء الأديان وقتل الغير أيضاً بشري، وعلى الجانب الآخر قام ببناء تلك المدينة وعمل على توفير كل سبل الحياة بشري. هل تتذكر (نبراس) سحر فركوس القوي 7 سلاسل تستمد قوتها من السماء لتقتل وتدمر الروح البشرية، دعني أخبرك ما حقيقتهم، 7 قواعد تسمو بالروح البشرية وتحقق الرخاء والسلام على الأرض.

١.المعرفة

2.العدل

3.المساواة

4.المحبة

5.أهمية الروح البشرية

6.التواضع

7.احترام جميع الأديان السماوية

تلك الأمور تعاكس الأمور السابق ذكرها عن كيان فركوس، يمكن لأي شخص أن يصبح فركوس، لكن من الصعب أن يكون أحد مثل جوبان،

رغم إضلاله للطريق الصحيح، أدرك أهمية حياة كل شخص وأنّ لا اختلاف بيننا وصار قلبه تملؤه المحبة، وأراد تحقيق العدل ومات وهو سعيد، لم يَضِع موته هباء، لقد تغير إدغار عند فقدان رفيق دربه، وهذا مثال راسخ أن مهما كان شرور الشخص بإمكانه دائماً أن يتغير وأن يحقق الأفضل، بل بإمكانه أن يصبح البطل في رواية كل شخص.»

مستمعة 3: «أنا أتأسف مسبقاً على مقاطعتك... لكن لمَ مات آدم؟ هذا ظلم!!»

د/ نزار: «سؤال جيد ويحمل إجابتين، أولهما من وجهة نظر آدم نفسه أنه ضحية وتم الغدر به... وهذا صحيح، أم الثانية من وجهة نظر والدة غابرييل أن آدم مجرد بيدق في اللعبة حتى تحقق مرادها، الحقيقة أن آدم علم حقيقة غابرييل منذ وقت طويل لهذا أخبرها أنه يحبها بجنون ولا يريد أن يفقدها، لقد انتابته الشكوك من تصرفات غابرييل، لكن بدون جدوى، حقيقية من منظوري، أن آدم من أهلك نفسه بالاستمرار في علاقة يعلم يقيناً أنها سوف تهلكه، أما غابرييل تمثل الطرف المتفرج لم تتخذ قراراً لمنع والدتها ولم تحذره، كانت تبكي فقط بدون فعل حقيقي يثبت أنها تحبه، أيها السادة لا تسمحوا لأحد أن يجعلكم مجرد بيدق في روايته، لأنك ستصبح هكذا حتى تهلك ويحين دور غيرك، وأيضاً الحياة ليست للمشاهدة، لا تسمح لأحد أن يدير حياتك نيابة عنك... أرادت غابرييل التراجع وأرغمتها

والدتها على الاستمرار، والنتيجة موت غابرييل ووالدتها والجميع، كل هذا الدمار لعدم امتلاكها الشجاعة بأن تدير حياتها على النحو الصحيح وأن تقول كلمة لا.»

مستمعة **3**: «د/ نزار... أرجوك أجبني ماذا استفدت أنت من القصة؟»
د/نزار: «أوه ... أنتِ تستمرين بمقاطعتي، بالرغم من هذا أنت تطبيقين العقدة الأولى دون علمك وهي (المعرفة)، لهذا يسعدني إجابتك، تمنيت أن أترك الأمر يستنبطه الجميع لكن بعد محادثة السيد باكا أدركت أنه ينبغي أن أوضح الأمر أكثر، لا تقلقي سوف أترك أموراً أيضاً للتفكير، في البداية ما الدافع لعدم انتقام كين من الجميع، رغم أنه إن وافق على مطلب إيفا، لن يقهر ويستطيع أن يرد الظلم للجنود الفرنسيين والألمان من العرق الآري وكل من ظلمه، لما نسي كل شيء ومضى قدماً يفكر في أفراد قبيلته، أيضاً أمر مشابه... لما جيار وافق على مصادقة كين وكان أفضل صديق لديه... أنتم هنا للإجابة على هذا السؤال، **10** ساعات متواصلة أقص عليكم تلك الرواية حتى نصل لتلك النقطة، لكن سوف أجيب بدلاً عنكم في كلمة واحدة (العائلة) هذه الكلمة هي المفتاح... لم ينتقم كين؛ لأن الانتقام لم يكن من أولوياته، لقد غرست بداخله قيم القبيلة وأن حمايتها وتحقيق الأمان لهم يقدم على كل شيء حتى نفسه، وأيضاً جيار والده بنى قريه لكل الأعراق وقام بإنشاء صداقات معهم لذا كان مستعداً لتقبل

صديق مختلف في العرق الآخر، ما أريد الإشارة إليه أننا المسؤولون عن المستقبل، بداخل منازلنا يمكننا أن نجعلهم يصبحون بيادق، متفرجين أو مستعدين جيداً لمواجهة الحياة، تدمير حياة 170 مليون شخص كان المسؤول عنها شخص يشبه إدفا، ضل الطريق أما من كانوا حوله كانوا بعضهم بيادق والآخرون متفرجين.... وقال أحدهم كلمة لا لنجونا جميعاً، لهذا نحضر يوماً كاملاً من الأسبوع... لنعلم أسباب هلاك البشرية، ونأمل أن يصير النشء القادم على دراية ووعي حقيقي بالحياة وما كان الضرر المترتب على العنصرية تجاه الأشخاص ودياناتهم... أعتقد أنني انتهيت. أي أسئلة أخرى؟»

مستمعة 3: «أجل بالتأكيد تكملة القصة!»

د/ نزار: «توقعت هذا، لن تدعيني أذهب قبل معرفة كل شيء، لقد انتهت القصة بالفعل.»

مستمعة 3: «لكن من كتبها، كين لم يكن يجيد القراءة والكتابة، والدليل أنه كان يخبر جيار أن يقرأ له اللوحة أعلى منزله، وهل آدم كان حفيد كين حقاً؟»

د/ نزار: «الكتاب كان مكوناً من جزْأَين يخبروننا قصة كين، كتبهما جيار، موهبته الفريدة كانت الكتابة عندما التقى بكين عند أطراف القرية ورأى جيار أن يفعل أمراً ما... لقد كان يكتب قصة كين تخليداً لذكراه، لهذا

قام كين بمساعدته في كتابة الكتاب الأول، أما اختلاط سحر فركوس بالكتاب الثاني بسبب نيفا عند استخدامه التعاويذ على جسد جيار، لن أخبركم مصير كين الأمر سهل التنبؤ... يحتاج قليلاً من التفكير، والآن كما عهدنا في نهاية كل محاضرة لقراءة رواية... أخبركم أنكم سوف تجتمعون بأطفالكم بعد خروجهم أيضاً من ندوة مماثلة تلائم أعمارهم. اجلسوا معهم انظروا إلى أعينهم وقرروا ما تريدون أن يصبح أطفالكم، هل تريدون أن يكرروا أخطاءنا في الماضي... أم ستخبرونهم أننا جميعاً رغم اختلافنا في اللون أو الملبس أو المعتقد الديني، بشر نستحق الحياة.
شكراً لكم على حسن الاستماع.

****

الفصل الثامن عشر

الوجه الحقيقي

انتهت المحاضرة ورحل كل شخص لبيته، وانطلق دكتور نزار يتجول في أنحاء المدينة، وعلى وجهه الابتسامة، لرؤية المحبة والسلام في أفعال أهلها... جلس في أحد المطاعم، وتناول وجبة العشاء بنهٍ شديدٍ، لبقائه **10** ساعات متواصلة يقرأ رواية (نسر الدم) على الحضور. ثم انطلق إلى شقته. فجميع المباني في المدينة متماثلة ولا يوجد فوارق طبقية، سوى بالاجتهاد، الذي يرفع شأن صاحبه عن غيره، دخل شقته الخالية من الأشخاص، حيث كان يسكن بمفرده منذ سنوات طويلة. انتبه إلى الأنوار المضيئة في غرفة المكتب، فهو يحب التنظيم، وشديد الملاحظة، فكان متأكداً أنه أغلقها قبل رحيله.

أخذ مضرب بيسبول المعلق على الحائط، وتقدم بحذر إلى الغرفة، فلم يجد أحداً... حينها ضحك ساخراً أنه ربما نسيها للمرة الأولى، ونظر إلى مضرب البيسبول وأخذه الحنين إلى الماضي والبطولات التي أنجزها في تلك اللعبة.

أفاق من تلك الذكريات على صوت مألوف من ركن مظلم في الغرفة، حيث أن أباجورة المكتب لا تصل إضاءتها إلا لنصف قطر حوله فقط.

د. نزار: «من أنتِ وكيف دخلتِ هنا؟»
المرأة الغريبة: «بإمكانك إضاءة الغرفة لمعرفة من أكون»

لم يستدِر خوفاً منها... بل تراجع للخلف بحذر حتى وصل لمفتاح الإضاءة

د. نزار: «أنتِ... كيف دخلتِ إلى هنا! اسمعي أيتها السيدة، لقد انتهت القصة بالفعل، وليس لدي أي شيء أخبرك به، لقد غمرتني بالأسئلة خلال القراءة، وأجبت بكل ما أعرف، لذا من فضلك ارحلي»
المرأة الغريبة: «انتهت... هل أنت متأكد دكتور نزار، أم أقول لك جيار؟»
د. نزار: «من أنتِ؟»
المرأة الغريبة: «أنا هلاكك... أنا الموت المحتوم جيار، بحثت عنك لسنوات طويلة حتى أعاقبك على ما فعلته. خنت صديقك وقتلته، تركته معلقاً حتى النهاية، لتستحوذ على قوته... سوف أقتلك الآن، أنت لست نداً لي مهما امتلكت من سحر»
جيار: «أنتِ... نافارو!!»
المرأة الغريبة: «أجل... أنا نافارو»

سقط جيار على ركبتيه وانهار بالبكاء والصراخ، وهو ينظر إلى يده المرتعشة ندماً... ويتمتم قائلاً: إنه قتلهم... ولم يكن بيده شيء سوى قتلهم، فلم يكن لديه خيار.

نافارو: «ماذا؟! لقد وثق بك صديق له، كان يحبك... أنت غدرت به»

وقف جيار وهو ينظر إليها بعين جاحظة تسيل منها الدموع، وصار يتحرك في الغرفة، كشخص سكران يهذي بكلام غير مفهوم، ويريد أن يخرج ما يثقل كاهله منذ قرون.

جيار: «كل شيء كان كذباً وخداعاً، نيفا... هو من خدعنا، لم يكن لهم وجود منذ البداية. كاهلو، إيفا... جميعهم خيال أقنعنا بتواجدهم حتى يحصل على ما يريد.»

نافارو: «ماذا تقول!»

جيار: «الحقيقة... أنا أخبرك الحقيقة. قبل كين عرض إيفا بشرط أن يدعنا نذهب بسلام... أردت أن أذهب بأختي لمكانٍ آمنٍ، وكنت أنوي الرجوع إليه. عندما عدت وجدت كين معلقاً في الهواء... قام بشق ظهره وثني ضلوعه إلى الأمام وأخرج معها رئتيه مثل الأجنة، لم يكن كاهلو موجوداً أو إيفا... فقط نيفا كان يجلس أمامه، رسم بدمائه طقوساً ما ليحرر أحد الشياطين. لم أشعر بالعجز والعار مثل تلك اللحظة، فلم

أكتشف الأمر... كنت السبب في موته. هجمت على نيفا وهو يؤدي تلك الطقوس بفأس كين، قطعت رأسه. فلم يكن قادراً على إيقاف الطقوس والالتفات إليّ لينقذ نفسه.»

نافارو: «أنت تكذب، تختلق هذا الأمر لكي أعفو عنك لقد وجدت سكيناً يحمل اسمك في قلبه»

جيار: «فعلتها حتى أنهي معاناته... لم أنسَ هذا اليوم، رغم مرور قرون، كان كين بمثابة أخي، فعلتها بصعوبة لم أستطع أن أسحب السكين من قلبه بعد موته، ولم يتح لي الوقت لدفنه، كانت الفوهة تتلاشى، لذا خرجت منها بسرعة»

نافارو: «هل تتوقع مني أن أصدق ما تقول»

جيار: «لا، لكن سوف تصدقين نيفا، لدي مذكراته يشرح بها كل شيء... انظري ها هي. كل الأمور واضحة بها، أغلب الأمر والقصص ذكرها نيفا لكين، كَذب بها ليخفي الحقيقة، لقد كره والدك بشدة، لتميز والده وأنه فخر القبيلة، عند عودة والدك بسحر جديد زادت الغيرة والحقد في قلب نيفا فتوسل لكاهلو حتى يعلمه ولو جزءاً بسيطاً، ولحب والدك له أخبره بسره، وأنه حصل على هذا السحر عندما قتل ساحراً وابنته أوقعوا به وأرادوا أن يجعلوا منه أضحية لاستدعاء الشياطين، وأن هذا السحر كاللعنة ينتقل إما بالقتل أو بالوراثة من شخص لآخر، ويتيح له هذا السحر التحكم بالواقع

فكل ما يفكر به يستطيع أن يفعله. حينها شرد نيفا يفكر، كيف سوف يتعلم هذا السحر إن كان محكوماً بشرطين من المستحيل له تحقيق أيٍّ منهما... ثم أكمل: إن والدك ضحك وأخبره أنه لديه شيء من أجله، وأخرج كتابين كانا ملكاً لزعيم مملكة الجن فالوريس، قبل أن يعهد بهم لأطفاله إيفا وغوفيران.

السحر لدى كاهلو ونيفا وأنتِ كان لإيفا، أما السحر الآخر الذي عرفه العالم فيما بعد بكتاب فركوس هو لـغوفيران. فالوريس كان حكيم، خاف أن يطغى أحد أولاده في الحكم، لهذا أعطى غوفيران سحراً مشابهاً لسحر أخيه، لكنه يضعف السحر الآخر في حالة الحرب ويكون محكوماً بشروط وهي التضحية بروح في سبيل هذا، أما إن تعاونوا معاً في الخير سوف يمتلكون معاً قوة والدهم الجبارة. وأخبره أيضاً عن حرب عظيمة سُميت بالمذبحة الحمراء لكن نهايتها كانت مختلفة، إيفا وغوفيران الاثنان قُتلا في الحرب، وبعدها أخذ فركوس الكتابين منهما... لكن باقي الجن الضوئيين ندموا على عدم نصرهم لـ فالوريس عندما رأوا رأسه هو وأولاده معلقاً على باب مدينة فويران، لذا قامت حرب أخرى وانتقموا منهم جميعاً، قتلوا فركوس والكثير من الشياطين التابعة لهم، لكن يستطيعوا قتل توجراف لهذا وضعوه في سجنٍ أبدي، لا يستطيع أحد أن يفتحه سوى سحر

فالوريس. أما الكتابان لم يعثر عليهما أحد، وتوارثتما عائلة فركوس سراً، خوفاً من الجن الضوئيين وأملاً في تحرير توجراف.»

نيفا هو أخبر الطبيب أن كاهلو هنا، ليقول لعائلة زوجته. ثم ساعده في الهروب، وقتله ليأخذ سحر إيفا وأطلق بعدها الوباء حتى يكره الجميع كاهوا، وحينما وقع كتاب غوفيران بيد أحد سحرة القرية وتعلم القليل منه قتلة نيفا حتى يصدق الجميع أنّه لا يمكن لأحد استخدام سحر كاهلو سوى ذريته، لهذا علمك بعض الكلمات حتى تقوليها أمام السحرة وأنت صغيرة حتى يصدقه الجميع روايته.

لكنه لم يعلم بنوايا جدك حينها، فعندما أمره بالرحيل معك، أخذ منه أحد الكتب لحفظه، خوفاً عليه من شر الكتابين... (كتاب غوفيران). مرت السنوات وعندما أتقن سحر كاهلوا بالكامل، عاد بعد موت جدك، كان الكتاب سرقه ابنه، وهو أحد الأطفال الذي تبناهم بعد موت والديهم في الوباء الذي أطلقه. لهذا كانت اليانا لديها اليد العليا دائماً في القتال لأنها امتلكت سحر غوفيران. لم تخسر الحرب ضد نيفا، إلا لظروفها الصحية، بسبب ولادة كين تلك الحقيقة التي أخفيتها عن الجميع».

نافارو: «لا أفهم لمَ فعل كل هذا؟ هذا جنون!»

جيار: «في البداية أراد ما لدى كاهلو من تقدير وحب من الجميع وقوة مطلقة، لكن حين حصل عليها وعاش سنوات طويلة وشاهد الجميع يموت عاد لرشده، ولو لفترة قصيرة. حتى علم بالمحاكمة. فعل كل هذا حتى ينجو»

نافارو: «أي محاكمة»

جيار: «عند الوصول لنقطة معينة من استخدام سحر فالوريس، سوف يتمكن الجن الضوئيين من إيجادك، وسوف تمتثل أمامهم للمحاكمة حول استحقاقك لهذه القوة، وكيف حصلت عليها وماذا فعلت بها. تنتهي المحاكمة إما بالمباركة مثل اليانا أو بالموت مثل فركوس. لهذا كان الباقون من نسله يتوارثون الكتابين سراً».

نافارو: «وكيف سوف ينجيه ما فعله... من المحاكمة»

جيار: «في الدول الإسكندنافية قبل ظهور المسيحية، لم تستخدم نسر الدم للتعذيب فقط، بل للتضحية والتقرب من الآلهة. فحسب ثقافتهم... سوف يمدهم (أودن) بالقوة للحروب، واستخدمت في بلاد الرافدين لاستدعاء (لاموس) أو (شيدو) كما قال عنه البعض: شيطان عتيق وقوي، له وجه إنسان وجناحا نسر وجسد أسد. لهذا استخدمها نيفا على جسد كين، ليحرر توجراف من سجنه ويستدعي لاموس للحرب ضد الجن الضوئيين. لم يستطع أن يفعلها بعد موت اليانا... لأن لابد من أن يكون الجسد المضحي لساحر قوي بقلب مظلم، لهذا كل رحلة كين خطط لها نيفا.

كما فعل مع والد كين. لقد أخبره أن كين مات... وعرض عليه أن يتزوج ليكون له أولاد يحملون اسم قبيلته، ثم استخدم السحر ليسيطر عليه وقيده بالقرب من الفوهة المظلمة ليهاجم تاجرو. لكن بارو ورث السحر لأنه من نسلك... نافارو، فاستطاع كسر سحر نيفا، وهاجمه قبل دخول الفوهة ليقتله ويمنع كين من الدخول.»

نافارو: «لماذا... لم تكتب كل هذا، وتخبرهم بالحقيقة، وما هذا المكان»

جيار: «عندما رجعت للقرية... كانت الجثث تملأ المكان، والأرض غارقة بالدماء، لم يقتلهم السحر أو الشياطين، بل البشر، فلم يعرف أحد مكان القرية سوى تاجرو وأرداف، ولم يغادرهم سواهم القرية، تاجرو مات أمام أعيننا»

نافارو: «هل تقصد!»

جيار: «أجل بعد عدة سنوات أصبح له مكانة مرموقة داخل الجيش، وكانت إحدى إنجازاته التي نشرتها الصحف القضاء على المتمردين».

نافارو: «كيف تأكدت أنه من فعلها؟»

جيار: «ذهبت إليه حيث يقيم هو وعائلته، ونظرت إليه طويلاً أنتظر دمعة واحدة أو حتى صرخة ندم على ما فعل، لكنه لم يتكلم أو يظهر أي شعور بالحزن، هرول مبتعداً ينادي على حراسه خوفاً على نفسه وأطفاله».

نافارو: «وأنت ماذا فعلت؟»

جيار: «لا شيء... تركته وذهبت، فلم يكن هناك أمل من الحديث معه أو أذيته، هو بالفعل مات عندما أرشد على القرية وتسبب في مقتل الجميع. عشت سنوات طويلة أتجول في البلاد بعدما امتلكت سحر إيفا... وأنا أفكر في حلم كين حول التغير، ولما تغير أرداف للأسوأ ثانيةً، بعد بحث مطول عن هذا الأمر، أدركت أن المجتمع ومن حولنا هم السبب الذي يدفعنا دائماً للصواب والخطأ، وأن البشرية أصابها العفن والمرض منذ زمن طويل ولا سبيل للتغيير سوى بالبداية الجديدة، لهذا تعلمت كل الأمور التي جهلها نيفا وغابت عن عقل كاهلو... وفعلت مثلما فعل كاهلو عندما تخفّى عن أعين الملك وأهل زوجته.

بإمكان سحر إيفا إخفاء الأماكن في أعين الناس فلا يصبح لها وجود في أعين المارة من الخارج. تدربت على هذا الأمر لسنوات طويلة. هناك العديد من حالات الاختفاء غير المفهومة والمحيرة للكثير حول العالم، في الحقيقة، جلبتهم جميعاً هنا، حتى كونت مجتمعاً صغيراً من جميع الطوائف المختلفة، في البداية كان التغيير الظاهر طفيفاً، حيث قامت الكثير من الحروب داخل المدينة وحاول الكثير السيطرة عليها ليستعبد الجميع وفقاً لرغباته، لكن الآن بعد انقضاءِ **70** جيلاً، بإمكانك رؤية التناغم والتوافق بين جميع الأطراف، لم يعد هناك تفرقة أو أمراض داخل قلوبهم... لقد تحقق حلم كين»

نافارو: «هل فعلت كل هذا من أجله؟!»
جيار: «أجل، لم أستطع إنقاذه، فأردت أن أحقق حلمه. فلن يستطيع البشر التغيير بمفردهم في تلك البيئة، الشرطي الفاسد ووالده كانوا من نسلي، رغم أني غرست القيم والمبادئ الأساسية في نفس أولادي وأحفادي، ليتعلم منهم جميع نسلي، لم ينجح الأمر في مدن مليئة بالمرض. والنتيجة كانت موت آخر فرد من ذريتي... آدم.

كانت الهدية التي أرسلتها والدتك غابرييل لجده وجدته، هي رأسه في صندوق هدايا، صعق كلٌّ منهما وماتا على الفور، وألقت الشرطة على غابرييل ووالدتها وأعدموهما. ووضعوا أخاها في أحد المستشفيات لتبني حالته، حدث هذا الأمر منذ 10 سنوات. لم أستطع المواصلة في حمايتهم بالسحر والمحافظة على هذا المكان، وحين اخترت هذا المكان ماتوا جميعاً.»

نافارو: «لم أكن أعلم... أنا آسفة لما حدث لهم»
جيار: «شكراً لك على منحي فرصة للشرح»
نافارو: «لكن لا يمكنك إبقاء الجميع هنا، سوف يعلمون الحقيقة يوماً ما عندما تموت. لن يمكنك الحياة للأبد، وأنت تعلم هذا، أعمارنا طويلة مقارنة بالبشر لكن لابد من الموت يوماً ما، فحينها سوف يتدمر كل هذا... وسوف يصبح الجميع أسوأ من السابق.»

جيار: «أعلم... دعكِ من هذا الآن، انظري إلى نفسك، أنت جميلة، بشرتك، شعرك، جسدك المتناسق، لا أصدق كيف وصفك كين بالعجوز... لديك سحر مذهل وشكل رائع».

ذكر جيار الكثير من الصفات الرائعة لدى نافارو وتغزل بها كثيراً وهو يقترب منها ليجعلها تشعر بالود وتسمح له بالاقتراب. نجح في الأمر حتى أصبح أمامها وتلاقت عيناه الزرقاوان المبهجتان، بعينيها السمراوين اللامعتين. ظل هكذا لثوانٍ معدودة، ثم ألقى بنفسه في أحضانها، وتشبث بها كالطفل الصغير.

تفاجأت نافارو من هذا الأمر، لكنها لم تأمره بالابتعاد، بالنسبة لها كان بمثابة صغيرها كين. بعد عدة دقائق عادت برأسها للخلف وهي تنظر إلى عينيه مرة أخرى وعلى وجهها علامة الذهول، بسبب همس جيار ببعض الكلمات في أذنها. رأت على وجهه ابتسامة صافية ورضا تاماً، قبل أن يتلاشى جسده من بين يدها ويصبح غباراً في الهواء... كأن لم يكن له وجود. لم تفهم ماذا حدث ولم تكن كلماته مفهومة لها. جلست على أحد الكراسي لشعورها بالتعب الشديد، وشعرت حينها أن جسدها بدأ في التلاشي مثل جيار. وآخر ما فكرت به كلمات جيار «شكراً لك على قبول دعوتي للمدينة، لولاكِ لما نجحت في تحقيق مسعاي».

هدف جيار هو إنشاء بداية جديدة والتخلص من القديمة المصابة بالمرض على حد قوله لما عاصره خلال حياته الطويلة، عندما علم بكذب إيفا تحقق من كل الأمور التي ذكرها واكتشف أن نافارو على قيد الحياة. لم تعثر عليه نافارو، بل هو من جعلها تعتقد هذا حتى اليوم باستخدام سحر الحياة الخاص بها. (بإمكان سحر الحياة الخاص بها بالاتصال بكل السحرة في القبائل المختلفة وامتصاص سحرهم لتدعيم القادة في الحروب، لكن جيار غيّر هذا الأمر بتعويذة محرمة ليجعلها متصلة بقلوب كل البشر في العالم خارج الجزيرة)، تمكن من دمج سحرها بسحره لتحقيق ما يريد على أرض الواقع، وهو امتصاص الحياة من قلوب جميع البشر عدا المدينة.

في اليوم التالي استيقظ أهل المدينة على صياح وفرح بسبب أن السماء أصبحت صافية، والغمامة التي كانت تمنعهم من رؤية ما حولهم ليس لها وجود... ظنوا أن التلوث الإشعاعيّ انتهى، وأصبح العالم صالحاً للحياة، لهذا هرولوا جميعاً إلى أطراف الجزيرة لتصيبهم الصدمة، أن المد والجزر أتيا ببقايا سفن محطمة والعديد من الجثث على أطراف الجزيرة، الأمر الذي جعلهم يصدقون روايات الماضي، بأن العالم ما زال مريضاً، وينبغي لهم التكاتف والعودة للمدينة، أملاً في غدٍ أفضل.

تمت بحمد الله

رواية
نسر الدم
محمد نزيه

الطبعة الأولى
1444 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .